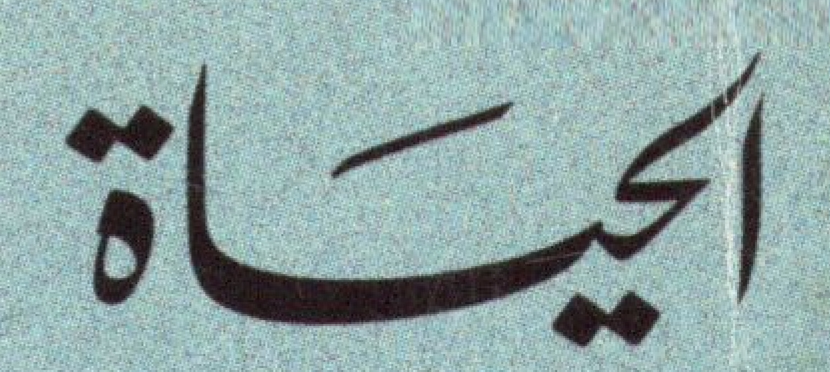




مجاناً مع الحياة

ابن حزم الأندلسي

طوق الحمامة

في الألفة والألاف

تحقيق

الدكتور إحسان عباس



الكتاب للجميع

٩

ابن حزم الأندلسي

طوق الحمامة

في الألفة والألاف

تحقيق

الدكتور إحسان عباس



٩

ابن حزم الأندلسي

طوق الحمامة

في الألفة والألاف

تحقيق

الدكتور إحسان عباس

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (الحياة)

دار المدى للثقافة والنشر

٢٠٠٢

الطبعة الاولى
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
١٩٩٣

مجاناً مع جريدة الحياة

الحياة

■

رئيس التحرير

جورج سمعان

الكتاب للجميع

■

مكتب الرياض: جرير بلازا- الدور الرابع-شارع العليا العام
ص.ب. ٦٨٩٠٧: ، الرياض ١١٥٣٧ .
الهاتف:٤٦١٥٦٧٥ / ٤٦١٥٤٩٦ / ٤٦١٥٤٠٢
الفاكس: ٤٦١٥٣٢٥
ادارة التسويق: هاتف:٤٦١٥٤٠٢، فاكس: ٤٦١٧٥٣٢
www.daralhayat.com
www.alhayat.com
تصدر عن شركة الحياة الدولية للنشر
Published by AL HAYAT publishing co,Ltd.UK
Printed in K.S.A by Arabian Printing & publishing House (APPH)
طُبع بالدار العربية للطباعة والنشر المملكة العربية السعودية - ص . ب (٦٢٤٥١) الرياض (١١٥٨٥)
تلفون: ٤٨٧٢٥٢٥ - ١ - ٩٦٦ +   فاكس: ٤٨٧٥٥٤ - ١ - ٩٦٦ +

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشراف الفني

محمد سعيد الصكار

العنوان

سورية - دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦

فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

- ١ -

(صدر الرسالة وأبوابها والكلام في ماهية الحب)

١ - (صدر الرسالة)

قال أبو محمد عفا الله عنه:

أفضل ما ابتدىء به حمدُ الله عزّ وجلّ بما هو أهله، ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصةً وعلى جميع أنبيائه عامة، وبعد.

عَصَمَنا الله وإياك من الحيرة، ولا حمَّلنا ما لا طاقة لنا به، وقيَّض لنا من جميل عونه دليلاً هادياً إلى طاعته، ووهبنا من توفيقه أدباً صارفاً عن معاصيه، ولا وكَلنا إلى ضعف عزائمنا، وخَوَر قوانا، ووهاء بنيتنا، وتلدُّد آرائنا[١]، وسوء اختيارنا، وقلّة تمييزنا، وفساد أهوائنا - فإن كتابَكَ وردني من مدينة المريَّة[٢] إلى مسكني بحضرة شاطبة[٣]، تَذكُر من حُسْن حالكَ ما يسرُّني، وحمدتُ الله عزّ وجلّ عليه واستدمته لك، واستزدّته فيك؛ ثم لم ألبثَ أن اطّلع[٤] عليَّ شخصك وَقَصَدْتَني بنفسك، على بعد الشُّقة وتنائي الديار وشَحَط المزار وطول المسافة وغَول الطريق؛ وفي دون هذا ما سلَّى المشتاق، ونسَّى الذاكر، إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك، ورعى سالفَ الأذمّة ووكيدَ المودات وحق النشأة ومحبة الصبا، وكانت مودته لله تعالى. ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون.

وكانت معانيك[٥] في كتابك زائدةً على ما عهدتُهُ من سائر كتبك، ثم كشفت إليَّ بإقبالكِ غرضَكَ، وأطلعتني على مذهبك، سجيةً لم تزل عليها من مشاركتك لي

في حُلوكَ ومُرِّكَ، وسرِّكَ وجهرك، يَحدوك الودُّ الصحيحُ الذي أنا لك على أضعافه، لا أبتغي جزاء غير مقابلته بمثله؛ وفي ذلك أقول مخاطباً لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر[٦] رحمه الله في كلمة لي طويلة وكان لي صديقاً: (من الطويل):

أودُّك وُدّاً ليس فيه غَضَاضَةٌ
وبَعْضُ مَوَدّاتِ الرجالِ سَرابُ

وأمْحَضُكَ النُّصْحَ الصريحَ وفي الحَشَا
لوُدِّكَ نَقْشٌ ظاهرٌ وكِتابُ

فلو كان في رُوحي سواكَ اقتلعتُه
ومُزِّقَ بالكفَّين عنه إهابُ

وما ليَ غيرُ الوُدِّ منْكَ إرادةٌ
ولا في سواه لي إليك خطابُ

إذا حُزتُهُ فالأرضُ جَمْعاءُ والورى
هباءٌ وسُكّانُ البلاد ذبابُ[٧]

وكلفتني ـ أعزّك الله ـ أن أصنِّفَ لك رسالةً في صفة الحبِّ ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله[٨] على سبيل الحقيقة، لا متزيداً ولا مفنّناً، لكن مُورداً لما يحضرَني على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي وسَعةُ باعي فيما أذكره، فبدرت[٩] إلى مرغوبك، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته، فهذا من اللغو، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رَحْبَ المنقلب وحُسْنَ المآب غداً، وإن كان القاضي حمام بن أحمد[١٠] حدّثني عن يحيى بن مالك بن عائذ[١١] بإسناد يرفعه إلى أبي الدرداء أنه قال: أجمُّوا النفوسَ بشيء من الباطل ليكونَ عوناً لها على الحقّ[١٢]؛ ومن أقوال الصالحين من السلف المرضيّ: من لم يحسن يتفتَّى لم يُحْسنْ يتقرأ[١٣]. وفي بعض الأثر: أريحوا النفوسَ فإنها تصدأ كما يصدأ الحديدُ[١٤].

والذي كلفتني فلا بدَّ فيه من ذكر ما شاهدتْه حضرتي، وأدركته عنايتي، وحدّثني به الثقات من أهل زماني، فاغتفرْ لي الكناية عن الأسماء فهي إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً وبحسبي أن أُسمي

من لا ضرر في تسميته ولا يَلحقنا والمسمّى عيبٌ في ذكره، إما لاشتهارٍ لا يُغني عنه الطيُّ وتركُ التبيين، وإما لرضى من المخبَرِ عنه بظهوره خبره وقلة إنكارٍ منه لنقله.

وسأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته، فلا تنكرْ أنت ـ ومن رآها ـ عليَّ أني سالك فيها مسلكَ حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلّين بقول الشعر، وأكثر من ذلك فإن إخواني يجشمونني القولَ فيما يعرض لهم على طرائقهم ومذاهبهم. وكفاني أني ذاكر لك ما عرض لي مما يشاكل ما نحوتُ نحوه وناسبُهُ إليّ.

والتزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدِّكَ، والاقتصارَ على ما رأيتُ أو صحَّ عندي بنقل الثقات، ودعني من أخبار الأعراب المتقدمين، فسبيلُهم غير سبيلنا، وقد كَثُرَت الأخبارُ عنهم، وما مذهبي أن أُنضي مطيةَ سواي، ولا أتحلّى بحليٍ مستعار، والله المستغفَر والمستعان لا ربَّ غيره.

٢ - (أبواب الرسالة)

وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين باباً:

منها في أصول الحب عشرة:

فأولها هذا الباب(١٥) ؛ ثم باب في علامات الحب، ثم باب فيه ذكر من أحب في النوم، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الاشارة بالعين، ثم باب المراسلة، ثم باب السفير.

ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً ـ وإن كان الحب عَرضاً، والعرض لا يحتمل الأعراض(١٦)، وصفةً، والصفة لا توصف، فهذا على مجاز اللغة في إقامة الصفة مقام الموصوف، وعلى معنى قولنا: وجودنا عرضاً أقل في الحقيقة من عرض غيره وأكثر وأحسن وأقبح، في إدراكنا لها (و) علمنا انها متباينة في الزيادة والنقصان(١٧) من ذاتها المرئية والمعلومة، إذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزي، لأنها لا تشغل مكاناً ـ وهي:

باب الصديق المساعد، ثم باب الوصل، ثم باب طي السر، ثم باب الكشف والاذاعة، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة، ثم باب من أحب صفة لم يُحبَّ بعدها

غيرها مما يخالفها، ثم باب القنوع، ثم باب الوفاء، ثم باب الغدر، ثم باب الضنى، ثم باب الموت.

ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب وهي:

باب العاذل، ثم باب الرقيب، ثم باب الواشي، ثم باب الهجر، ثم باب البين، ثم باب السلو.

ومن هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة الذكر، وهما:

باب العاذل، وضده باب الصديق المساعد؛ وباب الهجر، وضده باب الوصل.

ومنها أربعة أبواب لا ضد لها من معاني الحب وهي:

باب الرقيب، وباب الواشي، ولا ضد لهما إلا ارتفاعهما. وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول، وإن كان المتكلمون قد اختلفوا في ذلك، ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه[١٨] ـ. وباب البين وضده تصاقب الديار، ـ وليس التصاقب من معاني الحب التي نتكلم فيها ـ وباب السلو، وضده الحب بعينه، إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه.

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة، وهما:

باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف، ليكون خاتمة إيرادنا وآخرَ كلامنا الحضُّ على طاعة الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك مفترضٌ على كل مؤمن.

لكن خالفنا في نسق بعض هذه الأبواب هذه الرُّتبة المقسَّمَة في دَرْجِ هذا الباب الذي هو أولُ أبواب الرسالة، فجعلناها على مباديها إلى منتهاها واستحقاقها في التقدم والدرجات والوجود، ومن أول مراتبها إلى آخرها، وجعلنا الضد إلى جنب ضده فاختلف المساق في أبواب يسيرة والله المستعان.

وهيئتها في الإيراد: أولها هذا الباب الذي نحن فيه وفيه صدر الرسالة وتقسيم الأبواب والكلام في باب ماهية الحب، ثم باب علامات الحب، ثم باب من أحب في النوم، ثم باب من أحب بالوصف، ثم باب من أحب من نظرة واحدة، ثم باب من لا يحب إلا مع المطاولة، ثم باب من أحب صفةً لم يحبَّ بعدها غيرها مما يخالفها، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الاشارة بالعين، ثم باب المراسلة، ثم باب السفير، ثم باب طي السر، ثم باب إذاعته، ثم باب الطاعة، ثم باب المخالفة، ثم باب العاذل، ثم

باب المساعد من الاخوان، ثم باب الرقيب، ثم باب الواشي، ثم باب الوصل، ثم باب الهجر، ثم باب الوفاء، ثم باب الغدر، ثم باب البين، ثم باب القنوع، ثم باب الضنى، ثم باب السلو، ثم باب الموت، ثم باب قبح المعصية، ثم باب فضل التعفف.

٣ - (الكَلامُ في ماهيةِ الحُبِّ):

الحب - أعزّك الله - أوله هزل وآخره جد، دقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة. وليس بمنكَرٍ في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل.

وقد أحبَّ من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير، منهم بأندلسنا[١٩] عبد الرحمن بن معاوية[٢٠] لدَعجاء، والحكَم بن هشام[٢١]، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب[٢٢] أم عبد الله ابنه أشهرُ من الشمس، ومحمد بن عبد الرحمن[٢٣] وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم[٢٤]، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هشام المؤيد بالله[٢٥] رضي الله عنه وعن جميعهم وامتناعُه عن التعرض للولد من غيرها، ومثل هذا كثير. ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة - وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزمُ وإحياء الدين، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم - لأوردتُ من أخبارهم في هذا الشأن غيرَ قليل.

وأما كبار رجالهم ودعائم دولتهم فأكثر من أن يحصوا، وأحدثُ ذلك ما شاهدناه بالأمس من كَلَف المظفّر عبد الملك بن أبي عامر[٢٦] بواجد، بنت رجل من الجنَّانين[٢٧] حتى حمله حُبّها أن يتزوَّجَها، وهي التي خَلَفَ عليها بعد فناء العامريين الوزيرُ عبد الله بن مَسلمة[٢٨]، ثم تزوجها بعد قتله رجلٌ من رؤساء البربر.

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشي الحسيني[٢٩] أخبرني أن نزار بن معد صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن نزار[٣٠] الذي ولي الملكَ بعده وادعى الإلهية إلا بعد مدة من مولده، مساعدةً لجارية كان يحبّها حباً شديداً، هذا ولم يكن له ذَكَرٌ ولا من يرثُ ملكه ويُحيي ذكرَهُ سواه.

ومن الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية والأزمان القديمة من قد استغْنِيَ بأشعارهم عن ذكرهم؛ وقد ورد من خبر عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[٣١] وشعره ما فيه الكفاية، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة[٣٢]، وقد جاء من

فتيا ابن عباس رضي الله عنه ما لا يحتاج إلى غيره حين يقول(٣٣): هذا قتيلُ الهوى لا عَقْلَ ولا قَوَد.

وقد اختلف الناسُ في ماهيته وقالوا وأطالوا والذي أذهب إليه(٣٤) أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع(٣٥)، لا على ما حكاه محمد بن داود(٣٦) رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أكَرٌ مقسومة، لكنْ على سبيل مناسبة قواها في مقرِّ عالمِهَا العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها(٣٧).

وقد علمنا أن سرّ التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال، والشكل دأباً(٣٨) يستدعي شكلهُ، والمثْلُ إلى مثْله ساكن، وللمجانسة عملٌ محسوسٌ وتأثير مشاهَدٌ، والتنافرُ في الأضداد والموافقة في الأنداد والنزاعُ فيما تشابه موجودٌ فيما بيننا، فكيف بالنفس وعالمُها العالم الصافي الخفيف، وجوهرها الجوهرُ الصعَّاد المعتدل، وسنْخها المهيَّأُ لقبول الاتفاق والمَيل والتوق والانحراف والشّهوة والنفار - كل ذلك معلومٌ بالفطرة في أحوال تصرُّف الانسان فيسكن إليها(٣٩)، والله عزَّ وجلَّ يقول {هُو الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} (الاعراف: ١٨٩) فجعل علّةَ السكون أنها منه. ولو كان علةَ الحبِّ حُسْنُ الصورة الجسديّة لوجب ألا يُسْتَحْسَن الأنْقَصُ في الصورة(٤٠)، ونحن نجد كثيراً ممن يُؤْثرُ الأدنى ويعلم فَضْلَ غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه(٤١). ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنهُ شيء في ذات النفس.

وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب؛ وتلكَ تفنى بفناء سببها، فمن ودَّك لأمرٍ ولَّى مع انقضائه، وفي ذلك أقول: (من الطويل)

ودادي لك الباقي على حَسْب كونه
تَنَاهَى فلَمْ يَنْقصْ بشيء ولم يَزِدْ
وليستْ له غير الإرادَة(٤٢) علّة
ولا سببٌ حاشَاهُ يعلمُهُ أَحَدْ
إذا ما وجَدْنَا الشيء علَّةَ نفسه
فَذَاك وجودٌ لَيْسَ يَفْنَى على الأبَدْ

وإمـــا وجَـــدْنَاه لشيء خِـــلافَـــهُ

فـــإعـــدامُـــهُ في عَـــدِمْنا مـــا لـه وُجِـــدْ

ومما يؤكد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب(٤٣)، فأفضلها: محبةُ المتحابّين في الله عز وجل، إما لاجتهادٍ في العمل، وإما لاتفاقٍ في أصل النّحلة والمذهب(٤٤)، وإما لفضلِ علم يُمْنَحُهُ الإنسان؛ ومحبةُ القرابة، ومحبةُ الألفة والاشتراك في المطالب، ومحبةُ التصاحب والمعرفة، ومحبةُ البرّ(٤٥) يضعه المرء عند أخيه، ومحبةُ الطمع(٤٦) في جاه المحبوب، ومحبةُ المتحابّين لسرٍّ يجتمعان عليه يلزمهما سَتْرُهُ، ومحبةُ بلوغِ(٤٧) اللذة وقضاء الوطر، ومحبةُ العشقِ التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس.

فكلٌّ هذه الأجناس منقضيةٌ(٤٨) مع انقضاء عللها، وزائدةٌ بزيادتها، وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنوها فاترة ببعدها، حاشامحبة العشق الصحيح المتمكن من النفس فهي التي لا فناء لها إلا بالموت. وإنك لتجد الانسان السالي برغمه، وذا السِّنِّ المتناهية، إذا ذكّرته تذكّر وارتاح وصبا واعتاده الطرب واهتاج له الحنين.

ولا يعرض في شيء من هذه الأجناس المذكورة، من شُغل البال والخَبَلِ والوسواسِ وتبدُّلِ الغرائز المركبة، واستحالة السجايا المطبوعة، والنحولِ والزفير وسائر دلائل الشجا، ما يعرض في العشق، فصحّ بذلك أنه استحسانٌ روحاني وامتزاجٌ نفساني.

فإن قال قائل: لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية، إذ الجزءان مشتركان في الاتصال وحظهما واحد، فالجواب عن ذلك أن نقول: هذه لعمري معارَضَةٌ صحيحة، ولكنّ نفسَ(٤٩) الذي لا يحبُّ من يحبه مُكْتَنَفَةُ الجهاتِ ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية فلم تُحِسَّ بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيثُ هي، ولو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة. ونفس المحبِّ متخلّصَةٌ عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة، طالبةٌ له، قاصدةٌ إليه، باحثة عنه، مشتهيةٌ لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها كالمغنيطس والحديد.

فقوة جوهر المغنيطس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها ولا من تصفيتها أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها، كما أن قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس، تطلب ما يشبهها وتنقطع إليه

وتنهض نحوه بالطبع والضرورة وليس بالاختيار والتعمد. وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذبْ، إذ لم يبلغ من قوته أيضاً مغالبةَ المسك له مما هو أقوى منه. ومتى كثرتْ أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها، فمتى عظم جرم المغنيطس ووازتْ قُواه جميعَ قوى جِرْم الحديد عادت إلى طبعها المعهود.

وكالنار في الحجر(٥٠) لا تبرز على قوة النار في الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد القدح ومجاورة الجرمين بضغطهما واصطكاكهما، وإلا فهي كامنةٌ في حَجَرِها لا تبدو ولا تظهر.

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلةٌ واتفاق (في) الصفات الطبيعية، لابدَّ في هذا وإنْ قلّ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة، فانظر هذا تَرَهُ عياناً، وقولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده: "الأرواحُ جنودٌ مجنَّدة ما تعارَفَ منها ائتلف وما تناكَرَ منها اختلَف"(٥١)، وقولٌ مرويٌ عن أحد الصالحين: "أرواح المؤمنين تتعارف". ولذلك ما اغتمَّ بقراطُ حين وُصفَ له رجلٌ من أهل النقصان يحبه، فقيل له في ذلك فقال: ما أحبَّني إلا وقد وافقتَه في بعض أخلاقه(٥٢).

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلماً، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته، وعلم الملك أنه له ظالم، فقال له وزيره الذي كان يتولّى إيصالَ كلامه إليه: أيها الملك، قد استبان لك أنه بريءٌ فما لك وله؟ فقال الملك: لعمري ما لي إليه سبيل غير أني أجد لنفسي استثقالاً لا أدري ما هو. فأدّيَ ذلك إلى افلاطون. قال: فاحتجت أن أفتشَ في نفسي وأخلاقي شيئاً أقابلُ به نفسه وأخلاقه مما يشبهها، فنظرت في أخلاقه فإذا هو محبٌ للعدل كارهٌ للظلم، فميزت هذا الطبعَ فيّ، فما هو إلاّ أن حركتُ هذه الموافقةَ وقابلتُ نفسه بهذا الطبع الذي بنفسي فأمر بإطلاقي وقال لوزيره: قد انحلَّ كلُّ ما أجدُ في نفسي له.

وأما العلة التي توقع الحب أبداً في أكثر الأمر على الصورة الحسنة، فالظاهر أن النفسَ تولَعُ بكلِّ شيء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة، فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه(٥٣)، فإن ميّزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحَّت المحبة الحقيقية، وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة، وذلك هو الشهوة؛ وإن للصور لتوصيلاً عجيباً بين أجزاء النفوس النائية.

وقرأت في السفر الأول من التوراة[٥٤] أن النبيَّ يعقوب عليه السلام أيام رَعيه غنماً للابان خاله مَهراً لابنته شارَطَهُ على المشاركة في إنسالها، فكلُّ بهيمٍ ليعقوبَ وكلُّ أغرَّ للابان، فكان يعقوبُ عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخُ نصفاً ويترك نصفاً بحاله، ثم يلقي الجميع في الماء الذي ترده الغنم، ويتعمد إرسالَ الطَّرُوقة في ذلك الوقت فلا تلد إلا نصفين، نصفا بُهماً ونصفٌ غُرّاً.

وذُكرَ عن بعض القافة أنه أُتيَ بابن أسود لأبيضين، فنظر إلى أعلامه فرآه لهما غيّر شكٍّ، فرغب أن يُوقَف على الموضع الذي اجتمعا عليه، فأدخل البيتَ الذي كان فيه مضجعهما، فرأى فيما يوازي نظر المرأة صورةً أسودَ في الحائط، فقال لأبيه: من قِبَلِ هذه الصورة أُتيتَ في ابنك....

وكثيراً ما يصرّفُ شعراءُ أهل الكلام هذا المعنى في أشعارهم، فيخاطبون المرئيّ في الظاهر خطاب المعقول الباطن، وهو المستفيض في شعر النظّام ابراهيم بن سيّار[٥٥] وغيره من المتكلمين، وفي ذلك أقول شعراً منه: (من البسيط):

ما علةُ النَّصْر في الأعداء نَعْرفها
وعلّةُ الفَرّ منهم إذ يَفرُّونا
إلا نزاعُ نُفوسِ الناس قاطبةً
إليكَ يا لُؤلؤاً في الناس مكنونا
مَن كنتَ قدامَه لا ينثني أبداً
فهُم إلى نورك الصعّاد يَعشونا
ومَن تكُنْ خلفَه فالنفس تَصرفُهُ
إليك طوعاً فهم دأباً يَكُرُّونا

ومن ذلك أقول: (من الطويل)

أمِنْ عالم الأمْلاكِ[٥٦] أنت أم انْسيٌّ
أبِنْ لي فقد أزْرَى بتمييزيَ العِيُّ
أرى هيئةً إنسيّةً غيرَ أنه
إذا أُعْمِلُ التفكيرُ فالجِرمُ عُلوي
تبارك مَنْ سَوّى مذاهبَ خَلْقه
على أنّكَ النورُ الأنيقُ الطبيعيُّ

ولا شك عندي أنك الروحُ ساقَهُ
إلينا مثالٌ في النفوس اتصَاليٌّ
عَدمنا دليلاً في حُدوثك شاهداً
نَقيسُ عليه غيرَ أنك مرْئي
ولولا وقُوعُ العينِ في الكون لم نقُل
سوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقيُّ

وكان بعض أصحابنا يُسمِّي قصيدةً لي "الإدراك المتوهم" منها: (من المتقارب)

ترى كلَّ ضدٌّ به قائماً
فكيف تَحُدُّ اختلافَ المعاني
فيا أيها الجسمُ لا ذا جهاتٍ
ويا عَرضاً ثابتاً غيرَ فانِ
نقضْت علينا وجُوهَ الكَلامِ
فما هو مُذ لُحتَ بالمُستبانِ

وهذا بعينه موجودٌ في البغضة، ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ولا علة، ويستثقل بعضهما بعضاً بلا سبب.

والحب - أعزك الله - داءٌ عَياءٌ وفيه الدواء منه على قدر المعاناة(٥٧)، وسقامٌ مستلذٌ وعلة مشتهاة لا يودّ سليمُها البرء ولا يتمنّى عليلها الإفاقة؛ يُزيّن للمرء ما كان يأنف منه، ويسهِّلُ عليه ما كان يصعبُ عنده حتى يحيلَ الطبائعَ المركبة والجبلَّة المخلوقة، وسيأتي كل ذلك ملخصاً في بابه إن شاء الله.

خبر:

ولقد علمتُ فتًى من بعض معارفي قد وَحِل في الحب وتورّط في حبائله، وأضرَّ به الوجدُ، وأنصبه(٥٨) الدنف، وما كانت نفسُه تطيب بالدعاء إلى الله عزّ وجلّ في كشف ما به ولا ينطق به لسانه، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكّن ممن يحب، على عظيم بلائه وطويل همه، فما الظنّ بسقيم لا يريد فقْد سقمه؟! ولقد جالسته يوماً فرأيت من اكتئابه وسوء حاله وإطراقه ما ساءني، فقلت له في بعض قولي: "فرَّجَ

الله عنك" فلقد رأيت أثرَ الكراهيةِ في وجهه؛ وفي مثله أقول من كلمة طويلة: (من البسيط)

وأستلذُّ بلائي فيك يا أملي
ولستُ عنك مدَى الأيام أنصرفُ
إن قيلَ لي تتسلى عن مودّته
فما جوابيَ إلا اللامُ والألفُ

خبر:

وهذه الصفات مخالفةٌ لما أخبرني به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشيّ المعروف بالشبانسي(٥٩)، من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية أنه لم يحبَّ أحداً قط، ولا أسِف على إلفٍ بانَ منه، ولا تجاوزَ حدَّ الصُّحبة والألفة إلى حدّ الحب والعِشق منذ خُلق.

الهوامش

(١) قد تقرأ أيضاً "آرابنا"، والتلدّد: التحير.

(٢) المرية (:(Almeria بنيت عام ٣٤٤ وأصبحت أهم قاعدة للأسطول الاندلسي على البحر المتوسط. (انظر الروض: ١٨٣/٥٣٧ والترجمة: ٢٢١ والزهري: ١٠١ والعذري: ٨٦).

(٣) شاطبة (:(Jativaتقع إلى الجنوب الغربي من بلنسية، وكانت في الأيام الاسلامية مدينة حصينة يعمل بها كاغد لا نظير له (الروض: ٣٣٧؛ والادريسي (دوزي): ١٩٢ والعذري: ١٨ وآثار البلاد: ٥٣٩).

(٤) اطلع بمعنى طلع.

(٥) قرأها برشيه: مغازيك.

(٦) المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر قتل خنقاً صبيحة الليلةالتي مات فيها أخوه الحكم المستنصر في مؤامرة شرحها ابن حيان؛ (انظر الذخيرة لابن بسام ١/٤ : ٥٨ ط. بيروت) كي تكون البيعة مضمونة لأخيه الأصغر هشام المؤيد؛ ويقول ابن حزم في الجمهرة: ١٠٣ إن للمغيرة عقباً من قبل عبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة؛ وهذا هو صديقه الذي يذكره هنا في الطوق، وقوله "رحمه الله" يدلُّ على أنه كان قد توفي قبل تأليف طوق الحمامة، ولكنه خلّف عقباً كان ابن حزم يعرفهم أيضاً.

(٧) يعارض ابن حزم هنا ـ في هذه الأبيات ـ المتنبي وأبا فراس، وبيته هذا الأخير يذكر بقول أحدهما:

إذا صحَّ منك الودّ فالكلُّ هين
وكل الذي فوق التراب تراب

(٨) يقع فيه وله: أي يحدث أثناءه ومن أجله وبسببه؛ ومن قرأ "يحدث فيه (من) وله" فإنما يوجه العبارة وجهة خاصة، إذ ليس كل ما يحدث في الحب ولهاً.

(٩) تقرأ أيضاً: فبادرت، وهما بمعنىً.

(٢٠) حمام بن أحمد بن عبد الله: كان - في رأي ابن حزم - واحد عصره في البلاغة وسعة الرواية، ضابطاً لما قيده، ولي قضاء يابرة وشنترين والاشبونة وسائر الغرب أيام عبد الملك المظفر بن المنصور وأخيه عبد الرحمن، وتوفي بقرطبة (٤٢١)؛ (انظر ترجمته في الصلة: ١٥٣ والجذوة: ١٨٧؛ والبغية رقم: ٦٧٧).

(١١) في مختلف الطبعات: يحيى بن مالك عن عائذ؛ وهو يحيى بن مالك بن عائذ بن كيسان، أبو زكرياء مولى هشام بن عبد الملك، من أهل طرطوشة، سمع ببلده ورحل إلى المشرق (٣٤٧) وتردد هنالك نحواً من اثنتين وعشرين سنة وكتب عن طبقات من المحدثين بمصر وبغداد والبصرة والأهواز، وعاد إلى بلده (٣٦٩) فسمع من ضروب من الناس وطبقات من أهل العلم، وكانت وفاته بقرطبة سنة ٣٧٥ (انظر ابن الفرضي ٢: ١٩١ والجذوة: ٣٥٦ والبغية رقم: ١٤٩٢).

(١٢) ورد قول أبي الدرداء في بهجة المجالس (١: ١١٥) "إني لأستجمُّ قلبي بشيء من اللهو ليكون أقوى لي على الحق".

(١٣) في معظم الطبعات: يتقوى؛ ولا معنى لها، وقرأها برشيه: تيقرى؛ وهي بالألف الطويلة يتقرا لأنها مخففة عن "يتقرأ" أي يتنسك؛ والمتقرىء: الناسك، وفي أخبار أبي عمرو بن العلاء أنه لما تقرأ طمر كتبه والمعنى: إذا لم يحسن المرء أن يتفتى في فترة الفتوة، لم يستطع أن يتنسك حين يقع في دور النسك.

(١٤) من أقوالهم: "حادثوا هذه القلوب فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد" (بهجة المجالس ١: ١١٦) ومعنى حادثوا: اصقلوا.

(١٥) يعني: "أولها هذا الباب الذي نحن فيه وفيه صدر الرسالة وتقسيم الأبواب والكلام في ماهية الحب"، فالكلام في ماهية الحب جزء من الباب الأول يسبقه جزءان آخران هما فاتحة الكتاب وذكر الأبواب.

(١٦) يقول ابن حزم (الفصل ٥: ١٠٨) ولسنا نقول إن عرضاً يحمل عرضاً إلى ما لا نهاية له. قلت: وفي هذا إيماء إلى أن العرض قد يحمل عرضاً، وقد صرح في موضع آخر (الفصل ٥: ٤٧) ان بعض الأعراض قد يحمل الأعراض كقولنا: حمرة مشرقة وحمرة كدرة وعمل سيىء وعمل صالح وقوة شديدة وقوة دونها في الشدة، ومثل هذا كثير.

(١٧) قولنا... والنقصان: عبارة تبدو مضطربة.

(١٨) تحدث ابن حزم عن التضاد في كتاب التقريب (ص: ٧١) فقال: "والأضداد هي كل نقطتين اقتسم معنياهما طرفي البعد وكانا واقعين تحت مقولة واحدة وكان بينهما وسائط" فالسواد والبياض ضدان تحت جنس واحد وهو اللون، والجود والشح تحت جنسين هما الفضيلة والرذيلة. وكل ضدين يدركان بحاسة واحدة، وكل ضدين ان كان أحدهما في النفس فالآخر فيها أيضاً... وقال: فالمتضادة هي ما إذا وقع أحدهما ارتفع الآخر وبينهما وسائط وفرق بين المتضادة والمتنافية، بأن المتنافية هي ما إذا ارتفع أحدهما وقع الآخر ولا وسائط بينهما، كالحياة والموت والاجتماع والافتراق.

(١٩) عبارة: وقد أحبَّ من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدية (هكذا): وردت عند ابن قيم الجوزية في كتاب الجواب الكافي: ١٦٤؛ وعند الشيخ يوسف بن مرعي الحنبلي في منية المحبين (نسخة مكتبة بلدية الاسكندرية) الورقة: ٩ (انظر مقالة غرسيه غومس، مجلة الأندلس (١٩٥١): ٣٢٦؛ إلا أن كليهما لم يذكر أئمة الأندلس،

ولعلهما لم يكونا يعتقدان أنهم أئمة راشدون واكتفيا بذكر عشق عمر بن عبد العزيز لجارية زوجته (وقد فصل ابن القيم القصة ص: ١٧١ كما وردت في تزيين الأسواق ٢: ٦٥) وذكرا خبر عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود (انظر الجواب الكافي: ١٥٨).

(٢٠) هو عبد الرحمن الداخل صقر قريش أبو المطرف (١٣٨ ـ ١٧٢ / ٧٥٥ ـ ٧٨٨).

(٢١) الحكم بن هشام حفيد عبد الرحمن الداخل (١٨٠ ـ ٢٠٦ / ٧٩٦ ـ ٨٢١) ولم يذكر من كان يحبّ؛ وقد ذكر ابن عذاري (البيان المغرب ٢: ٧٩) أنه كان له خمس جوار قد استخلصهن لنفسه وملكهن أمره؛ ولعلّ هذه الكثرة في العدد هي التي حالت بين ابن حزم وذكر هذه الحقيقة، لأن هذا التكثر يعارض معنى الحبّ كما يفهمه، مما سيجيء تبيانه.

(٢٢) عبد الرحمن بن الحكم أبو المطرف (٢٠٦ ـ ٢٣٨ / ٨٢١ ـ ٨٥٢)؛ وانظر جانباً من أخباره مع طروب عند ابن عذاري (٢: ٩٢) وابن الأبار (الحلة السيراء ١: ١١٤، ١١٦) ومن غزله فيها:

وإمـــــا بدت لـي شـــــمس النهــــار ... طـالعــــة ذكـــــرتـنـي طـروبـا

(٢٣) محمد بن عبد الرحمن بن الحكم أبو عبد الله (٢٣٨ ـ ٢٧٣ / ٨٥٢ ـ ٨٨٦)، ولد وثلاثين ذكراً ونيفاً، وكان جلّهم قد انقرض في أيام ابن حزم (الجمهرة: ٩٩)

(٢٤) نوّه ابن حزم بالمطرف ابن الأمير محمد وبأنه كان شاعراً مفلقاً عالماً بالغناء، قال: وكان عثمان وابراهيم ابنا محمد عارفين بالغناء جداً، ولم يذكر شيئاً عن القاسم إلا أنه كان يعرف أن رجلاً واحداً من عقبه ربما بقي حتى أيامه (الجمهرة: ٩٩)؛ وترجم الحميدي (الجذوة: ٣٧٧) لمن اسمه أبو القاسم من أبناء الأمير محمد، وقال انه كان يعرف بابن غزلان؛ وكان القاسم قد اختص الشاعر العتبيّ وله معه حكايات (المغرب ١: ١٣٤).

(٢٥) الحكم المستنصر أبو المطرف بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦ / ٩٦١ ـ ٩٧٦) الخليفة العالم؛ تزوج جارية بشكنسية اسمها صبح (Aurora) ورزق منها بابنه هشام الذي تولى الخلافة من بعده، ولم يكن له فيها إلا الاسم إذ قام بالأمر الحاجب المنصور بن أبي عامر؛ أمّا هشام فكان حكمه الاسمي (٣٦٦ ـ ٣٩٩ / ٨٧٦ / ١٠٠٨) ومرة ثانية (٤٠٠ ـ ٤٠٣ / ١٠٠٩ ـ ١٠١٣) وقد ذهب بعضهم إلى تصوّر علاقة عاطفية بين صبح والمنصور، دفعت بهذا إلى تحقيق طموحه؛ ولكن المصادر تشير إلى انه استمالها بالهدايا والالطاف، وانتهى تضارب المصالح إلى كراهية عميقة.

(٢٦) الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور (٣٩٢ ـ ٣٩٨ / ١٠٠٢ ـ ١٠٠٨) خلف أباه المنصور في الحجابة، وكانت السلطة الفعلية بيده، وفي أيامه أخلد الاندلسيون إلى الراحة وتنافسوا في زخرف الدنيا (انظر الذخيرة ٤/١: ٧٨ وما بعدها).

(٢٧) بواجد... الجنائين؛ هذه هي قراءة بروفنسال، (انظر مجلة الأندلس ١٥ (١٩٥٠): ٣٥٠ وسأشير إليها من بعد باسم: الأندلس)، وقد قرئت قبله "بواحد... الجبائين"، وإن صحت القراءة فيبدو أن اسم "واجد" كان شائعاً، إذ كانت لابن الشرح زوجة بهذا الاسم (البيان المغرب ٣: ٨٠).

(٢٨) عبد الله بن مسلمة: لعله الذي كان صاحب مدينة الزاهرة عندما ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار لينتزع الخلافة من هشام المؤيد (ابن عذاري ٣: ٥٨) وقد اتصل به صاعد البغدادي أول دخوله الأندلس، ثم نكب عبد الله فكان صاعد يستعطف له أبا جعفر بن الدب ليشفع به لدى سليمان المستعين (الذخيرة ٤/١: ١٠ـ١١).

(٢٩) أغلب ظني أنه حسيني لا حسيني، وان كنت لم أجده بين أسماء الطارئين على الأندلس.

(٣٠) نزار بن معد هوأبومنصور العزيز بالله بن المعز لدين الله، ولد سنة ٣٤٥ وبويع بالخلافة سنة ٣٦٥ وبقي حتى ٣٨٦، أما منصور فهو المعروف بالحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١).

(٣١) من أعلام التابعين، وكان عالماً ناسكاً، توفي بالمدينة (بين ٩٨، ١٠٢هـ) وله شعر غزلي رقيق (انظر ابن خلكان ٣: ١١٥ والأغاني ٩: ١٣٥ وفي حاشية ابن خلكان توسّع في ذكر مصادر أخرى).

(٣٢) الفقهاء السبعة: عروة بن الزبير، سعيد بن المسيب، سليمان بن ياسر، عبيد الله بن عتبة، أبو بكر ابن عبد الرحمن، قاسم بن محمد، خارجة بن زيد، وقد جمعهم بعضهم بقوله:

ألا كل من لا يقتدي بأئمة
فقسمته ضيزى عن الحق خارجه
فخذهم عبيد الله عروة قاسم
سعيد سليمان أبو بكر خارجه

(ابن خلكان ١: ٢٨٣)

(٣٣) انظر محاضرات الراغب ٢: ٤٥ (ط. بيروت) وفيه قال ابن عباس "قتيل الهوى هدر... الخ، وانظر القول مقترناً بقصته في الموشى (٧٢-٧٣)؛ ونقل ابن القيم (الجواب الكافي: ١٧٥) هذا القول عن ابن حزم مصرّحاً باسمه.

(٣٤) قوله: والذي اذهب اليه... إلى قوله: فعلمنا أنه شيء في ذات النفس، نقله ابن القيم في روضة المحبين: ٧٤-٧٦.

(٣٥) في أصل عنصرها الرفيع: كأنه تعبير آخر عن القول "في عالم المثل".

(٣٦) محمد بن داود الظاهري أبو بكر (ـ ٢٩٧): كان فقيهاً أديباً شاعراً ظريفاً، وهو صاحب كتاب الزهرة، وهو في جزءين أحدهما في الحب وقد طبع بتحقيق نيكل وطوقان (١٩٣٢) والثاني في التقوى وقد طبع في بغداد (١٩٧٥) بتحقيق الدكتورين ابراهيم السامرائي ونوري حمودي القيسي. (انظر ابن خلكان ٤: ٢٥٩، والفهرست: ٢١٧ وتاريخ بغداد ٥: ٢٥٦، والوافي ٣: ٥٨).

(٣٧) هذا القول مأخوذ من كتاب "الزهرة" ونصه هنالك "وزعم بعض المتفلسفين ان الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ثم قطعها أيضاً فجعل فى كل جسد نصفاً وكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع من النصف الذي معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة (الزهرة ١: ١٥ وانظر محاضرات الراغب ٢: ٤٠)؛ والفرق بين رأي ابن حزم ورأي ابن داود هو في القسمة نفسها، فبينما يذهب ابن حزم إلى أن النفوس تجزأت عدة أجزاء، يرى ابن داود أن الكرة انقسمت نصفين وحسب، كل منهما يطلب صاحبه، وفي نهاية المطاف نجد ابن حزم الذي لا يؤمن بالتكثر، يأخذ برأي ابن داود من وجهة عملية؛ لماذا رفض ابن حزم الشكل الكري للأرواح؛ هذا ما لايقدم تفسيراً له؛ هل كان ابن حزم يرى تعدد التوق إلى ائتلاف الأقسام في مراحل مختلفة من العمر؟

(٣٨) روضة المحبين: فالشكل إلما؛ وقضية انجذاب المثل إلى مثله (أو كما قال المتنبي وشبه الشيء منجذب إليه) موجودة في مأدبة أفلاطون ص: ٦٨، وتتردد في مواضع مختلفة، انظر روضة المحبين: ٦٧.

(٣٩) الضمير في "إليها" مبهم، ولعلّ هنا سقطاً في النص؛ وربما كانت عبارة "فيسكن إليها" زائدة لا ضرورة لها لأن ما بعدها يغني عنها. أو لعلنا أن نقرأ "ليجد النفس التي هي شطرٌ منه فيسكن إليها"؛ وقد سقطت العبارة "كل ذلك... إليها" من روضة المحبين.

(٤٠) روضة المحبين: من الصور.

(٤١) قارن بقول ابن الجوزي: وإذا كان سبب العشق اتفاقاً في الطباع بطل قول من قال ان العشق لا يكون إلا للأشياء المستحسنة وإنما يكون العشق لنوع مناسبة وملاءمة ثم قد يكون الشيء حسناً عند شخص،غير حسن عند آخر (ذم الهوى: ٣٠٠).

(٤٢) تعبير "الارادة" هنا لا أظنه يعني "الارادة الإنسانية" وإنما التقدير الإلهي، أي ان ذلك شيء مرتب في طبيعة النفس، حسب التوفيق الإلهي، ولهذا عبر عن هذا الموقف بقوله: "الشيء علة نفسه".

(٤٣) هنا يوسع ابن حزم في مفهوم "الحب"، حتى يصبح معنى الاتصال بين أجزاء النفوس ليس اتصالاً بين ذكر وأنثى، وإنما هو اتصال بين الأجزاء المتشابهة في كل صعيد، وعلى هذا الفهم، سيمضي في كل رسالته؛ فجهة العشق التي علتها اتصال النفوس ليست إلا وجهاً واحداً من وجوه المحبة،وقارن بما ورد في رسالة في مداواة النفوس (رسائل: ١٣٨).

(٤٤) روضة المحبين: في أصل المذهب.

(٤٥) روضة المحبين: ومحبةُ لبِرّ.

(٤٦) روضة المحبين: ومحبة لطَمع.

(٤٧) روضة المحبين: ومحبة لبلوغ.

(٤٨) روضة المحبين: وكل... فمنقطية.

(٤٩) ولكن نفس... والحديد: وردت في روضة المحبين: ٧٦ وزاد إليها قول ابن حزم بعد ذلك "وكالنار في الحجر" مع حذف ما بينهما.

(٥٠) هذا التمثيل إنما يصحّ اعتماداً على نظرية "الكمون" التي كانت سائدة حينئذ؛ أي أن النار كامنة في الحجر، ومهمة القدح أن يستخرجها (انظر الحيوان للجاحظ ٥: ١٠ وما بعدها)؛ وتشبيه الحبّ بالنار الكامنة، ورد على لسان جارية في قصة في الموشى: ٧١ "له كمونٌ ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى، وإن تركته توارى"؛ وفي ديوان الصبابة: ١٠.

(٥١) ورد هذا الحديث في البخاري (باب الأنبياء: ٢) ومسلم "باب البر: ١٥٩، ١٦٠) ومسند أحمد ٢: ٢٩٥، ٥٣٧، ٥٧٢ وانظر بهجة المجالس ١: ٦٤١ والصداقة والصديق: ١٣٦ والموشى: ٢٥ ومحاضرات الراغب ٢: ٩، ٥٣، ونسب إلى سقراط قوله: "النفوس أشكال فما تشكل منها اتفق وما تضاد اختلف" (مختار الحكم: ٩٣) وانظر روضة المحبين: ٧٣ وأورد فيه قصة؛

(٥٢) أقرب الأقوال إلى هذا قول منسوب إلى أنطيانس، إذ مدحه رجل شرير فقال له: ما أحوجني أن أكون قد فعلت شراً إذ كنت قد استحسنت مني شيئاً (صوان الحكمة: ٢٤٧) وقول أبقراط هذا قد نقله ابن حجة في كتابه ديوان الصبابة: ٤٩ وابن القيم في روضة المحبين: ٧٣؛ وانظر: دراسات عن ابن حزم للدكتور الطاهر مكي (القاهرة ١٩٧٧) ص٣٢٤-٣٣٩.

(٥٣) قارن هذا بقول علي بن ربن الطبري "فإن من شأن النفس الولوع والعجب بكل شيء حسن من جوهر أو نبت أو دابة،فإذا اتفق مثل ذلك الحسن في شيء هو من جنس الإنسان ومما في غريزته الحبّ له اهتاجت الشهوة حينئذ وحرصت النفس على مواصلته وقربه" (فالنصان متشابهان إلى حدّ بعيد، وابن ربن توفى سنة ٢٤٧هـ). ويقول ابن الجوزي: العشق شدة ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها فإذا قوي فكرها فيها تصورت حصولها وتمنت ذلك (ذم الهوى: ٢٩٣ وانظر أيضاً: ٢٩٦).

(٥٤) انظر سفر التكوين؛ الاصحاح: ٣٠/ ٢٥-٤٣.

(٥٥) ابراهيم بن سيار النظّام أبو اسحاق ٢٣١/٨٤٥ أستاذ الجاحظ من أبرز المتكلمين البصريين، له عدة مؤلفات (انظر الفهرست: ٢٠٥ وطبقات المعتزلة: ٤٩) وأخباره وآراؤه مبثوثة في كتب الجاحظ، وللدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة دراسة عنه (القاهرة ١٩٤٦)؛ قال ابن النديم: وذهب في شعره مذهب الكلام الفلسفي، وقد أورد ابن نباتة في سرح العيون: ٢٣٠-٢٣١ نماذج من شعره، ينطبق عليها ما يومىء إليه ابن حزم.

(٥٦) المعروف أن "أملاك" جمع ملك - بكسر اللام - ولكنه استعملها هنا جمعاً لملك - بفتح اللام -، مفرد ملائكة؛ ولا بأس من قراءتها "الافلاك" لتحدثه من بعد عن "الجرم العلويّ".

(٥٧) في طبعة بتروف وغيرها: المعاملة؛ وما أثبته هو قراءة برشيه.

(٥٨) هذه هي قراءة برشيه؛ وفي مختلف الطبعات: "وأنضجه الدنف" وليس في معاني لفظ "أنضج" ما يمكن توجيهه نحو هذا المعنى.

(٥٩) محمد بن قاسم بن محمد بن اسماعيل بن هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن هشام الرضى بن عبد الرحمن بن معاوية القرشى المرواني المعروف بالشبانسي، كان عالماً بالآداب متقدماً في البلاغة والكتابة، استقر بعد الفتنة بطليطلة كاتباً للرسائل بها، وتوفي سنة ٤٤٧ (التكملة ١: ٣٨٩) ولأبيه القاسم بن محمد الشبانسي ترجمة في الجذوة: ٣١٠ والبغية رقم: ١٢٩٦ وكان الأب أيضاً أديباً شاعراً، سجن في أيام المنصور فكتب إليه بقصيدة يستعطفه فيها فرقّ له وأطلقه؛ ولأخيه عبد الرحمن ترجمة في التكملة رقم: ١٥٤٩؛ وقد تصحفت كلمة "الشبانسي" في طبعات الطوق وتنبه لها غرسيه غومس (انظر ترجمته للطوق: ١٠٣ الحاشية رقم: ٢).

- ٢ -
باب علامَاتِ الحُبِّ

وللحب علامات يقفوها الفَطِنُ(١)، ويهتدي إليها الذكيّ. فأولها إدمانُ النظر؛ والعينُ باب النفس الشارعُ، وهي المنقّبةُ عن سرائرها، والمعبِّرة لضمائرها، والمعربةُ عن بواطنها. فترى الناظرَ لا يطرف، يتنقّل بتنقّلِ المحبوب وينزوي بانزوائه، ويميلُ حيث مال، كالحرباء مع الشمس، وفي ذلك أقول شعراً منه: (من الطويل)

فَلَيسَ لعَيْني عند غَيرِكَ موقفٌ
كأنك ما يحكون من حَجَرِ البَهْتِ(٢)
أُصرِّفُها حيثُ انصرفتَ وكيفما
تقلبتَ كالمنعوتِ في النَّحوِ والنَّعتِ

ومنها الإقبالُ بالحديث، فما يكاد(٣) يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك، وإن التكلف ليستبين لمن يرمقُه فيه؛ والإنصاتُ لحديثه إذا حدَّثَ، واستغرابُ كلِّ ما يأتي به ولو أنه عينُ المحال وخَرْقُ العادات؛ وتصديقُهُ وإن كَذَبَ؛ وموافقتُه وإن ظَلَم؛ والشهادةُ له وإن جار، واتّباعُهُ كيف سلك وأيّ وجهٍ من وجوه القول تناول؛ ومنها الإسراعُ بالسير نحو المكان الذي يكون فيه؛ والتعمّدُ للقعود بقربه والدنو منه؛ واطّراح الأشغالِ الموجبة للزوال عنه، والاستهانةُ بكلِّ خطب جليل داعٍ إلى مفارقته؛ والتباطؤُ في المشي(٤) عند القيام عنه؛ وفي ذلك أقول شعراً: (من الخفيف)

وإذا قُمتُ عنك لم أمش إلاّ
مَشْيَ عانٍ يُقادُ نحو الفَناء
في مَجيئي إليكَ أحتثُّ كالبد
ر إذا كان قاطعاً للسماء
وقيامي إن قمت كالأنجم العليا
ليةِ الثابتاتِ في الإبطاء

ومنها بَهْتٌ يقع وروعةٌ تبدو على المحبِّ عند رؤيةِ من يحبُّ فجأةً وطلوعه بغتةً؛ ومنها اضطراب يبدو على المحبِّ عند رؤية من يُشبه محبوبَه أو عند سماعِ اسمه فجأةً. وفي ذلك أقولُ قطعةً منها: (من الطويل)

إذا ما رأتْ عينايَ لابسَ حُمرةٍ
تقطَّع قلبي حَسرةً وتَقَطَّرا
غدا لدماءِ النّاسِ باللحظ سافكاً
وضُرِّجَ منها ثوبُهُ فَتعصفَرا

ومنها أن يجودَ المرءُ ببذل كلِّ ما كان يقدر عليه مما كان يشحُّ[٥] به قبل ذلك، كأنه هو الموهوب له والمسعيُّ في حظه، كل ذلك ليُبديَ محاسنه ويُرغِّب في نفسه؛ فكم بخيل جاد، وقَطوب تطلَّق، وجبانٍ تشجَّع، وغليظ الطبع تظرَّف، وجاهلٍ تأدَّب، وتَفِلٍ[٦] تزيَّنَ، وفقيرٍ تجمَّل، وذي سنٍّ تفتَّى، وناسكٍ تفتَّك، ومَصُونٍ تهتَّك.

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجُّجَ حريقه، وتوقُّد شُعَله واستطارةِ لهبه. فأما إذا تمكَّنَ وأخذَ مأخذه فحينئذ ترى الحديثَ سِراراً، والإعراضَ عن كل مَن حَضر إلاّ عن المحبوبِ جهاراً. ولي أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات، منها: (من البسيط)

أهوى الحديثَ إذا ما كان يُذْكَرُ لي
فيه ويَعبَقُ لي عن عَنبرٍ أرجِ
إن قالَ لم أستمعْ ممّن يُجالسُني
إلى سوَى لَفظهِ المستظرف الغَنِجِ
ولو يكونُ أميرُ المؤمنين معي
ما كنتُ مَن أجله عنه بمُنعرِجِ

فــــإن أقُمْ عنه مـــــضطراً فـــإنيَ لا
أزالُ مُلتـــفـــتــــاً والمشيُ مـــشيُ وَجي (٧)
عــيناي فــيـــه وجـســـمي عنهُ مــرتحلُ
مـــثلُ ارتقـــاب الغـــريقِ البَــرَّ في اللججِ
أغَصُّ بـالماء إن أذكـــــرْ تـبــــاعُـــــدَهُ
كـــــمن تـشــــاءب وسطَ النقعِ والرَهَجِ (٨)
وأن تقُل مُـــمكنٌ قــصْــدُ الســمـــاء أقُلْ
نَـعـمْ وإنـي لأدري مـــــــــوضِـعَ الـدّرجِ

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكُلِّ بَصر: الانبساطُ الكثير الزائد (في المكان الضيّق)(٩) والتضايقُ في المكان الواسع، والمجاذبةُ على الشيء يأخذه أحدهما، وكثرةُ الغمزِ الخفيِّ، والميلُ بالاتّكاء، والتعمدُ لمسِّ اليد عند المحادثة، ولمس ما أمكنَ من الأعضاء الظاهرة، وشربُ فَضْلَةِ ما أبقى المحبوبُ في الإناء، وتحرِّي المكانِ الذي يقابله فمه.

ومنها علامات متضادة، وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة والأسباب المحركة والخواطر المهيجة. والأضدادُ أندادٌ، والأشياءُ إذا أفرطتْ في غايات تضادّها، ووقفتْ في انتهاء حدود اختلافها تشابَهَتْ، قدرةٌ من الله عز وجل تضلُّ فيها الأوهام. فهذا الثلج إذا أدْمَنَ حَبْسُهُ في اليد فَعَلَ فعْلَ النار، ونجد القَرَحَ إذا أفرط قتل، والغمَّ إذا أفرط قتل، والضحكَ إذا كثر واشتدَّ أسال الدمعَ من العينين. وهذا في العالم كثير، فنجد المحبَّيْنِ إذا تكافيا في المحبة وتأكدتْ بينهما تأكداً شديداً كثر تهاجُرُهما(١٠) بغير معنىً، وتضادُّهما في القول تعمّداً، وخروجُ بعضهما على بعض في كلِّ يسير من الأمور، وتتبعُ كلٍّ منهما لفظةً تقع من صاحبه وتأوّلها على غير معناها، كلُّ هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كلُّ واحدٍ منهما في صاحبه.

والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادّة المتولدة عن الشحناء ومحارجة(١١) التشاجر سرعةُ الرضى، فإنك بينما ترى المحبين قد بلغا الغايةَ من الاختلاف الذي لا تقدِّرُهُ يصلُح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد في الزمن الطويل، ولا ينجبر عند الحقود أبداً، فلا تلبثُ أن تراهُما قد عادا إلى أجمل الصُّحبة، وأُهْدِرَتْ المعاتبة، وسقط الخلافُ، وانصرفا في ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة، هكذا في

الوقت الواحد مراراً. وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجْكَ شكٌّ ولا يدخلنَّكَ ريبٌ ألبتةَ ولا تَتَمارَ في أن بينهما سراً من الحب دفيناً، واقْطع فيه قَطْعَ من لا يصرفه عنه صارف. ودونكها تجربةً صحيحةً وخبرةً صادقة. هذا لا يكون إلا عن تكافٍ[١٢] في المودة وائتلافٍ صحيح، وقد رأيتُهُ كثيراً.

ومن أعلامه أنك تجد المحبَّ يستدعي[١٣] سماعَ اسم مَنْ يحب، ويستلذُّ الكلام في أخباره ويجعلها هجِّيراهُ، ولا يرتاحُ لشيء ارتياحَهُ لها، ولا ينهنهه عن ذلك تخوّفُ أن يفطنَ السامعُ ويفهم الحاضر، وحبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصمّ[١٤]. فلو أمكن المحبّ ألا يكونَ حديثٌ في مكانٍ يكون فيه إلا ذِكْرُ من يحبه لما تعدّاه.

ويعرض للصادق المودة أن يبتدىء في الطعَام وهو له مُشتهٍ فما هو إلا وقت ما يَهتاجُ لهُ ذكرُ مَنْ يحبّ صار الطعامُ غُصّةً في الحلق وشجىً في المريء، وهكذا في الماء، وفي الحديث، فإنه يفاتحُكَهُ مبتهجاً، فتعرضُ له خطرةٌ من خَطَرات الفكر فيمن يحبّ، فتستبين الحَوالةَ[١٥] في منطقه، والتقصيرَ في حديثه، وآيةُ ذلك الوُجومُ والإطراقُ وشدّةُ الانغلاق، فبينما هو طَلْقُ الوجه خفيفُ الحركات صار مُنطبقاً متثاقلاً حائرَ النفس جامدَ الحركة يَبْرَمُ من الكلمة ويضجرُ من السؤال.

ومن علاماته حُبُّ الوَحْدَة، والأُنْسُ بالانفراد، ونحولُ الجسم دون حَرٍّ[١٦] يكونُ فيه ولا وجعٍ مانعٍ من التقلّب والحركةِ والمشي؛ دليلٌ لا يكذبُ، ومُخبرٌ لا يخون عن علةٍ[١٧] في النَفس كامنة.

والسهرُ من أعراض المحبين، وقد أكثر الشعراء في وصفه وحكوا أنهم رُعاةُ الكواكب وواصفو طولِ الليل؛ وفي ذلك أقول وأذكر كتمانَ السِّر وأنه يتوسّم بالعلامات: (من الوافر)

تَعلّمتِ السحائبُ من شؤوني
فعمَّتْ بالحيَا السَّكْبِ الهَتُون
وهذا الليلُ فيكَ غدا رَفيقي
بذلك أم على سَهَري مُعيني
فإن لم يَنْقضِ الإظلامُ إلا
(إذا) ما أطبقَتْ نوماً جُفُوني
فليس إلى النهار لنا سبيلٌ
وسُهْدٌ زائدٌ في كلِّ حين

كـأنّ نجـومَـهُ والغَـيمُ يخـفي
سَناها عن مُـلاحظَةِ العُـيون
ضَـمـيـري في ودادكَ يا مُنايا
فـليـسَ يَـبـين إلا بـالـظُّـنون

وفي مثل ذلك قطعة منها: (من الكامل)

أرعى النُّجـومَ كـأنّني كُلِّفتُ أن
أرْعَى جَـمـيعَ ثُبُـوتِهـا والخُنَّسِ
فكأنهـا والليلُ نيـرانُ الجَـوَى
قـد أُضْـرِمتْ في فِكْرتي من حِنْدِسِ
وكـأنني أمـسـيْتُ حـارسَ روضـة
خَـضْـراء وُشِّحَ نَبْـتُـهـا بالنَّرجسَ
لو عـاش بَطليـمـوسُ أيقن أنني
أقْـوى الوَرى في رَصْـدِ جَـرْيِ الكُنَّسِ

والشيء قد يذكر لما يوجبه: وقع لي في هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد، وهو البيت الذي أوله "فكأنها والليل" وهذا مستغرب في الشعر. ولي ما هو أكملُ منه، وهو تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد، وتشبيه أربعة أشياء في بيت واحد، وكلاهما في هذه القطعة أوردها وهي: (من الطويل)

مَـشُـوقٌ مُـعَنَّى مـا يَنامُ مُـسَـهَّـدُ
بِخـمْـرِ التـجني مـا يزالُ يُعـربدُ
فـفي سـاعـة يُبـدي إليك عـجَـائبـاً
يمرُّ ويَسـتـحلي ويُدني ويُبـعـد
كـأن النوى والعَـتْب والهَـجْـر والرِّضى
قـرانٌ وأفـذاذ ونحسٌ وأسـعـد(١٨)
رثّى لغَـرامي بعـد طُول تمنّع
وأصبَحْتُ مـحسـوداً وقـد كُنتُ أحْسُـدُ
نَعِـمْنـا على نَوْرٍ من الروضِ زاهرٍ
سـقـتـه الغـوادي فـهـو يثني ويَحـمـد

كـأنّ الحـيـا والمُزنَ والروض عـاطراً
دمـوعٌ وأجـفـان وخـد مـورّد

ولا ينكر عليّ مُنكر قولي "قران" فأهل المعرفة بالكواكب يسمّون التقاء كوكبين في درجة واحدة قراناً.

ولي أيضاً ما هو أتم من هذا، وهو تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد في هذه القطعة وهي: (من الطويل)

خلوتُ بهـا والراحُ ثالثـةٌ لنا
وجُنح ظلام الليل مذ مُدَّ ما انبلج(١٩)
فـتـاةٌ عـدمتُ العـيشَ إلا بقـربهـا
فـهل في ابتـغـاء العـيش ويحك من حَـرَج
كـأني وهِي والكاسُ والخـمـرُ والدُّجى
ثَرى وحـيـا والدُّرُّ والتـبـر والسـبَج

فهذا أمر لا مزيدَ فيه ولا يقدر أحدٌ على أكثرَ منه، إذ لا يَحتمل العَروضُ ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك.

ويعرض للمحبّ القلقُ عند أحد أمرين: أحدهما عند رجائه لقاءَ مَنْ يحبُ فيعرض عند ذلك حائل.

خبر:

وإني لأعلم بعضَ من كان محبوبُه يعده الزيارة، فما كنتُ أراه إلا جائياً وذاهباً لا يَقَرُّ به القرارُ ولا يثبت في مكان واحد، مقبلاً مدبراً قد استخفَّه السرور بعد ركانةٍ، واستشاطه بعد رزانة؛ ولي في معنى انتظار الزيارة: (من الطويل)

أقـمتُ إلى أنْ جـاءني الليلُ راجـيـاً
لقـاءَك يا سُـؤلي ويا غـايَةَ الأمَلْ
فـأيأسني الإظلامُ عَنْكَ ولم أكُن
لأيأسَ يومـاً إن بدا الليلُ يتَّـصلْ
وَعِندي دليلٌ ليس يكذب خُـبْـرهُ
بأمـثالِه في مُشكلِ الأمـر يُسـتـدل

لأنــك لــو رُمْــتَ الــزيــارةَ لــم يــكـــن
ظلامٌ ودام النـورُ فــــــينـا ولـم يـزل[٢٠]

والثاني عند حادث يحدُث بينهما من عتاب لا تُدرى حقيقته إلا بالوصف. فعند ذلك يشتدُ القلق حتى يُوقَفَ على الجليّة[٢١]، فإما أن يذهب تحامله إن رجا العفو، وإما أن يصير القلق حزناً وأسفاً إن تخوَّفَ الهجر.

ويعرض للمُحب الاستكانة لجفاء المحبوب عليه، وسيأتي مفسّراً في بابه إن شاء الله تعالى.

ومن أعراضه الجزَعُ الشديدُ والحسرة[٢٢] المفظعة تغلب عندما يرى من إعراض محبوبه عنه ونفاره منه، وآية ذلك الزفيرُ وقلّةُ الحركةِ والتأوّهُ وتنفّسُ الصُّعَداء. وفي ذلك أقول شعراً منه:

جميلُ الصبرِ مَسْجونٌ   و:
دموع العين سارحةٌ[٢٣]

ومن علاماته أنك ترى المحبَّ يحبُّ أهلَ محبوبه وقرابتَهُ وخاصَّتَهُ حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته.

والبكاءُ من علامات المحب ولكن يتفاضلون فيه، فمنهم غزير الدمع هامِل الشؤون تُجيبه عَيْنُهُ وتحضُره عَبْرَتُهُ إذا شاء، ومنهم جَمودُ العين عديمُ الدّمع، وأنا منهم. وكان الأصل في ذلك إدماني أَكْلَ الكُندَر[٢٤] لخفقانِ القلب، وكان عرَض لي في الصِّبا، فإني لأُصابُ بالمصيبة الفادحةَ فأجدُ قلبي يتفطّر ويتقطع، وأحسّ في قلبي غُصَّةً أمرَّ من العلقم تَحول بيني وبين توفية الكلام حقَّ مخارجه، وتكاد تشرقني بالنّفَس[٢٥] أحياناً ولا تجيبُ عيني البتةَ إلا في الندرةِ بالشيءِ اليسير من الدمع.

خبر:

ولقد أذكرني هذا الفصل يوماً وَدَّعْتُ أنا وأبو بكر محمدُ بن إسحاق[٢٦] صاحبي أبا عامر محمد بن (أبي) عامر[٢٧] صديقَنا ـ رحمه الله ـ في سفرته إلى المشرق[٢٨] التي لم نَرَه بعدها، فجعل أبو بكر يبكي عند وداعه ويُنشد متمثلاً بهذا البيت: (من الطويل)

ألا إن عــــيناً لـم تَـجُـــد يومَ واسط
عليكَ ببــاقي دَمــعــهــا لَجــمــودُ[٢٩]

وهو في رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة رحمه الله، ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة، وجعلت أنا أكثرُ التفجُّعَ والأسفَ ولا تساعدني عيني، فقلت مُجيباً لأبي بكر: (من الطويل)

وإنّ امـــرءاً لم يفن حُـــسن اصطبــاره
عليكَ وقـــد فـــارقْـــتَـــه لجليـــد

وفي المذهب الذي عليه الناس أقولُ من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحُلم، أولها: (من الطويل)

دليـلُ الأسـى نـارٌ عـلـى الـقـلـب تـلـفَـحُ
ودمعٌ على الخـدّين يهـــمي ويَســـفحُ
إذا كـــتم المشـــغـــوفُ ســـرَّ ضُلوعـــه
فـــإن دمـــوع العين تُبـــدي وتفـــضح
إذا مـــا جُـفـــونُ العين ســالت شُـــؤونهـــا
فـــفي القلب داءٌ للغـــرام مُـــبـــرِّح

ويعرضُ في الحبِّ سوءُ الظنِّ واتهامُ كلِّ كلمة من أحدهما وتَوْجيهُهَا إلى غير وَجْهها، وهذا أصلُ العتاب بين المحبين. وإني لأعلم من كان أحسنَ الناس ظنّاً، وأوسَعَهم نَفساً، وأكثرَهُمْ صبراً، وأشدَّهم احتمالاً، وأرحَبهم صدراً، ثم لا يحتملُ ممن يُحبّ شيئاً، ولا يقع له معه أيسر مخالفة حتى يبديَ من التعربد فنوناً، ومن سوء الظن وجوهاً. وفي ذلك أقول شعراً منه: (من المنسرح)

أسيء ظنّي بكلِّ مُـــحْـــتَـــقـــرٍ
تأتي به، والحـــقـــيـــرُ من حَـــقَـــرَهْ[٣١]
كـي لا يُـرَى أصـلُ هـجْـــــرَةٍ وقـلـى
فـــالـنـارُ فـي بَـدء أمـــرها شَـــرَرَهْ
وأصْلُ عُظْم الأمـــــورِ أهونـهـــــا
ومن صـــغـــيـــر النوى ترى شَـــجَـــرَهْ

وترى المحبَّ إذا لم يَثق بنقاء طويَّة محبوبه له، كثيرَ التحفظ مما لم يكنْ يتحفظُ منه قبل ذلك، مثقَفاً لكلامه، مزيناً لحركاته، ومرامي طرفه، ولاسيما إن دُهي بمتجنٍّ وبُلي بمُعربد.

ومن آياته مراعاةُ المُحبّ لمحبُوبه، وحفظُهُ لكلِّ ما يقعُ منه، وبحثُهُ عن أخباره حتى لا يسقط عنه دقيقه ولا جليله، وتتبّعُهُ لحركاته. ولعمري لقد ترى البليد يصيرُ في هذه الحالة ذكياً، والغافلَ فطناً.

خبر:

ولقد كنت يوماً بالمريّة قاعداً في دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي(٣٢)، وكان بصيراً بالفراسة محسناً لها، وكنّا في لّمة، فقال له مجاهد بن الحصين القيسي: ما تقول في هذا؟ وأشار إلى رجل مُنتبذ عنّا ناحيةً اسمه حاتم ويكنى أبا البقاء، فنظر إليه ساعةً يسيرة ثم قال: هو رجلٌ عاشق، فقال له: صدقت، فمن أين قلت هذا؟ قال: لبهْت مُفرطٍ ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته، فعلمت أنه عاشق وليس بمُريب(٣٣).

الهوامش

(١) بعض هذه العلامات قد نقله الحنبلي عن ابن حزم؛ انظر مجلة الأندلس (١٩٥١) ص: ٣٢٧؛ وورد مثله في ديوان الصبابة: (١٠، ١٢-١٣) وما بعدها، وقارن بما ذكره الوشاء من علامات (الموشى: ٤٨، ٥١، ٥٢) أما ابن القيم في روضة المحبين (٢٦٢ وما بعدها) فقد تصرف بعبارات ابن حزم، ومثال ذلك قوله: فمنها ادمان النظر إلى الشيء وإقبال العين عليه، فإن العين باب القلب وهي المعبرة عن ضمائره والكاشفة لأسراره... فترى ناظر المحب يدور مع محبوبه كيف دار، ويجول معه في النواحي والأفكار... ومنها الاقبال على حديثه والقاء سمعه كله إليه بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه، وان ظهر منه إقبال على غيره فهو اقبال مستعار يستبين فيه التكلف لمن يرمقه.. ومنها البهت والروعة التي تحصل عند مواجهة الحبيب أو عند سماع ذكره، ولاسيما إذا رآه فجأة أو طلع عليه بغتة... ومنها بذل المحب في رضا محبوبه ما يقدر عليه... ومنها حب الوحدة والأنس بالخلوة والتفرد عن الناس... الخ؛ قلت: رغم اعتماد ابن القيم على ما جاء في طوق الحمامة، فإنه يستنكر هذا النوع من الحب الذي يحمل هذه العلامات ويعده حباً حيوانياً.

(٢) حجر يوجد في ساحل المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) وهو مشهور عند أهل المغرب الأقصى،ويباع الحجر منه بقيمة جيدة لاسيما في بلاد لمتونة، وهم يحكون عن هذا الحجر أن من أمسكه وسار في حاجة قضيت له بأوفى عناية، وهو جيد عندهم في عقد الألسنة على زعمهم (الادريسي: صفة المغرب وأرض السودان، تحقيق دوزي ودي خويه، ليدن ١٩٦٩ ص: ٢٨ - ٢٩ وانظر ملحق المعجمات العربية لدوزي مادة "بهت").

(٣) يقرؤها برشيه: بما لا يكاد، ولا أرى داعياً لتغييرها.

(٤) في طبعة بتروف: والتباطؤ في الشيء، وتابعته طبعات أخرى؛ والمشى يؤكده قوله في الشعر: وإذا قمت عنك لم امش إلا/مشي عانٍ... البيت؛ وكذلك وردت "المشي" في ديوان الصبابة والحنبلي.

(٥) في طبعة بتروف: ممتنع؛ وهو خطأ من حيث الاعراب، والاقرب أن يقرأ "يمتنع" بدلاً من قراءته "ممتنعاً".

(٦) يقترح الأستاذ غرسيه غومس أن تقرأ "وتفر" (الترجمة الاسبانية: ١٠٧، الحاشية: ٢)، وهو تخريج بعيد،

والنقل هو الذي ترك استعمال الطيب، وهذا هو الذي يستدعي "التزين".

(٧) الوجي: الذي يجد وجعاً في قدمه.

(٨) الرهج: الغبار؛ وهو كالنقع؛ وأما "الوهج" عند برشيه وغيره فلا معنى له في هذا المقام.

(٩) ما بين معقفين زيادة لاحداث شيء من التطابق في العبارتين "الانبساط في المكان الضيق، والتضايق في المكان الواسع" والزيادة من وضع برشيه، ولم ترد عند الحنبلي فيما نقله عن ابن حزم؛ مما حدا بغرسيه غومس أن يعدها نزوة من المحقق.

(١٠) تهاجرهما: تعرضت اللفظة لتصحيف طريف في مختلف الطبعات فجاءت "بهما جدهما"، والتهاجر ليس هجرة، ويقول ابن حزم بعد قليل "والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء.. الخ".

(١١) المحارجة: تبادل الاحراج وهو إثارة التضايق بالمماحكة؛ وفي بعض الطبعات "المخارجة" ـ بالخاء المعجمة ـ ولا أراه يصحّ هنا.

(١٢) التكافي في المودة أمر يكرره ابن حزم مراراً في هذه الرسالة؛ ومن العجيب أن تظلّ الكلمة في مختلف الطبعات "تكلف".

(١٣) يريد برشيه أن يقرأها "يستحلي" وهي قراءة جيدة، ولكن لا ضرر من بقاء "يستدعي".

(١٤) هو حديث شريف، عند أبي داود (أدب: ١١٦) وفي مسند ابن حنبل ٥: ١٩٤، ٦: ٤٥٠ وانظر محاضرات الراغب ٢: ٤٩ والموشّى: ٦١ وجمهرة العسكري ١: ٣٥٦ والميداني ١: ١٣٢ والمستقصي: ٢٠١ والحيوان ٤: ٣٨٦ وفصل المقال: ٣٢٠ وبهجة المجالس ١: ٨٠٨ وديوان الصبابة: ١٠ وروضة المحبين: ٢٠.

(١٥) الحوالة: يريد بها الانتقال من حال إلى أخرى، والتغير، وقد استعملها ابن قزمان في أحد أزجاله (رقم: ٧٨) فقال:

ولابد للخبز من فرن إذا ما اختمر

إن لم يعتريه حواله وَيُفَرَّنْ فطير

ويفرن: بمعنى يخبز في الفرن؛ (وإلى هذا أشار الدكتور عبد العزيز الأهواني، انظر مجلة المعهد المصري، المجلد: ١٨ (١٩٧٤ ـ ١٩٧٥) ص: ٧٢.

(١٦) وردت في الطبعات المختلفة (ما عدا برشيه): حدّ، ولا معنى لها؛ والحرّكان يقترن بالنحول عند علماء الطب، كما أنّ كثرة الشحم تقترن بالبرد، قال علي بن ربن الطبري (في فردوس الحكمة: ٨٤) نقلاً عن جالينوس: "ومما يدل على حرارة المزاج ويبسه نحافة البدن... ويدل على برد المزاج ورطوبته كثرة الشحم..".

(١٧) في معظم الطبعات: كلمة، وعند برشيه: كلة؛ وكلاهما خطأ واضح.

(١٨) قرأ برشيه: كأن الهوى... قران وأنواء؛ والبيت كما هو مقبول دون تغيير.

(١٩) مذ مدّ ما انبلج: هذه هي القراءة التي أختارها؛ وفي بعض الطبعات: قد مدّ وانبلج وهوكلام متناقض؛ لأن "انبلج" تعني أسفر وأشرق؛ وقرأ برشيه: قد مدّ واتلج؛ والاتلاج: الولوج والدخول، وهي قراءة فيها شطط.

(٢٠) لا تعدو هذه الأبيات أن تكون "محاكمة استدلالية" ـ على طريقة أهل الجدل ـ مأخوذة من قول المتنبي:

أمن ازديارك في الدجى الرقباء

إذ حيث أنت من الظلام ضياء

(٢١) في أكثر الطبعات (ما عدا برشيه): الجليلة.

(٢٢) قرئت: والحمرة المقطعة؛ وعند برشيه: والحيرة المقطعة.

(٢٣) أقدر إنهما بيتان عجزاهما وما يلي من أبيات أو أنه بيت واحد اضطرب الناسخ في إيراده اضطراباً لا يجدي معه تغييره كما فعل الأستاذ حسن كامل الصيرفي إذ جعله:

جميل الصبر مسجون ودمع العين مسفوح

فهو تصحيح للوزن لا غير، لكنا لا ندري كيف كان البيت على وجه الحقيقة؛ وأرجح أنه هو البيت الذي سيرد في الباب الثاني عشر:

دمـــوع الصب تنســـفك وســـتـــر الصب ينهـــتك

(على أن نقرأ: وستر الصبر منهتك)

(٢٤) الكندر بالفارسية هو اللبان بالعربية، وقد قال ابن سينا إنه مقوّ للروح الذي في القلب والذي في الدماغ، وقال الرازي إنه ينفع الخفقان (انظر مادة كندر في مفردات ابن البيطار ٤: ٣٨ -٨٦).

(٢٥) هذه قراءة برشيه وهي أصوب بكثير من "وتشوقني النفس".

(٢٦) محمد بن اسحاق المهلبي أبو بكر الاسحاقي الوزير، كان من أهل الأدب والفضل، وهو الذي خاطبه ابن حزم برسالته في فضل الأندلس (الجذوة: ٤٢ والبغية رقم: ٥٩).

(٢٧) أكد ابن حزم إنه لا عقب لعبد الملك المظفر (الجمهرة: ٤١٩) فمحمد هذا ليس ابناً للمظفر، وإنما هو - إن كان من أسرة العامريين - محمد بن عبد الله بن المنصور العامريّ (وقد مات في حياة ابن حزم) وتخلف ابناً اسمه عبد الملك نهض إلى الحج ومات هنالك، ووالد محمد هذا أي عبد الله كان قد قتله المنصور والده سنة ٣٨٠هـ (انظر نقط العروس: ٧٩ تحقيق د. شوقي ضيف) وقد أشارت إلى ذلك إحدى الرسائل التي وجهت إلى المعتضد حين قتل ابنه اسماعيل (الذخيرة ٣/١: ١٦٠؛ وتفصيل الحادثة عند ابن عذاري ٢: ٢٨٤) وسيذكر ابن حزم من بعد إنه كانت بين والده ووالد أبي عامر هذا منافسة في صحبة السلطان ووجاهة الدنيا (ص ١١٩ فيما يلي)، وهذا يبعد أن يكون أبو عامر هذا من الأسرة العامرية المشهورة، فالتنافس لا يكون بين وزير وبين ابن الحاجب الأعلى نفسه.

(٢٨) قرأها بروفنسال (الأندلس: ٣٥٢) إلى الشرق (يعني شرق الأندلس)؛ وبها أخذ غومس في ترجمته (انظر ص: ١١٢)؛ وليس من دليل على ذلك، وهذا ابنه عبد الملك يتوجه حاجاً إلى المشرق أيضاً ولا يعود، انظر الحاشية السابقة.

(٢٩) البيت لأبي عطاء السندي (انظر الشعر والشعراء: ٦٥٣ والسمط: ٦٠٢ وأمالي القالي١: ٢٦٨ والحماسة بشرح التبريزي٢: ١٥١) وورد في أمالي المرتضى١: ٢٢٣ منسوباً لمعن بن زائدة. وفي مقتل يزيد انظر تاريخ الطبري٣: ٦٨ - ٧٠ وفيه الشعر أيضاً.

(٣٠) مالقة (Malaga) مدينة على شاطئ المتوسط: كانت مركزاً تجارياً مهماً في العصور الإسلامية، (انظر في التعريف بها: الروض: ٥١٧ والترجمة: ٢١٣ والزهري: ٩٣ وياقوت (مالقة) والموسوعة الإسلامية).

(٣١) قافية هذه الأبيات تنتهي بهاء ساكنة -ولابدّ- على خلاف ما جاء في سائر الطبعات.

(٣٢) كان ابن حزم يلابس يهود الأندلس، إما للسؤال أو للجدل أو لغير ذلك، ولهذا عندما نشب الخلاف بينه وبين ابن عمه أبي المغيرة عيّره هذا بأنه أصبح بين شيعته وأنصاره "رئيس مدارسهم". وقال ابن حيان: ولهذا الشيخ أبي محمد مع يهود... مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة" (انظر الذخيرة ١/١: ١٦٣، ١٧٠ ومقدمتي على رسالة الرد على ابن النغريلة). واسماعيل بنيونس الطبيب اليهودي ذكره ابن حزم في الفضل ٥: ١٢٠ ووصفه بـ"الأعور" واستدل على أنه كان في أقواله ومناظرته ينصر مذهب تكافؤ الأدلة، لاجتهاده في نصر هذه المقالة دون أن يصرّح بذلك. وأضاف أبو محمد قوله: "وكان اسماعيل ابن القراد (لعلها: القراء) الطبيب اليهودي يذهب إلى هذا القول يقيناً وقد ناظرنا عليه مصرحاً به، وكان يقول إذا دعوناه إلى الإسلام وحسمنا شكوكه ونقضنا علله: الانتقال في الأديان تلاعب".

(٣٣) بمريض: قراءة برشيه، وهي وجه مقبول.

٣٠

باب من أحَبَّ في النوم

ولابُد لكلٍّ حبٍّ من سببٍ يكونُ له أصلاً، وأنا مبتدىءٌ بأبعد ما يمكن أن يكونَ من أسبابه ليجريَ الكلامُ على نسق، أو أن[1] يبتدأ أبداً بالسهل والأهون. فمن أسبابه شيء لولا أني شاهدته لم أذكره لغرابته.

خبر:

وذلك أني دخلتُ يوماً على أبي السريّ عمار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد[2] فوجدته مفكراً مهتماً فسألته عما به، فتمنّع ساعة ثم قال لي: أعجوبة ما سُمعت قط. قلت: وماذاك؟ قال: رأيت في نومي الليلةَ جارية فاستيقظتُ وقد ذهب قلبي فيها وَهِمْتُ بها، وإني لفي أصعب حالٍ من حبّها. ولقد بقي أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً لا يهنئه شيء وجداً، إلى أن عذلته وقلت له: من الخطأ العظيم أن تشغلَ نفسك بغير حقيقة، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجدُ، هل تعلم مَن هي؟ قال: لا والله، قلت: إنك لَفيلُ[3] الرأي مُصاب البصيرة إذ تحب مَن لم تره قط، ولا خلقَ ولا هو في الدنيا، ولو عشقتَ صورة من صور الحمّام[4] لكنتَ عندي أعذرَ؛ فمازلْتُ به حتى سلا وما كاد.

وهذا عندي من حديث النفس وأضغاثها، وداخل في باب التمني وتخييل الفكر، وفي ذلك أقول شعراً منه[5] (من البسيط)

يا ليْتَ شِعريَ من كانت وكيف سَرَتْ
أطلْعَةَ الشمس كانت أم هي القمرُ

أظنّه العقلَ أبداه تدبُّره
أو صورةَ الروح أبدَتْها ليَ الفِكرُ
أو صورةً مُثِّلَتْ في النفس من أملي
فقد تخيَّل[6] في إدراكِها البصرُ
أو لم تكُن كُلٌّ هذا فهي حادثةٌ
أتى بها سبباً في حَتفِيَ القَدَرُ

الهوامش

(١) أو أن: كذا وردت، ولعلها "لا أن".

(٢) يعني - في الأرجح - هشام بن الحكم المستنصر.

(٣) رجل فيل الرأي أي ضعيف الرأي (اللسان: فيل) يقال بكسر الفاء وسكون الياء، وقد يقال: فيِّل وفَيْل وفال؛ وقد قرئت في معظم الطبعات: لقليل؛ وهو خطأ، وقرأ برشيه "لفائل" وهي مقبولة وإن أبعدت عن رسم الكلمة، ولو قرئت لفليل - بالفاء - لكان ذلك وجهاً حسناً؛ وعند الصيرفي: لقيل، ولعلها خطأ مطبعي.

(٤) هذا يدل على أن جدران الحمامات في الأندلس كانت تزين بالصور (كما كان الحال في بعض حمامات المشرق) انظر نفح الطيب ٣ : ٣٤٨ وهنالك حكايات عن فتنة بعض الأندلسيين بالتماثيل؛ وفي ذلك دليل على شدة الإعجاب بالجمال الفني وجاء في الموشى (ص: ٥٦) وبلغنا أن منهم من عشق صورة في حمام وخيالاً في منام وكفاً في حائط ومثالاً في ثوب.

(٥) وردت الأبيات في ديوان الصبابة: ٥٢ (دون نسبة).

(٦) ديوان الصبابة: تحير.

٤ـ

باب من أحبَّ بالوصف

من غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المُعاينة، وهذا أمر يُترقَّى منه إلى جميع الحب، فتكون المراسلة والمكاتبة والهمُّ والوجدُ والسهرُ على غير الإبصار، فإن للحكايات ونعت المحاسن ورصف الأخبار تأثيراً في النفس ظاهراً؛ وأن تسمع نَغمتها من وراء جدار؛ فيكون سبباً للحب واشتغال البال.

وهذا كله قد وقع لغير ما واحد، ولكنه عندي بُنيان هار على غير أسٍّ، وذلك أن الذي أفرغ ذهنه في هوى مَنْ لم يرَ لابد له إذ يخلو بفكره أن يُمثل لنفسه صورةً يتوهمها وعيناً يقيمها نُصب ضميره، لا يتمثل في هاجسه غيرها، قد مال بوهمه نحوها، فإن وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمرُ أو يبطلُ بالكليّة، وكلا الوجهين قد عَرَضَ وعُرف، وأكثر ما يقع هذا في ربّات الخدور[١] المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال، وحبُّ النساء في هذا أثبت من حبٍّ الرجال لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهنّ إلى هذا الشأن، وتمكّنه منهن؛ وفي ذلك أقول شعراً[٢] منه: (من الهزج).

ويا مَن لامني في حُبِّ مَن لم يَرَهُ طَرْفي
لقد أفرطْتَ في وصفك لي في الحُبِّ بالضَّعفِ
فقُلْ هلْ تُعْرَفُ الجنّةُ يوماً بسوى الوصفِ

وأقولُ شعراً في استحسان النَّغمة دونَ وقوع العين على العيانَ منه: (من مخلع البسيط)

قـــد حَلّ جـــيشُ الغـــرام[٣] سَـــمْـــعي
وَهْو عــلـى مُـــــــقـلـتـيّ يـبـــــــدو

وأقول أيضاً في مخالفة الحقيقة لظنّ المحبوب عند وقوع الرؤية: (من الكامل)

وصَـــفُــوكَ لي حـــتى إذا أبصَـــرتُ مـــا
وَصـــــــفُـــــوا عـلـمـتُ بـأنـه هَـذَيـانُ
فـــالطّبـلُ جِلْدٌ فـــارغٌ وطنـيـنُـهُ
يرتـاعُ مِـنْـهُ ويَـفـــــرَقُ الإنـســـــانُ

وفي ضدّ هذا أقول:

لَقَــد وَصـــفـــوك لي حـــتى التَـــقـــيْنا
فـــصـــارَ الظَنُّ حَـــقَّـــاً في العِـــيـــان
فـــأوصـــافُ الجِنَانِ مُـــقـــصِّـــراتٌ
على التـــحـــقـــيقِ عَن قَـــدْر الجِنـانِ

وإن هذه الأحوال لتحدُث بين الأصدقاء والإخوان، وعنّي أحدث،

خبر:

أنه كان بيني وبين رجل من الأشراف ودٌّ وكيدٌ وخطابٌ كثير، وما تراءينا قط، ثم منح الله لي لقاءه، فما مرَّتْ إلا أيامٌ قلائلُ حتى وقعت لنا منافرةٌ عظيمة ووحشة شديدة متّصلةٌ إلى الآن، فقلت في ذلك قطعةً منها: (من البسيط)

أبدلتَ أشـخـاصنا[٤] كُـرهاً وفـرط قِلَى
كـمـا الصـحـائفُ قـد يُبـدلْن بالنَّسْخ

ووقع لي ضدّ هذا مع أبي عامر بن أبي عامر رحمة الله عليه، فإني كنت له على كراهة صحيحة وهو لي كذلك، ولم يرني ولا رأيته، وكان أصلُ ذلك تنقيلاً يُحْمَلُ إليه عنّي وإليَّ عنه، ويؤكده انحرافُ بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ووجاهة الدنيا، ثم وفَّقَ الله الاجتماعَ به فصار لي أوَدَّ الناسِ وصرتُ له كذلك، إلى أن حال الموت بيننا، وفي ذلك أقول قطعةً منها: (من المتقارب)

أخٌ ليَ كـــــسَّـــــبنيْـتـــه اللقـــاءُ
وأوجَـــدني فـــيـــه عِلْقـــاً شـــريفـــا

وقـــــد كـنتُ أكـــــرَهُ منه الجـنـلوارَ

ومـــا كـنت أرغـــبُـــهُ لي أليـــفـــا

وكـــان البـغـــيضَ فــصـــار الحَـبـــيبَ

وكـــان الثـقـــيلَ فـصـــار الخـفـــيـفـــا

وقـــــد كـنت أدْمِنُ عـنـه الوجـــــيف

فـــصـــرتُ أديمُ إليـــه الوَجـــيـــفـــا

وأما أبو شاكر عبد الواحد بن محمد القبري(٥) فكان لي صديقاً مدةً على غير رؤية، ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت إلى الآن.

الهوامش

(١) في بعض الطبعات: القصور.

(٢) انظر ديوان الصبابة: ٥١ حيث أورد هذه الأبيات ونسبها للمدني(؟).

(٣) حلول جيش الغرام في السمع استعارة قبيحة، هذا إذا لم نقدر أن في اللفظة تصحيفاً. وقد تصرف ابن القيم بهذه الصورة (روضة المحبين: ٢٤١) فقال: وجيش المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب البصر.

(٤) أشخاصنا: قرأها برشيه "إخلاصنا".

(٥) في الأصل: عبد الرحمن؛ وهو عبد الواحد بن محمد بن موهب بن محمد التجيبي أبو شاكر، يعرف بابن القبري، كان فقيهاً محدثاً خطيباً شاعراً، نشأ بقرطبة، ويبدو أنه تحول بعد الفتنة إلى شاطبة، وولي الأحكام والمظالم بها، وهنالك رآه الحميدي، وهنالك توكدت الصلة بينه وبين ابن حزم (الجذوة: ٢٧١ والبغية رقم: ١١٠٧) وقد سكن أبو شاكر بلنسية وتقلد الصلاة والخطبة والأحكام بها، وكانت وفاته سنة ٤٥٦ بمدينة شاطبة ونقل إلى بلنسية فدفن فيها، وكان ربعة من الرجال ليس بالطويل ولا بالقصير وسيماً جميلاً حسن الهيئة والخلق، حسن السمت والهدي (الصلة: ٣٦٥ -٣٦٦) وله شعر في رثاء قرطبة منه قوله (ترتيب المدارك٤: ٨١٨).

يـا لـيت شـــعـــري والأيام تجـــمـــعـــنا

ونـأخـــذ البين مـــغلوباً فنـصـــفـــعـــه

في جنة الأرض أعني أرض قـــرطـبـــة

فكل شيء بديع فـــهي تجـــمـــعـــه

استـــودع الله أهليـــهـــا فـــإنهم

كـــالمسك قـــد مـــلأ الدنيـــا تضـــوّعـــه

ـ٥ـ

باب من أحبَّ من نظرةٍ واحدة

وكثيراً ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة، وهو ينقسم قسمين، فالقسم الواحد مخالف للذي قبل هذا، وهو أن يعشق المرءُ صورةً لا يعلم مَنْ هي ولا يدري لها اسماً ولا مستقراً، وقد عرض هذا لغير واحد؛

خبر:

حدثني صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق عن ثقة أخبره سَقط عني اسمه، وأظنه القاضي ابنَ الحذاء[١]، أن يوسف بن هارون الشاعر[٢] المعروف بالرماديّ كان مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة[٣]، وهذا الموضع كان مجتَمَعَ النساء، فرأى جاريةً أخذت بمجامع قلبه وتخلل حبُّها جميعَ أعضائه، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يَتبعها وهي ناهضةٌ نحو القنطرة[٤]، فجازَتْها إلى الموضع المعروف بالرَّبَض. فلما صارت بين رياض بني مروان ـ رحمهم الله ـ المبنيةِ على قبورهم في مقبرة الربض خَلْف النهر نظرتْ منه منفرداً عن الناس لا همَّةَ له غيرها، فانصرفت إليه فقالت له: مالك تمشي ورائي؟ فأخبرها بعظيم بليّته بها. فقالت له: دَعْ عنك هذا ولا تطلُب فضيحتي فلا مطمع لك فيَّ البتة ولا إلى ما ترغبه سبيل، فقال: إني أقنع بالنظر، فقالت: ذلك مُباح لك، فقال لها: يا سيدتي، أحُرّةٌ أم مملوكة؟ قالت: مملوكة، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: خلوة، قال: ولمن أنت؟ فقالت له: علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه، فدع المحالَ، فقال لها: يا سيدتي، وأين أراك بعد هذا؟ قالت: حيث رأيتَني اليومَ في مثل تلك الساعة من كلِّ جمعة...

فقالت له: إما تنهضُ أنت أو أنهض أنا[٥] ، فقال لها: انهضي في حفظ الله. فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا. فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة.

قال أبو عمر ـ وهو يوسف بن هارون ـ: فوالله لقد لازمتُ باب العطارين والربضَ من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعتُ لها على خبر ولا أدري أسماءٌ لحسَتها أم أرض بَلَعَتْها، وإنَّ في قلبي منها لأحرَّ من الجمر؛ وهي خلوة التي يتغزل بها في أشعاره. ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها إلى سَرَقُسْطة[٦] في قصة.

ومثل ذلك كثير، وفي ذلك أقول قطعةً منها: (من البسيط)

عيني جَنَتْ في فُؤادي لوعَةَ الفكَر ... فأرسَلَ الدَمْعُ مُقتصّاً من البَصر

فكيف تُبصرُ فعلَ الدَمْعِ مُنتصفاً ... منها بإغراقها في دَمعها الدّرَرِ[٧]

لم ألقها قبل إبصاري فأعرِفَها ... وآخرُ العهد منها ساعةُ النَظرِ

والقسم الثاني مخالف للباب الذي يأتي بعد هذا الباب إن شاء الله، وهو أن يعلق المرء من نظرة واحدة جارية معروفةَ الاسم والمكان والمنشأ، ولكنَّ التفاضلَ يقعُ في هذا في سرعة الفناء وإبطائه، فمن أحبَّ من نظرة واحدة وأسرع العلاقةَ من لمحة خاطرة فهو دليلٌ على قلّة الصبر، ومُخبرٌ بسرعة السلو، وشاهدُ الطرافة[٨] والملل. وهكذا في جميع الأشياء: أسرعُها نمواً أسرعها فناءً، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاداً.

خبر:

إني لأعلم فتى من أبناء الكُتّاب رأته امرأةٌ سريّة النشأة، عالية المنصب، غليظةُ الحجاب، وهو مجتاز، ورأته في موضع تَطّلعُ منه كان في منزلها، فعلقتْه وعَلقها، وتهاديا المراسلة زماناً على أدق من حد السيف، ولولا أني لم أقصدْ في رسالتي هذه كشفَ الحيل وذكرَ المكايد لأوردتُ مما صحّ عندي أشياء تحيِّرُ اللبيبَ وتُدْهشُ العاقل، أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمَنِّه، وكفانا.

الهوامش

(١) ابن الحذاء: هو محمد بن يحيى بن أحمد أحد رجال الأندلس فقهاً وعلماً وتفنناً في العلوم، استقضى ببجانة ثم

بإشبيلية، وكان أحد القضاة المشاورين بقرطبة، وتولى خطة الوثائق السلطانية، وخرج عن قرطبة في الفتنة واستقضي بمدينة تطيلة في الثغر الأعلى ثم نقل منها إلى قضاء مدينة سالم ثم إلى سرقسطة وفيها توفي (٤١٦) (الصلة: ٤٧٨ - ٤٨٠ وترتيب المدارك٤: ٧٣٣) والنصّ هنا قد ينطبق عليه وعلى ابنه أحمد ويكنى بأبي عمر، فقد بدأ سماعه سنة ٣٩٣ وجلا عن وطنه في الفتنة وسكن سرقسطة وتقلّد القضاء بطليطلة، وانصرف في آخر عمره إلى قرطبة، وتوفي سنة ٤٦٧ (الصلة: ٦٥ - ٦٦).

(٢) يوسف بن هارون الرمادي (أبو جنيش)؛ ربما كان أبرز شعراء الأندلس في عصره، وقد توفي في الفتنة (حوالي ٤٠٣)؛ انظر ترجمته في الجذوة: ٣٤٦ والبغية رقم: ١٤٥١ والصلة: ٦٣٧ والمطرب: ٤ والمغرب١: ٣٩٢ والمطمح: ٦٩ واليتيمة١: ٤٣٥ وابن خلكان ٧: ٢٢٥ ومسالك الأبصار ١١: ١٧٥، والمقتبس (ط. بيروت) ٧٤، ٧٥ ومعجم الأدباء ٢٠: ٦٢، وله أشعار في البديع للحميريّ وكتاب التشبيهات للكتاني ونفح الطيب وشرح الشريشي على المقامات، وعنه دراسة في كتابي تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة: ٢٠٥ (ط. ثانية)، وقد جمع شعره السيد ماهر زهير جرار ونشرته مؤسسة الدراسات العربية، بيروت ١٩٨٠.

(٣) ذكر ابن بشكوال أن أبواب قرطبة سبعة باب القنطرة إلى جهة القبلة، وباب الحديد ويعرف بباب سرقسطة، وباب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة، وباب رومية، وباب طلبيرة، ثم باب عامر القرشي ثم باب الجوز ويعرف بباب بطليوس ثم باب العطارين وهو باب اشبيلية؛ ومن دونه تجارة العطور ودكاكين العطارين (انظر النفح١: ٤٦٥).

(٤) قنطرة قرطبة تقع شمالي باب قرطبة الجنوبي (المسمى بها أي باب القنطرة)، وهو الباب الذي يصل بين المدينة وربض شقندة، وقد بناها اغسطس قيصر، وكانت تتثلم بسبب مدّ النهر فيتم إصلاحها وترميمها، فقد رممها الحكم المستنصر سنة ٣٦٠ (انظر عبد العزيز سالم قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية١: ١٩٧ - ٢٠١ ومصادره هنالك).

(٥) فقالت له إما أن تنهض أنت أو أنهض أنا؛ يبدو أنّ هنا سقطاً؛ والرواية نفسها عن ابن حزم عند الحميدي: "فلما قرب وقت صلاة العصر، انصرفت فجعلت أقفو أثرها، فلما بلغت القنطرة قالت إما أن تتأخر وإما أن تتقدم فلست والله أخطو خطوة وأنت معي، فقلت لها: أهذا آخر العهد بك، قالت: لا، قلت لها: فمتى اللقاء؟ قالت: كل يوم جمعة في هذا الوقت في هذا المكان، قلت لها: فما ثمنك إن باعك من أنت له؟ قالت: ثلاثمائة دينار، قال: فخرجت جمعة أخرى فوجدتها على العادة الأولى فزاد كلفي بها" ثم يقص كيف ارتحل إلى سرقسطة ومدح عبد الرحمن بن محمد التجيبي صاحبها، وذكر له قصته مع خلوة وأخذ منه ثلاثمائة دينار سوى نفقة الطريق، قال: "وعدت إلى قرطبة فلزمت الرياض جمعاً لا أرى لها أثراً وقد انطبقت سمائي على أرضي، وضاق صدري إلى أن دعاني يوماً رجل من إخواني فدخلت إلى داره وأجلسني في صدر مجلسه ثم قام لبعض شأنه، فلم أشعر إلا بالستارة المقابلة لي قد رفعت وإذا بها، فقلت: خلوة، فقلت: نعم، قلت: ألأبي فلان أنت مملوكة؟ قالت: لا والله ولكني أخته، قال: فكأن الله تعالى محا محبتها من قلبي، وقمت من فوري، واعتذرت إلى صاحب المنزل بعارض طرقني وانصرفت (الجذوة: ٣٤٧ - ٣٤٨).

(٦) سرقسطة (Zaragoza) مدينة الثغر الأعلى، وكانت آهلة حسنة الديار والمساكن، حكمها بنو هود في أيام ملوك الطوائف، وسقطت في يد النصارى سنة ٥١٢ (الروض: ٣١٧ والترجمة: ١١٨ والعذري: ٢٢ والزهري: ٢٢٦ والادريسي (دوزي) ١٩٠).

(٧) قرأها برشيه: دفعها؛ والدرر هنا كما تقول: سماء درر أي ذات درر، وفي حديث الاستسقاء: "ديماً درراً" وقيل الدرر: الدارّ، وعندئذ يكون القول عليالنعت المباشر أي بإغراقها في دمعها الدارّ.

(٨) الطرافة: من ذلك قولك فلان طَرِفٌ أي سريع الملل لا يثبت على عهد.

٦٠ـ
باب من لا يحبُّ إلا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصحّ محبته إلا بعد طول المخافتة[١] وكثير المُشاهدة وتمادي الأنس، وهذا الذي يوشك أن يدومَ ويثبتَ ولا يَحيكُ فيه مرُّ الليالي، فما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً، وهذا مذهبي. وقد جاء في الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسدَ آدم، وهو فخّار، فهاب وجزع: ادخلْ كَرْهاً واخرجْ كرهاً. حُدِّثناه عن شيوخنا.

ولقد رأيتُ من أهل هذه الصفة من إن أحسَّ من نفسه بابتداء هوى أو تَوجَّسَ من استحسانه ميلاً إلى بعضِ الصور استعمل الهجر وتركَ الإلمام، لئلا يزيدَ ما يجدُ فيخرجَ الأمرُ عن يده، ويحالَ بين العَيْرِ والنَزَوان[٢]. وهذا يدل على لصوق الحبِّ بأكباد أهلِ هذه الصفة، وأنه إذا تمكن منهم لم يَحُلْ أبداً. وفي ذلك أقول قطعة منها: (من الوافر)

سأُبعِدُ عن دواعي الحبّ إني
رأيتُ الحزْمَ من صفةِ الرشيد
رأيتُ الحُبَّ أوّله التصدّي
بعينك في أزاهير الخُدود
فبينا أنت مُغتبطٌ مُخَلّى
إذا قد صِرتَ في حَلَق القُيود

كــمُـــغـــتّـــرٍ بضَــحـــضـــاحٍ قـــريبٍ
فـــزلَّ فـــغـــاب في غَـــمْـــرِ المدُود

وإني لأُطيلُ العَـجَبَ من كلِّ من يدّعي أنَّه يحبّ من نظرةٍ واحـدةٍ، ولا أكـاد أصدِّقه، ولا أجعل حُبَّه إلا ضرباً من الشهوة، وأما أن يكون في ظنّي متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً في حِجاب القلب فما أقدِّر ذلك، وما لصِق بأحشائي حُبٌّ قطُّ إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخصِ لي دهراً وأخذي معه في كلّ جدٍ وهزل، وكذلك أنا في السلوّ والتوقّيَ، فما نسيتُ وِدّاً لي قطُّ، وإن حَنيني إلى كلِّ عهدٍ تقدم لي ليُغصّني بالطعام ويشرقني بالماء، وقد استراح من لم تكنْ هذه صفتَهُ. وما مللتُ شيئاً قط بعد معرفتي به، ولا أسرعتُ إلى الأُنْسِ بشيءٍ قطُّ أولَ لقائي له، وما رغبتُ الاستبدالَ إلى سبب من أسبابي مذ كنت، لا أقول الأُلاَّف والإخوانَ وحدهم، لكن في كل ما يَستعملُ الإنسانُ من ملبوسٍ ومركوب ومطعوم وغير ذلك، وما انتفعتُ بعيش ولا فارقني الإطراقُ والانغلاقُ[٣] مذ ذقتُ طعمَ فراقِ الأحبة، وإنه لشَجىً يعتادني وولوعُ همٍّ ما ينفكُّ يَطْرقني، ولقد نَغَّص تذكّري ما مضى كلَّ عيشٍ أستأنفه، وإني لَقتيلُ الهمومِ في عداد الأحياء،ودفينُ الأسى بين أهلِ الدنيا. والله المحمودُ على كلّ حالٍ لا إله إلا هو؛ وفي ذلك أقول شعراً منه: (من الطويل)

مـــحـــبـــةُ صـدقٍ لم تكُنْ بنتَ ســاعـــةٍ
ولا وَرِيَـتْ حين ارتـفـــــادِ[٤] زنـادُهـا
ولـكِنْ عـلى مَــــهْلٍ سَـــرَتْ وتـولـدت
بطول امـتـزاجٍ فـاسـتـقـرّ عـمـادُها
فلم يَدْنُ منهـا عـزمُـهـا وانتـقـاضـهـا[٥]
ولـم يَنْأ عـنـهـــا مَكثـــهـــا وازديادها
يـؤكّـــــد ذا أنـا نـرى كـلَّ نـشـــــأةٍ
تَتمُّ ســريعـــاً عَن قـــريب نفـــادها[٦]
ولـكـننـي أرضٌ عَـــزَازٌ صَـلـيـــبـــةٌ
مَنيـعٌ إلـى كـلِّ الغـــروس انقـــيـــادُها
فـمـا نفـذت منهـا لديهـا عـروقـهـا
فليـــست تُبـــالي أن تجـودَ عـــهـــادُها

ولا يظنّ ظانٌّ ولا يتوهَّمْ أنّ كلَّ هذا مخالفٌ لقولي المسطّر صَدر الرسالة: إن

الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العُلْوي[٧]، بل هو مؤكِّد له. فقد علمنا أن النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجبُ، ولحقتها الأعراض، وأحاطت بها الطبائعُ الأرضية الكونية[٨]، فسترت كثيراً من صفاتها وإن كانت لم تُحلْهُ، لكن حالتْ دونه، فلا يُرجى الاتصالُ على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها، ومقابلة الطبائع التي خفيت بما يُشابهها من طبائع المحبوب، فحينئذ يتصل اتصالاً صحيحاً بلا مانع.

وأما ما يقع من أوّل وَهْلةٍ ببعض أعراض الاستحسان الجسديّ، واستطراف البصر الذي لا يجاوزُ الألوان، فهذا سرُّ الشهوة[٩] ومعناها على الحقيقة، فإذا فَضَلَت[١٠] الشهوةُ وتجاوزت هذا الحدَّ ووافق الفَضْلَ اتصالٌ نفساني تشتركُ فيه الطبائعَ مع النفس تسمَّى عشقاً. ومن هذا[١١] دخل الغلَط على من يزعُم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين، فإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرناها آنفاً، وهي على المجاز تسمى محبةً لا على التحقيق، وأما نفسُ الحبِّ فما في المبتلى به فضلٌ يصرفه في أسباب دينه ودنياه فكيف بالاشتغال بحب ثانٍ؟! وفي ذلك أقول[١٢]:

(من الخفيف)

كَـذبَ المُدّعي هوى اثنين حتماً
مثلَ ما في الأصولِ أكْذِبَ ماني[١٣]

ليس في القلب موضعٌ لحبيبيـ
ـن ولا أحدَثَ الأمورِ اثنان[١٤]

فكما العقلُ واحدٌ ليس يَدري
خالقاً غيرَ واحدٍ رَحمان

فكذا القلبُ واحدٌ ليس يهوى
غيرَ فردٍ مُباعدٍ أو مُدان

هو في شرعة المودة ذو شر
ك[١٥] بعيدٌ من صحة الإيمان

وكذا الدِّين واحدٌ مستقيمٌ
وكَفورٌ مَن عَقْدُهُ[١٦] دينان

وإني لأعرف فتى من أهل الجِدَة[١٧] والحسب والأدب كان يبتاع الجارية وهي سالمة الصدر من حُبِّه، وأكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه، وقُطوب

دائم كان لا يفارقه ولاسيما مع النساء، فكان لا يلبث إلا يسيراً ريثما يصل إليها بالجماع ويعود ذلك الكُره حُبّاً مُفرطاً وكلفاً زائداً واستهتاراً مكشوفاً، ويتحوّلُ الضجرُ لصحبته ضجراً لفراقه. صحبه هذا الأمر في عدّة منهن، فقال بعض إخواني، فسألته عن ذلك فتبسّم نحوي وقال: إذاً والله أخبرك، أنا أبطأ الناس إنزالاً، تقضي المرأة شهوتها وربما ثنّتْ وإنزالي وشهوتي لم ينقضيا بعد، وما فترت بعدها(١٨) قط، وإني لأبقى بمنتي(١٩) بعد انقضائها الحينَ الصالحَ، وما لاقى صدري صدر امرأة قط عند الخلوة إلا عند تعمدي المعانقة، وبحسب ارتفاع صدري نزولُ مؤخري.

فمثل هذا وشبهه إذا وقع(٢٠) وافق أخلاق النفس وولّد المحبة، إذ الأعضاء الحسّاسة مسالكُ إلى النفوس ومؤدياتٌ نحوها.

الهوامش

(١) قرأها برشيه: المحادثة.

(٢) وقد حيل بين العير والنزوان: مثل؛ من قول صخر أخي الخنساء:

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه
وقد حيل بين العير والنزوان

فصل المقال: ٧٢.

(٣) في أكثر الطبعات: والانفلاق -بالفاء- ولا أدري له معنًى.

(٤) في الطبعات: ارتياد، والارتفاد هو الاستعانة في القدح بحجر القدح عند استعمال الزناد.

(٥) عزمها وانتقاضها: قرأها برشيه غربها وانتقاصها؛ وكلمة "انتقاصها" تقابل "ازديادها" ولكن "غربها" لا تقابل "مكثها". ولكن الأستاذ شاكر يرى "انتقاصها" صحيحة.

(٦) جاءت في بعض الطبعات: معادها.

(٧) انظر ما تقدم ص: ٩٣.

(٨) برشيه: الكورية.

(٩) من الجائز أن تكون هذه العبارة: "وأما ما يقع من أول وهلة، فبعضُ أعراض الاستحسان الجسدي واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان، وهذا سر الشهوة" ويكون جواب "أما" هو "فبعض".

(١٠) قراءة بتروف: فصلت؛ وتصحيحها إلى "فضلت" أمرٌ يلتئم مع قوله: "ووافق الفضل اتصال نفساني؛ وفي معظم الطبعات: "غلبت".

(١١) من قوله: ومن هذا ... حتى آخر الأبيات النونية ورد في روضة المحبين: ٢٨٩ - ٢٩٠.

(١٢) أورد ابن أبي حجلة هذه الأبيات (ما عدا الأول) في ديوان الصبابة: ٤١، وجعل الرابع منها آخراً وأوردها ابن القيم في روضة المحبين: ٢٩٠.

(١٣) ماني مؤسس مذهب المانوية، وهو قائم على الاثنينية إذ يقول إن مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة، كل واحد منهما منفصل عن الآخر (انظر تفصيلاً لمذهبه عند ابن النديم في الفهرست: ٣٩٢ -٤٠٢).

(١٤) قراءة روضة المحبين وديوان الصبابة.

(١٥) في ص: شك، والتصويب عن ديوان الصبابة.

(١٦) في معظم الطبعات وفي ديوان الصبابة وروضة المحبين: عنده؛ وما أثبته أدق.

(١٧) في أكثر الطبعات (ما عدا برشيه): الجدّ.

(١٨) برشيه: قبلها.

(١٩) بمنتي: قراءة الصيرفي وتابعه على ذلك مكي؛ بتروف: بحسبي، برشيه: بحبسي.

(٢٠) وقع: لم ترد إلا عند برشيه، والقراءات الأخرى: فمثل هذا إذا وافق... ولّد المحبة... الخ.

-٧-

باب من أحب صفةً لم يستحسنْ بعدها غيرها مما يخالفها

واعلم أعزّك الله أن للحُب حكماً على النفوس(١) ماضياً، وسلطاناً قاضياً(٢)، وأمراً لا يخالَفُ، وحداً لا يُعصَى، وملكاً لا يُتَعَدَّى، وطاعةً لا تُصرف، ونَفاذاً لا يُرَدُّ، وأنه ينقضُ المرَرَ، ويَحُلّ المُبْرَم، ويُحلّلُ الجامدَ، ويخل(٣) الثابت، ويَحُلُّ الشغافَ، ويُحلُّ الممنوعَ. ولقد شاهدتُ كثيراً من الناس لا يُتَّهمون في تمييزهم، ولا يُخافُ عليهم سقوطٌ في معرفتهم، ولا اختلالٌ بحُسن اختيارهم، ولا تقصيرٌ في حَدْسهم، قد وَصَفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمُستحسن عند الناس ولا يُرْضَى في الجمال، فصارت هجّيراهم، وعُرضةً لأهوائهم، ومنتهى استحسانهم، ثم مضى أولئك إمّا بسلو أو بَيْن أو هجرٍ أو بعضِ عوارض الحب، وما فارقهم استحسانُ تلك الصفات ولا بَانَ عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها في الخليقة(٤)، ولا مالوا إلى سواها؛ بل صارت تلك الصفات المُستجادة عند الناس مهجورةً عندهم وساقطةً لديهم إلى أن فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم، حنيناً منهم إلى مَنْ فقدوه، وألفةً لمن صحبوه. وما أقولُ إن ذلك كان تصنّعاً لكن طبعاً حقيقيّاً واختياراً لا دَخَلَ(٥) فيه، ولا يرون سواه، ولا يقولون في طَيِّ عُقَدهمْ بغيره.

وإني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعضُ الوقَص(٦) فما استحسن أغْيدَ ولا غيداء بعد ذلك؛ وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر فما أحبَّ طويلة بعد هذا؛ وأعرف أيضاً من هوي جارية في فمها فَوَهٌ(٧) لطيف فلقد كان يتقذّرُ كلَّ فمٍ صغير ويذُمّه ويكرهُهُ الكراهية الصحيحة. وما أصف عن منقوصي الحُظوظ في العلم

والأدب لكن عن أوفر الناسِ قسطاً في الادراك، وأحقهم باسم الفهم والدّراية.

وعني أخبرك أني أحببتُ في صباي جاريةً لي شقراءَ الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداءَ الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، وإني لأجدُ هذا في أصل تركيبي من ذلك الوقت، لا تواتيني نفسي على سواه ولا تحبُّ غيره البتة، وهذا العارض بعينه عَرض لأبي رضي الله عنه وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجلُه.

وأما جماعة خلفاء بني مروان - رحمهم الله - ولا سيما ولدُ الناصر[٨] منهم، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة، لا يختلف في ذلك منهم مختلف، وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لَدُن[٩] دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر، نزاعاً إلى أمهاتهم، حتى قد صار ذلك فيهم خلقةً، حاشا سليمان الظافر[١٠] رحمه الله، فإني رأيته أسود اللمّة واللحية. وأما الناصر والحكم المُستنصر رضي الله عنهما فحدّثني الوزير أبي رحمه الله[١١] وغيره أنهما كانا أشقَرين أشهلين، وكذلك هشام المؤيّد ومحمد المهدي[١٢] وعبد الرحمن المرتضى[١٣] رحمهم الله، فإني قد رأيتهم مراراً ودخلتُ عليهم فرأيتهم شقراً شُهلاً، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم، فلا أدري أذلك استحسان مركّبٌ في جميعهم أم لرواية كانت عند أسلافهم في ذلك فَجَرَوْا عليها. وهذا ظاهرٌ في شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطليق[١٤]، وكان أشعر أهل الأندلس في زمانهم وأكثر تغزله بالشُّقر، وقد رأيته وجالسته.

وليس العجب فيمن أحبّ قبيحاً ثم لم يَصحبه ذلك في سواه فقد وقع من ذلك، ولا في مَنْ طبع مذ كان على تفضيل الأدنى، ولكنْ في من كان ينظرُ بعين الحقيقة ثم غلب عليه هوىً عارضٌ بعد طول بقائه في الجمام فأحاله عما عهدته نفسه حوالةً صارت له طبعاً، وذهب طبعه الأول وهو يعرفُ فضلَ ما كان عليه أوّلاً، فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبَى إلا الأدنى، فأعجبْ لهذا التغلّب الشديد والتسلّط العظيم. وهو أصدقُ في المحبّة حقاً ممن[١٥] يتحلّى بشيَم قوم ليس منهم، ويدّعي غريزة لا تقبله[١٦]، فيزعم أنّه يتخيَّرُ من يحب. أما لو شغل المحب بصيرته، وأطاح[١٧] فكرته، وأجحف بتمييزه، لحال بينه وبين التخير[١٨] والارتياد. وفي ذلك أقول شعراً منه: (من البسيط)

منهم فتىً كان في محبوبه وقَصٌ
كأنما الغيد في عَيْنيه جِنَّانُ

وكان مُنبسطاً في فضل خِبْرته
بحُجة حَقّها[١٩] في القول تِبْيان
إنّ المها وبها الأمثال سائرةٌ
لا ينكرُ الحسنَ فيها الدهرَ إنسان
وُقْصٌ فليس بها عَنقاءُ واحدةٌ
وهل تُزَانُ بطول الجيد بعْران
وآخَرٌ كان في مَحبوبه فَوَهٌ
يقول حَسْبيَ في الأفْواهِ غِزلان
وثالث كان في مَحبوبه قِصَرٌ
يقولُ إنّ ذواتَ الطُّولِ غِيلان

وأقول أيضاً: (من الطويل)

يَعيبونها عندي بشُقرة شَعرها
فقلت لهم هذا الذي زانها عندي
يَعيبون لونَ النور والتِّبْر ضَلّةً
لرأي جهولٍ في الغوايةِ ممتدٌ
وهل عاب لونَ النرجس الغَضّ عائب
ولونَ النجوم الزاهرات على البُعد
وأبعدُ خَلق الله من كُلّ حكمة
مُفضِّل جرمٍ فاحم اللون مُسودّ
به وُصِفَتْ ألوانُ أهل جهنم
ولبِسْةُ باكٍ مُثْكَلِ الأهل محتدّ
ومُذ لاحت الرايات سُوداً تيقنت
نفوسٌ الورى أن لا سبيلَ إلى الرُّشد[٢٠]

الهوامش

(١) برشيه: في الناس.

(٢) قارن هذا بقول الوشاء في الحب (الموشى: ٤٩) ويذل له العزيز ويخضع له المتجبر...

(٣) برشيه: ويحلل.

(٤) هذه قراءة بتروف؛ وغيرها برشيه إلى "الحقيقة"، وقد تقرأ "الحلقة".

(٥) برشيه: داخلة.

(٦) الوقص: قصر العنق.

(٧) الفوه: سعة في الفم.

(٨) يعني عبد الرحمن الناصر، وقد رزق أحد عشر ذكراً (انظر الجمهرة: ١٠٠ ففيه تفصيل لمن أعقب من هؤلاء الأولاد، وصورة لاتصال النسب حتى أيام ابن حزم).

(٩) برشيه: من أول.

(١٠) هو نفسه سليمان الملقب بالمستعين وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، الذي استعان بالبربر في الفتنة، وحين فتح قرطبة وبويع بالخلافة (٤٠٠) تلقب أيضاً بـ" الظافر بحول الله" (الحلة السيراء ٢: ٧) ومن المفارقة أن يترحم عليه ابن حزم هنا وأن يقول فيه في موطن آخر: "وهو الذي كان شؤم الأندلس وشؤم قومه، وهو الذي سلط جنده من البرابرة فأخلوا مدينة الزهراء وجمهور قرطبة حاشا المدينة وطرفاً من الجانب الشرقي وأخذوا ما حوالي قرطبة من القرى والمنازل والمدن وأفنوا أهلها بالقتل والسبي، وهو لا ينكر ولا يغير عليهم شيئاً" (الجمهرة: ١٠٢) وأخبار سليمان في ابن عذاري (ج٣) والذخيرة (ج: ١).

(١١) كان والد ابن حزم وزيراً في الدولة العامرية، وتوفي سنة ٤٠٢ (الجذوة: ١١٧ -١١٩ والبغية رقم: ٤١١ والصلة: ٣١) وسيذكر ذلك ابن حزم ص: ٢٠٧.

(١٢) محمد المهدي: وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار، آخر من ولي الأمر من بني مروان بالأندلس ولاية تامة (٣٩٩ - ٤٠٠) يعزل فيها ويولي من آخر شرقها إلى آخر غربها وكذلك في كثير من بلاد البربر، وفي أيامه ابتدأ فساد الأندلس ولم يعقب إلا ابنة وابناً قتل بقرطبة (الجمهرة: ١٠١).

(١٣) عبد الرحمن المرتضى: هو ابن محمد بن عبد الملك بن الناصر، وكان عبد الرحمن رجلاً صالحاً مائلاً إلى الفقه (انظر محاولته لانتزاع الأمر من بني حمود في الذخيرة ١/١: ٤٥٣ والإحاطة ٣: ٤٦٦).

(١٤) في أخبار الطليق انظر الجذوة: ٣٢٢ والحلة١: ٢٢٠ (وصفحات متفرقة من نفح الطيب) والمعجب: ٢٨٥، وهناك دراسة عنه للأستاذ غرسيه غومس (مع شعراء الأندلس والمتنبي: ٨٥ ترجمة الدكتور الطاهر مكي، القاهرة ١٩٧٤) ودراسة أخرى في كتابي: تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة: ٢٢٣ ط. ثانية.

(١٥) هذه قراءة برشيه.

(١٦) برشيه: لا تقابله.

(١٧) برشيه: وأجاج.

(١٨) في قراءة: التخيل.

(١٩) برشيه: وكان مستدلاً (كذا) في فضل خيرته/بحجة حقها.

(٢٠) يحسن التوقف هنا عند كراهية ابن حزم للرايات السود، وهي شعار العباسيين، ليعرف مدى تعلقه بالأموية، حتى لقد اتهم بالتعصب للأمويين من رجلٍ مثل ابن حيان (راجع مقدمة جوامع السيرة).

-٨-

باب التعريض بالقول

ولابد لكلِّ مطلوب من مَـدْخَلٍ إليـه، وسـبب يُتَـوصَّلُ به نحـوه، فلم ينفـرد بالاختراع دون واسطةٍ إلا العليمُ الأوّلُ جلّ ثناؤه[١]. فأول ما يَستعمل طُلاّبُ الوصل وأهلُ المحبةِ في كشف ما يجدونه إلى أحبتهم التعريضُ بالقول، إما بإنشادِ شعر، أو بإرسالِ مَثَلٍ، أو تعميةِ بيت، أو طَرْحِ لغز، أو تسليطِ كلام.

والناس يختلفون في ذلك على قدر إدراكهم، وعلى حسب ما يرونه من أحبتهم من نفارٍ أو أُنْسٍ أو فطنةٍ أو بَلادةٍ. وإني لأعرف من ابتدأ كشفَ محبتة إلى من كان يحبُّ بأبياتٍ قلتُها. فهذا وشبهه يبتدىء به الطالبُ للمودة، فإن رأى أنساً وتسهيلاً زاد، وإن يعاينْ شيئاً من هذه الأمور في حين إنشاده لشيءٍ مما ذكرنا، أو إيراده لبعض المعاني التي حدّدنا، فإن انتظاره الجواب، إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات، لموقفٌ بين الرجاء واليأس هائل، وإن كان حيناً قصيراً، لأنه إشرافٌ على بلوغ الأملِ أو انقطاعه.

ومن التعريض بالقول جنسٌ ثانٍ، ولا يكون إلا بعد الاتفاق ومعرفة المحبَّة من المحبوب، فحينئذ يقعُ التشكّي وعقدُ المواعيد بالتغرير[٢]، وإحكامُ المودات بالتعريض،وبكلامٍ يَظْهَرُ لسامعه منه معنىً غيرُ ما يذهبان إليه، فيجيبُ السامعُ عنه بجوابٍ غير ما يتأدى إلى المقصود بالكلام، على حسب ما يتأدّى إلى سمعه ويسبقُ إلى وهمه، وقد فهم كلٌّ منهما عن صاحبه وأجابه بما لا يفهمه غيرهما، إلا مَنْ أُيِّدَ بحسٍّ نافذٍ، وأُعين بذكاء، وأُمِدَّ بتجربة، ولاسيما إن أحسَّ من معانيهما بشيءٍ قلما

يغيبُ عن المتوسّم المُجيد، فهنالك لا خفاء عليه فيما يريدان.

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحابان، فأرادها في بعض وَصْلها على بعض ما لا يَحِلّ، فقالت: والله لأشكونَّكَ في الملأ علانيةً ولأفضحنَّكَ فضيحةً مستورة. فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلسَ بعض أكابر الملوك وأركانِ الدولة وأجلِّ رجالِ الخلافة، وفيه ممن يُتَوَقَّى أمْرُهُ من النساءِ والخدمِ عددٌ كثير، وفي جملة الحاضرين ذلك الفتى، لأنه كان بسببٍ من الرئيس، وفي المجلس مغنيّاتٌ غيرُها، فلما انتهى الغناءُ إليها سوَّتْ عودها واندفعت تغنّي بأبيات قديمة وهي(٣): (من الوافر)

غـــزالٌ قـــد حكى بـدرَ التّــمـــــام
كـــشـــمسٍ قـــد تجلّت من غَـــمــــام

سَــــبى قـلبي بألحـــاظ مـــــراضٍ
وقَـــدٍّ الغـــصن في حُــسن القَـــوام

خـضـعتُ خـضـوعَ صَبٍّ مسـتكينٍ
له وذَلَلتُ ذلّةَ مُــســتــهـــام

فَـــصِلني يا فـــديتُكَ في حَـــلالٍ
فـــمـــا أهوى وصـــالاً في حَـــرام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت: (من الوافر)

عِـــتـــابٌ واقـعٌ وشَـكاةُ ظُـلمٍ
أتتْ من ظالمٍ حَكَمٍ وَخَــصْمِ

تشكَّتْ مـــا بهـــا لم يَدرِ خَلقٌ
سوى المشكُوِّ مـــا كـــانت تسمِّي

الهوامش

(١) مدخل هذا الفصل في غاية الغرابة: وهو قائم على المقارنة بين الخلق من لا شيء (الاختراع) وبين الفعل الإنساني الذي يعتمد على مقدمات.

(٢) والتقرير: قراءة مكي؛ ويقابلها: والتغرير عند الصيرفي والطبعة البيروتية؛ والتهديد عند برشيه. والتغرير: المخاطرة. ولعل الصواب "بالتورية".

(٣) لم أجد هذه الأبيات بين الأصوات التي كانت ذائعة في المشرق والمغرب.

ـ٩ـ
باب الاشارة بالعين

ثم يتلو التعريضَ بالقولِ إذا وقع القبولُ والموافقة: الإشارةُ بلحظ العين، وإنه ليقومُ في هذا المعنى المقامَ المحمودَ، ويبلغ المبلغَ العجيبَ،ويُقطع به ويُتواصَلُ، وَيوُعَدُ وَيُهَدَّد ،ويُقْبَضُ وَيُبْسَط، ويُؤمَرُ وَيُنْهَى،وتُضربُ به الوعود(١)، وَيُنبَّهُ على الرقيب، وَيُضْحَك وَيُحْزَنُ، وَيُسأَلُ وَيُجاب، وَيُمْنَعُ وَيُعْطَى.

ولكلٍّ واحدٍ من هذه المعاني ضربٌ من هيئة اللحظ لا يُوقَفُ على تحديده إلا بالرؤية، ولا يمكنُ تصويره ولا وصفُهُ إلا بالأقل منه. وأنا واصفُ ما تيسَّرَ من هذه المعاني:

فالإشارةُ بمؤخَرِ العين الواحدة نهيٌ عن الأمر، وتفتيرُهَا إعلامٌ بالقبول، وإدامةُ نظرها دليلٌ على التوجُّع والأسف، وكسرُ نظرها آيةُ الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليلٌ على التهديد، وَقَلْبُ الحَدَقَةِ إلى جهةٍ ما ثم صرفها بسرعةٍ تنبيهٌ على مُشارٍ إليه، والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتيهماً(٢) سؤال، وقلبُ الحدقة من وسط العين إلى المُوق بسرعةٍ شاهدُ المنع، وترعيدُ الحَدَقَتين من وسط العينين نهيٌ عام، وسائر ذلك لا يُدْرَكُ إلا بالمشاهدة.

واعلم أن العينَ تنوبُ عن الرُّسُلِ، وَيُدْرَكُ بها المرادُ، والحواسُّ الأربع أبوابٌ إلى القلب ومنافذُ نحو النَفس، والعينُ أبلغها وأصحّها دلالةً وأوعاها(٣) عملاً. وهي رائدُ النفسِ الصادقُ، ودليلُها الهادي، ومرآتها المجلوّة التي بها تقفُ على الحقائق وتميّزُ الصفاتِ وتفهمُ المحسوسات.وقد قيل: ليس المُخبرُ كالمعاين، وقد ذكر ذلك

افليمونُ(٤) صاحبُ الفراسة وجعلها معتمدةً في الحكم.

وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعُها شيئاً ما(٥) مجلّواً صافياً، إما حديداً مصقولاً(٦) أو زجاجاً أو ماءً أو بعضَ الحجارة الصافية أو سائرَ الأشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص واللمعان يتّصلُ أقصى حدوده بجسم كثيفٍ ساتر منّاعٍ كَدِر، انعكس شعاعها فأدرك الناظرُ نفسَهُ ومَازَها عياناً. وهو الذي ترى في المرآة، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك. ودليلُ عيانٍ على هذا انك تأخذ مرآتين كبيرتين فتُمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك والثانيةً بيسارك قبالة وجهك ثم تزويها قليلاً حتى يلتقيا بالمقابلة، فإنك ترى قفاك وكلَّ ما وراءك، وذلك لانعكاس ضَوْء العين إلى ضوء المرآة التي خلفك، إذ لم تجد منفذاً في التي بين يديك، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ما قابله من الجسم، وإن كان صالح غلام أبي إسحاق النظّام(٧) خالف في الادراكِ فهو قولٌ ساقط لم يوافقه عليه أحد.

ولو لم يكن من فضل العين إلا أنّ جوهرها أرفعُ الجواهر وأعلاها مكاناً، لأنها نوريّة لا تُدَركُ الألوانُ بسواها، ولا شيء أبعد مرمى ولا أنأى غاية منها، لأنها تدرك بها أجرامُ الكواكب التي في الأفلاك البعيدة، وتُرَى بها السماءُ على شدّة ارتفاعها وبُعدها، وليس ذلك إلا لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرآة، فهي تدركها وتصلُ إليها بالطفر(٨)، لا على قطع الأماكن والحلول في المواضع وتنقّل الحركات، وليس هذا لشيءٍ من الحواسّ مثلِ الذوقِ واللمس، لا يُدركان إلا بالمجاورة، والسمع والشم، لا يدركان إلا من قريب. ودليل على ما ذكرناه من الطفر أنك ترى المُصوِّتَ قبلَ سماع الصوت، وإن تعمدْتَ إدراكهما معاً، ولو كان إدراكهما واحداً لَما تقدّمت العينُ السمعَ.

الهوامش

(١) الوعود: الأوعاد عند برشيه ومكي.

(٢) كلتاهما: في جميع الطبعات.

(٣) برشيه: وأوفاها.

(٤) افليمون ((Philemonصاحب الفراسة، انظر في امتحان قدرته على الفراسة ابن أبي أصيبعة ١: ٢٧، وذكره صاحب صوان الحكمة وأورد له قوله في العشق: هو مرض يحدث في الروح جالبه النظر ومسكنه القلب ومهيجه الفكر (صوان: ٢٤٥) وقال القفطي: فاضل كبير عالم في فن مَن فنون الطبيعة وكان معاصراً لبقراط وأظنه شامي الدار، كان خبيراً بالفراسة عالماً بها... وله في ذلك تصنيف مشهور خرج من اليونانية إلى العربية (تاريخ

الحكماء: ٦٠).

(٥) هذه هي قراءة برشيه، وفي سائر القراءات: شعاعاً.

(٦) في بعض الطبعات: مفصولاً.

(٧) لم أجد تعريفاً بصالح غلام النظام إلا أن الأشعري أورد قولاً في الرؤية: "الذي يرى الرائي في المرآة إنما هو إنسان مثله اخترعه الله" وأضاف: وهذا قول صالح. قلت: وهو يناسب ما يذكره ابن حزم من مخالفة صالح لمن عداه في مسألة الإدراك.

(٨) بالطفر: هذه هي القراءة الصحيحة (التي اقترحها برشيه) وفي سائر القراءات: بالنظر، وإنما حكمت بصحتها اعتماداً على رأي ابن حزم في الطفرة وعلاقة حاسة البصر بها. فالطفرة في رأي النظّام هي أن المارّ على سطح جسم من مكان إلى مكان بينهما أماكن لم يقطعها هذا المارّ ولا مرّ عليها؛ وخطأ ابن حزم هذا الرأي ثم قال: "هذا ليس موجوداً البتة إلا في حاسة البصر فقط وكذلك إذا أطبقت بصرك ثم فتحته لاقى نظرك خضرة السماء والكواكب التي في الأفلاك البعيدة بلا زمان؛ كما يقع على أقرب ما يلاصقه من الألوان، لا تفاضل بين الإدراكين في المدة أصلاً". ثم قارن بين حاسة السمع وحاسة البصر (كما فعل هنا) وقال: إن الصوت يقطع الأماكن وينتقل فيها وإن البصر لا يقطعها ولا ينتقل فيها (أي إن إدراكه المرئيات طفرة) انظر الفصل ٥: ٦٤-٥٦).

- ١٠ -

باب المراسلة

ثم يتلو ذلك إذا امتزجا: المراسلةُ بالكتب. وللكتب آفات[١]. ولقد رأيتُ أهلَ هذا الشأن يُبادرون لقطع الكُتب وحلها في الماء وبمحو[٢] أثره،فرُبَّ فضيحةٍ كانت بسببِ كتاب، وفي ذلك أقول: (من الطويل)

عـــزيزٌ عليَّ اليـــومَ قطعُ كـــتـــابكم
ولـكـنَّـهُ لـم يُـلْـفَ لـلـودِّ قـــــاطِـعُ
فـــــآثـرتُ أن يـبـــــقـى ودادٌ ويمَّـحي
مـــــدادٌ فـــإن الفَـــرْعَ لـلأصل تـابعُ
فـكم من كـتـــاب فـيـــه مـيـتـــةُ ربِّـه
ولـمَ يَدْرِه إذ نمّـقَـــتْـــهُ الأصـــــابع

وينبغي أن يكون شكلُ الكتاب ألطفَ الأشكال، وجنسُه أملحَ الأجناس؛ ولعمري إن الكتاب للسانٌ في بعض الأحايين، إما لحَصَرٍ في الإنسان وإما لحياءٍ وإما لهيبةٍ. نعم، حتى إنَّ لوصول الكتاب إلى المحبوب وعلم المُحبّ أنه قد وقع بيده ورآه للذةٌ يجدها المحبُّ عجيبةٌ تقومُ مقامَ الرؤية، وإنَّ لردِّ الجوابِ والنظرِ إليه سروراً يعْدلُ اللقاءَ، ولهذا ما ترى العاشقَ يَضعُ الكتابَ على عينيه وقلبه ويُعانقه.

ولعهدي ببعض أهل المحبة، ممن كان يتحرّى[٣] ما يقولُ ويحسنُ الوصفَ ويعبِّر عما في ضميره بلسانه عبارةً جيدة ويُجيدُ النظرَ ويدّقق في الحقائق، لا يَدَعُ المُراسلةَ وهو مُمكنُ الوصلِ قريبُ الدار داني المزار، ويَحكي أنها من وجوه اللذة.

ولقد أُخبرت عن بعض السُّقّاط الوُضعاء أنه كان يضعُ كتابَ محبوبه على إحليله، وإن هذا النوع من الاغتلام قَبيحٌ وضَربٌ من الشَّبَق فاحش.

وأما سقيُ الحبْر بالدّمع فأعرفُ مَن كان يفعل ذلك ويُقارضه محبوبه بسَقْيِ الحبر بالرِّيق، وفي ذلك أقول: (من الطويل).

جـوابٌ أتانَي عن كِـتـاب بعـثـتـهُ
فـسكَّن مُـهـتـاجـاً وهيَّج سـاكنا

سـقـيتُ بدَمع العين لمّا كـتـبـتُـه
فـعـالَ مُـحبّ ليس في الودّ خـائنا

فـمـا زال مـاءُ العين يَمْـحـو سُطُورَه
فـيـا مـاءَ عـيني قـد مـحـوتَ المحـاسنا

غَـدا بـدُمـوعـي أول الخط بـيّنـاً
وأضـحى بدمـعي آخـرُ الخط بائنا

خبر:

ولقد رأيت كتاباً لمحبٍّ إلى محبوبه، وقد قَطع في يده بسكّينٍ له فسال الدمُ واستمدّ منه وكتب به الكتابَ أجمعَ. ولقد رأيت الكتابَ بعد جُفوفه فما شككت أنه بِصِبْغ اللكّ(٤).

الهوامش

(١) في معظم القراءات: آيات.

(٢). عند بتروف وغيره: ويحلها... ويمحو.

(٣) في بعض الطبعات: يدري، وأثبت قراءة برشيه.

(٤) اللك: صبغ حمر تصبغ به جلود المعزى.

باب السفير

ويقع في الحب بعد هذا - بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس: إرسالُ السفير. ويجب تخيُّره وارتياده واستجادته واستفراهه، فهو دليلُ عقلِ المرء، وبيده حياتُهُ وموتُهُ، وَسَتْرُهُ وفضيحته، بعد الله تعالى. فينبغي أن يكون الرسولُ ذا هيئة، حاذقاً يكتفي بالإشارة، ويقرطس[١] عن الغائب، ويُحْسِنُ من ذات نفسه، ويَضَعُ من عَقله ما أغفله باعثه، ويؤدّي إلى الذي أرسله كلَّ ما يشاهد على وجهه، كاتماً للأسرار، حافظاً للعهد، قنوعاً ناصحاً. ومن تعرَّى من[٢] هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقَصَهُ منها. وفي ذلك أقول شعراً منه (من الطويل).

رسولُكَ سيفٌ في يَمينكَ فاستجِدْ
حُساماً ولاتضربْ به قبل صَقْلهِ
فمن يكُ ذا سيفٍ كَهَامٍ فضُرُّهُ
يعودُ على المعنيِّ منه بجهلهِ

وأكثر ما يستعملُ المحبُّون في إرسالهم إلى من يُحبونه، إما خاملاً لا يُؤَبَه له ولا يُهتدَى للتحفّظ منه، لصباه أو لهيئة رثة أو بذاذة في طلعته؛ وإما جليلاً لا تلحقه الظِّنن لنسك يُظهره أولسِّنٍ عالية قد بلغها. وما أكثر هذا في النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثّوبين الأحمرين[٣]. وإني لأذكر بقُرطبة التحذيرَ للنساء المحدثات[٤] من هذه الصفات حيثما رأينها؛ أو ذوات صناعة يُقرَب بها من الأشخاص، فمن النساء: كالطبيبة والحجامة والسراقة[٥] والدّلالة والماشطة والنائحة

والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخدمة[٦] والصَّنَاع في المغزل والنسيج، وما أشبه ذلك، أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشح[٧] بها عليه. فكم منيع سُهّلَ بهذه الأوصاف، وعسير يُسرّ، وبعيد قُرِّبَ، وجموحٍ أُنّس، وكم داهية دهت الحُجُبَ المصونةَ، والأستارَ الكثيفةَ، والمقاصيرَ المحروسة، والسّدَدَ المضبوطةَ، لأَرباب هذه النعوت، ولولا أن أنبه عليها لذكرتها[٨]، ولكن لقطع النظر[٩] فيها وقلة الثقة بكل أحد. والسعيدُ من وُعِظَ بغيره[١٠]، وبالضد تتميز الأشياء[١١]. أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره، ولازال على الجميع ظلُّ العافية.

خبر:

وإني لأعرفُ من كانت الرسولَ بينهما حمامةٌ مؤدبة، ويُعْقَدُ الكتابُ في جناحها، وفي ذلك أقول قطعة منها: (من الطويل)

تخَيَّرها نوحٌ فما خاب ظنُّه ... لديها وجاءت نحوَه بالبشائرِ

سأودِعها كتبي إليكَ فهاكها ... رَسائلَ تُهْدَى في قوادم طائر

الهوامش

(١) يقرطس: يصيب المرمى.

(٢) قرأها برشيه: تعوزه.

(٣) حين تكون المرأة العجوز ذات عكازة وتسابيح، فذلك أمر مفهوم؛ أما أن تكون ذات ثوبين أحمرين فذلك زيّ أندلسي، فيما يبدو.

(٤) عند برشيه: المخبآت.

(٥) السراقة: لا أدري أية حرفة هي هذه، وجعلها "برشيه": السواقة، كأنه عدّها مأخوذة من العمل في السوق.

(٦) في سائر الطبعات (ما عدا برشيه): والمستخفة، وقرأها السامرائي "والمستحفة".

(٧) برشيه: يشق.

(٨) برشيه: لما ذكرتها.

(٠) برشيه: لقطع المضار.

(١٠) السعيد من وعظ بغيره: هو حديث عند مسلم (القدر: ٣) وابن ماجه (المقدمة: ٧) وورد في تذكرة ابن حمدون (٧٩/أ) ضمن كلام لعلي بن أبي طالب، ونسب في محاضرات الراغب ١: ١٣٢ لبعض الحكماء، وفي مختار الحكم: ١٩٨ لأرسطاطاليس.

(١١) هو من قول المتنبي (ديوانه: ١١٧).

ونديمهم وبهم عرفنا فضله ... وبضدها تتميز الأشياء

وقوله: "تتميز الأشياء" لم يرد عند برشيه، ويكون المعنى: وبالضد: أي والشقي من وعظ به غيره.

-٢٠-
باب طي السرِّ

ومن بعض صفات الحب الكتمانُ باللسان، وجحودُ المحبِّ إن سئل، والتصنّعُ بإظهار الصبر، وأن يُري أنه عزهاةٌ[١] خليٌّ.

ويأبى السرُّ الدفين[٢]، ونارُ الكَلَف المتأجِجةُ في الضلوع، إلا ظهوراً في الحركات والعين[٣]، ودبيباً كدبيب النار في الفحم والماء في يبيس المدر. وقد يمكنُ التمويهُ في أولِ الأمر على غير ذي الحسِّ اللطيف، وأما بعد استحكامه فمحال.

وربما يكون السببَ في الكتمان تَصاونُ المحبِّ عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنها بزعمه من صفات أهلِ البطالة، فيفرُّ منها ويتفادى، وما هذا الوجه بصحيح[٤]، فَبِحَسْبِ المرءِ المسلمَ أن يعفَّ عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره ويحاسَب عليها يوم القيامة؛ وأما استحسانُ الحسن وتمكّن الحبِّ فطبعٌ لا يُؤمَرُ به ولا يُنْهى عنه، إذ القلوبُ بيد مُقَلِّبها. ولا يلزمه غيرُ المعرفة والنظر في فَرْق ما بينَ الخطأ والصواب وأن يعتقد الصحيحَ باليقين؛ وأما المحبة فخلقة، وإنما يملكُ الإنسانُ حركاتِ جوارحه المكتسبة؛ وفي ذلك أقول: (من الطويل)

يلومُ رجالٌ فيك لم يَعرفوا الهوى
وسيّان عندي فيكَ لاحٍ وساكتُ

يقولون جانبتَ التصاونَ جُملةً
وأنت عليمٌ[٥] بالشريعةِ قانت

فقلتُ لهم هذا الرِّياءُ بعَينه
صُراحاً وربي للمرائين ماقت
متى جاء تحريمُ الهوى عن محمّد
وهل مَنْعُهُ في مُحْكَمِ الذِّكْر ثابت
إذا لم أواقعْ مَحْرَماً أتَّقي به
مَجيئي يومَ البعث والوجهُ باهت
فلستُ أبالي في الهوى قولَ لائمٍ
سواءٌ لعمري جاهرٌ أومُخافت
وهل يَلزمُ الإنسانَ إلا اختيارُه
وهل بخَبايا اللفظِ يُؤْخَذُ صامت

خبر:

وإني لأعرفُ بعضَ من امتُحن بشيء من هذا فَسَكَنَ الوجدُ بين جوانحه، فرام جَحْدَه إلى أن غَلُظَ الأمر، وَعَرَفَ ذلك في شمائله من تعرَّضَ للمعرفة ومن لم يتعرَّض. وكان مَن عَرَّضَ له بشيء نَجَهَهُ[٦] وقبَّحَهُ، إلى أن كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقَهُ في إنكاره وتكذيبَ من ظنَّ به غير ذلك، فَسُرَّ بهذا. ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعضُ من كان يُعَرِّضُ له بما في ضميره، وهو ينتفي غايةَ الانتفاء، إذا اجتاز بهما الشخصُ الذي كان يُتَّهمُ بعلاقته، فما هو إلا أن وقعتْ عينُهُ على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيئتَهُ الأولى، واصفرَّ لونه، وتفاوتت معاني كلامه بعد حُسْن تثقيف، فقطعَ كلامَه المتكلمُ معه قلقاً فانكفأ واستدعى[٧] ما كان فيه من ذكره. فقيل له: ما عدا عما بدا؟ فقال: هو ما تظنّون، عَذَرَ مَنْ عذر، وعَذَلَ مَنْ عذل؛ ففي ذلك أقول شعراً منه: (من البسيط).

ما عاش إلا لأنَّ الموتَ يرحمُهُ
مما يُرَى من تباريحِ الضّنى فيه[٨]

وأنا أقول: (من الهزج).

دموعُ الصبِّ تنسفكُ
وسترُ الصبِّ يَنهتكُ
كأنّ القلبَ إذ يبدو
قطاةٌ ضَمَّها شَرك[٩]

فيا أصحابَنا قولوا
فإن الرأيَ مشترك
إلى كم ذا أكاتمُهُ
ومالي عنه مُتَّرَكُ

وهذا إنما يَعرض عند مقاومة طبع الكتمان والتصاون، لطبع المحبِّ وغلبته[١٠]، فيكونُ صاحبه متحيراً بين نارين محرقتين، وربما كان سببُ الكتمان إبقاءَ المحبِّ على محبوبه، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع؛ وفي ذلك أقول: (من المتقارب).

درى الناسُ أني فتىً عاشقٌ
كئيبٌ مُعنّىً ولكنْ بمَنْ
إذا عاينوا حالتي أيقنوا
وإنْ فَتَّشُوا رجَّموا[١١] في الظّنن
كخَطٍ يُرى رَسمُهُ ظاهِراً
وإن طلبوا شرحَهُ لم يَبِنْ
كصوتِ حَمامٍ على أيكةٍ
يرجِّع بالصوت في كلِّ فن
تلذّ بنجواه[١٢] أسماعُنا
ومعناه مُستعجِمٌ لم يبن
يقولون بالله سَمِّ الذي
نفى حُبُّهُ عنكَ طيبَ الوَسن
وهيهات دون الذي حاولوا
ذَهابُ العُقول وخوضُ الفِتن
فهم أبداً في اختلاجِ الشكوكِ
بظنٍ كقَطْعٍ وقَطْعٍ كظَنٍ

وفي كتمان السر أقول قطعةً منها: (من البسيط).

للسِّرِّ عندي مكانٌ لو يحلُّ به
حيٌّ إذاً لا اهتدى ريبُ المَنون له
أميتُهُ وحَياةُ السرِّ ميتتُه
كما سرورُ المُعنّى في الهوى الولَه

وربما كان سبب الكتمان توقّي المُحبِّ على نفسه من إظهار سره، لجلالة قدر المحبوب.

خبر:

ولقد قال بعضُ الشعراء بقرطبة شعراً تغزّلَ فيه بصُبح[١٣] أم المؤيَّد رحمه الله، فغنّتْ به جاريةٌ أُدْخِلَتْ على المنصور بن أبي عامر ليبتاعَها، فأمر بقتلها.

خبر:

وعلى مثال هذا قَتْلُ أحمد بن مُغيث، واستئصالُ آل مغيث[١٤] والتسجيلُ عليهم ألا يُستخدمَ بواحد منهم أبداً حتى كان سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم فلم يبق منهم إلا الشريد الضالّ. وكان سببَ ذلك تغزُّلُهُ بإحدى بنات الخلفاء، ومثل هذا كثير[١٥].

ويُحكى عن الحسن بن هانيء[١٦] أنه كان مغرماً بحبِّ محمد بن هارون المعروف بابن زُبيدة، وأحسَّ منه ببعض ذلك فانتهره على إدامة النظر إليه، فذُكرَ عنه أنه كان لا يقدرُ أن يُديمَ النظرَ إليه إلا مع غَلَبَة السكر على محمد.

وربما كان سبب الكتمان ألا ينفر[١٧] المحبوب أو يُنفر به. فإني أدري من كان محبوبه له سكناً وجليساً، لوباح بأقلِّ سبب من أنه يهواه لكان منه "مناطَ الثريا قد تعلّتْ نجومُها"؛ وهذا ضرب من السياسة. ولقد كان يبلُغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية، فما هو إلا أن باح إليه بما يجد فصار لا يصلُ إلى التافه اليسير مع التيه ودالّة الحب وتمنّع الثقة بملك الفؤاد، وذهب ذلك الانبساطُ ووقع التصنّعُ والتجنّي، فكان أخاً فصار عبداً، ونظيراً فعاد أسيراً، ولو زاد في بَوْحه شيئاً إلى أن يعلَم خاصّةُ المحبوب ذلك لما رآه إلا في الطَّيف، ولانقطعَ القليلُ والكثير، ولَعادَ ذلك عليه بالضرر.

وربما كان من أسباب الكتمان الحياءُ الغالبُ على الإنسان. وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى المحبُّ من محبوبه انحرافاً وصداً، ويكون ذا نفس أبيّة، فيستتر بما يجد لئلا يشمتَ به عدوّ، أو[١٨] ليريهم ومَن يُحبّ هَوَانَ ذلك عليه.

الهوامش

(١) العزهاة: العازف عن النساء واللهو.

(٢) بتروف وغيره (ما عدا برشيه): الدقيق.

(٣) قارن هذا بما في الموشى (ص: ٤٨) ولن يخفى المحب وإن تستر، ولا ينكتم هواه وإن تصبر.

(٤) في معظم القراءات: وما هذا وجه التصحيح.

(٥) معظم القراءات: عليهم.

(٦) نجهه: رده رداً قبيحاً.

(٧) معظم القراءات: فلقد استدعى.

(٨) واضح أن البيت وحده لا يمثل لبَّ المعنى الذي تدور عليه الفقرة السابقة، فلعلّ أبياتاً أسقطها الناسخ كانت تفي بذلك.

(٩) تشبيه القلب بالقطاة، من الصور التي تتردد في أشعار العذريين، من ذلك قول قيس ليلى:

كـــأن القـلب ليلة قـــيل يُغـــدى ... بـليـلى العـــامـــرية أو يـراح

قـطاة عـــزها شـــرك فـــأضـــحت ... تـقـلبــــه وقـــد عـلق الجنـاح

(١٠) برشيه: طبع الكتمان لطبع الحب وغلبته (وسقطت لفظة التصاون).

(١١) بتروف وغيره (ما عدا برشيه): رجعوا.

(١٢) بتروف والصيرفي ومكي: بفحواه، برشيه: بنوحه.

(١٣) مرّ التعريف بها فيما تقدم ص: ١٩.

(١٤) ينتسبون إلى مغيث الرومي فاتح قرطبة، وكان مع طارق، وقد نجبوا في قرطبة وسادوا وعظم بيتهم وتفرعت دوحتهم وكان منهم عبد الرحمن بن مغيث حاجب عبد الرحمن الداخل (النفح ٣: ١٢ وانظر صفحات أخرى متفرقة) ومنهم عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الذي كان حاجباً للحكم الربضي، كما كان أخوه عبد الملك من قواد الأمير هشام الرضى (الحلة١: ١٣٥).

(١٥) يقص صفي الدين الحلي قصة مماثلة ذات لون أسطوري عن وشّاح مغربي عشق رميلة أخت عبد المؤمن الأموي (كذا) ملك الأندلس، ونظم فيها موشحة تسمّى "العروس" وكان أن قتله الخليفة لذلك (العاطل الحالي: ١٤ - ١٥).

(١٦) الحسن بن هانئ أبو نواس (-١٩٨)؛ وقد ألمح ابن خلكان (٢: ٩٩) إلى شيء مما يذكره ابن حزم هنا.

(١٧) برشيه: يشهر.

(١٨) السامرائي: لئلا يشمت به عدوه أو عدو من يحبه.

١٣. باب الإذاعة

وقد تعرض في الحب الإذاعة، وهو من منكر ما يحدُث من أعراضه، ولها أسباب: منها أن يُريدَ صاحبُ هذا الفعل أن يتزيّا بزيّ المحبين ويدخلَ في عدادهم، وهذه خلابةٌ لا تُرْضَى، وتجليحٌ بغيض[١]، ودعوىً في الحب زائفة.

وربما كان من أسباب الكشف غلبةُ الحب وتسنوُّر الجهر على الحياء، فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صَرْفاً ولا عَدْلاً. وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكُّمه على العقل، حتى يمثل الحَسنَ في تمثال القبيح، والقبيحَ في هيئة الحسن. وهنالك يرى الخيرَ شراً، والشر خيراً. وكم مَصون الستر مُسبَل القناع مسدول الغطاء قد كشف الحبُّ سِتْرَهُ، وأباح حريمه، وأهمل حِماهُ، فصار بعد الصيانة عَلَماً، وبعد السكون مثلاً، وأحبُّ شيءٍ إليه الفضيحةُ فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض[٢] عند ذكره، ولطالت استعاذتُهُ منه، فَسَهُلَ ما كان وعراً، وهانَ ما كان عزيزاً، ولانَ ما كان شديداً.

ولعهدي بفتىً من سَرَوات الرجال وعليْة إخواني قد دُهي بمحبة جارية مقصورةٍ فتام[٣] بها وقطعه حبُّها عن كثيرٍ من مصالحه، وظهرت آياتُ هواه لكلِّ ذي بصر، إلى أن كانت هي تعذله على ما ظهر منه مما يقوده إليه هواه[٤].

خبر:

وحدّثني موسى بن عاصم بن عمرو قال: كنت بين يدي أبي الفتح والدي رحمه

الله وقد أمرني بكتاب أكتبه، إذ لمحتْ عيني جاريةً كنتُ أكلَفُ بها، فلم أملكْ نفسي ورميتُ الكتاب عن يدي وبادرتُ نحوها. وبُهت أبي وظنَّ أنه عرض لي عارض؛ ثم راجعني عقلي فمسحتُ وجهي ثم عُدتُ واعتذرتُ بأنه غَلبني الرُّعاف.

واعلم أن هذا داعيةُ نفار المحبوب وفسادٌ في التدبير، وضعفٌ في السياسة؛ وما شيء من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سُنَّةٌ وطريقةٌ متى تعدّاها الطالب أو خَرُقَ في سلوكها انعكس عملُهُ عليه، وكان كَدّه عناءً، وتعبُهُ هباء، وبحثه وباء[٥]. وكلما زاد عن وجه السِّيرة انحرافاً وفي تجنبها إغراقاً وفي غير الطريق إيغالاً ازداد عن بلوغ مراده بعداً؛ وفي ذلك أقول قطعةً منها: (من الطويل).

ولا تَسْعَ في الأمر الجسيم تهازؤاً
ولا تسعَ جَهراً في اليسير تُريدُهُ
وقابلْ أفانينَ الزمانِ متى يَردْ
عليك فإن الدهرَ جَمٌّ ورودُهُ
بأشكالها[٦] من حسن سَعيك يَكفكِ الـ
يسيرَ يسيرٌ والشديدَ شديدُهُ[٧]
ألم تُبْصر المِصباحَ أولَ وَقْدِه
وإشعالِه، بالنفخِ يَطفأ وقوده
وإن يَتَضَرَّمْ لفحُهُ ولهيبه
فنفخُك يُذْكيه وتبدو مُدوده

خبر:

وإني لأعرفُ من أهل قرطبة من أبناء الكتاب وجلّة الخَدَمَة من اسمه أحمد بن فتح، كنتُ أعهده كثيرَ التصاون، من بُغاة العلم وطلاب الأدب، يبزّ أصحابه في الانقباض، ويفوقهم في الرِّعة[٨]، لا يُنْظَر[٩] إلا في حَلقة فَضْل،ولا يُرى إلا في محفلٍ مرضيّ، محمودَ المذاهب، جميلَ الطريقة، بائناً بنفسه، ذاهباً بها، ثم أبعدت الأقدارُ داري من داره، فأول خَبر طرأ عليَّ بعد نزولي[١٠] شاطبةَ أنه خلع عِذارَهُ في حبِّ فتى من أبناء الفتانين[١١] يسمى ابراهيم بن أحمد، أعرفه، لا تستأهل صفاته محبة مَن[١٢] بيتُه خيرٌ وخدم[١٣] وأموالٌ عريضةٌ ووفرٌ تالد. وصحَّ عندي أنه كشف رأسه وأبدى وجهه ورَمى رَسَنه وحَسَر مُحيّاه وشمّر عن ذراعيه وصمد صَمْدَ الشهوةِ.

فصار حديثاً للسّمار، مُتَراجَعًا[١٤] بين نَقَلة الأخبار، وتُهوديَ ذِكرُهُ في الأقطار، وجرت نقلته في الأرض راحلةً بالتعجب، ولم يحصل من ذلك إلا على كشف الغطاء، وإذاعة السرّ، وشُنعة الحديث، وقُبْح الأحدوثة، وشرود محبوبه عنه جملةً، والتحظير عليه من رؤيته البتة، وكان غنياً عن ذلك وبمندوحة واسعة ومعزل رَحب عنه، ولو طوى مكنونَ سرّه، وأخفى بُنيّات[١٥] ضميره، لاستدام لباس العافية، ولم يُنْهِجْ بُرْدَ الصيانة، ولكان له في لقاء من بُلي به ومحادثته ومجالسته أمَل من الآمال وتعلّلٌ كاف؛ وإن حَبْلَ العذرِ لَيُقْطَعُ به، والحُجّةُ عليه قائمة؛ إلا أن يكون مختلطاً في تمييزه، أو مصاباً في عقله بجليل ما فدَحه، فربما آل ذلك لعذر صحيح، وأمّا إنْ كانت له بقية أو ثبتت ثبيتُ مُسكةٍ فهو ظالمٌ في تعرّضِه ما يعلم أن محبوبَهُ يكرهُهُ ويتأذّى به.

هذا غير صفة أهل الحب، وسيأتي هذا مُفَسَّراً في باب الطاعة، إن شاء الله تعالى.

ومن أسباب الكشف وجه ثالث، وهو عند أهل العقول وجهٌ مرذول وفعلٌ ساقط؛ وذلك أن يرى المحبُّ من محبوبه غدراً أو مللاً أو كراهةً؛ فلا يجدُ طريقَ الانتصاف منه إلا بما ضررُهُ عليه أعودُ منه على المقصود من الكشف والاشتهار، وهذا أشدُّ العار وأقبحُ الشنار وأقوى شواهد عدم العقل ووجود السخف.

وربما كان الكشف من حديثٍ يَنتشر وأقاويلَ تفشو، توافق قلةَ مبالاة من المحبّ بذلك، ورضيً بظهور سرّه، إما لإعجاب أو لاستظهار على بعض ما يؤمله؛ وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخواني من أبناء القوّاد.

وقرأت في بعض أخبارِ الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدّقْنَ عشقَ عاشقٍ لهنَّ حتى يشتهر ويكشف حبه ويجاهرَ ويعلنَ وينوّهَ بذكرهنّ، ولا أدري ما معنى هذا، على أنه يُذكَرُ عنهنَّ العفاف، وأيّ عفافٍ مع امرأةٍ أقصى مُناها وسرورها الشهرةُ في هذا المعنى؟!

الهوامش

(١) الخلابة: المخادعة؛ والتجليح: المكالحة، والمجلح: هو الذي يركب رأسه في الأمر، ويجاهر به مكاشفاً دون تستر، وعند السامرائي: خلافة... وتحجج.

(٢) النافض: الحمّى.

(٣) لم بها: أصابه مسٌّ أو لمم؛ وهي قراءة بتروف وبرشيه؛ وغيرت إلى "وهام بها" عند الصيرفي ومكي.

(٤) برشيه: مما يقوده إلى مهوى.

(٥) برشيه: وبحثه زيادة.

(٦) بأشكالها: متعلقة بالفعل "وقابل" أي: وقابل أفانين الزمان بأشكالها.

(٧) هذا الشطر شديد التصحيف في معظم الطبعات: والمعنى انك إذا قابلت أفانين الزمان بأشكالها، فإن اليسير من حسن سعيك يواجه اليسير من أفانين الزمان، والشديد يقف في وجه الشديد من أفانينه.

(٨) قرئت "الدعة" في كل الطبعات ولا معنى لها هنا؛ والرعة تقارن الانقباض.

(٩) برشيه: يظهر.

(١٠) برشيه: إطاءتي.

(١١) قرأها بروفنسال: "الغنائين" وأخذ بها غومس في ترجمته (ص: ١٥١)؛ ولفظة الفتائين تعني الصاغة.

(١٢) برشيه: المحبة ممن.

(١٣) في القراءات (ما عدا برشيه): وتقدم.

(١٤) برشيه: مضاغة، وفي سائر القراءات: ومدافعاً وصوّب الأستاذ شاكر "مضاغة".

(١٥) برشيه: بلبلة.

١٤ـ
باب الطاعة

ومن عجيب ما يقعُ في الحبِّ طاعةُ المحبِّ لمحبوبه، وصرفُه طباعَه قسراً إلى طباع من يحبه، وربما يكون المرءُ شَرِسَ الخلق، صعبَ الشكيمة، جَموحَ القيادة، ماضيَ العزيمة، حَميَّ الأنف، أبيَّ الخسف، فما هو إلا أن يتنسمَ نسيمَ الحب، ويتورَّطَ غَمْرَهُ، ويعومَ في بحره، فتعودَ الشراسةُ لياناً، والصعوبةُ سهالةً والمضاءُ كلالة، والحمية استسلاماً؛ وفي ذلك أقول قطعةً منها: (من المتقارب)

فهل للوصالِ إلينا مَعادُ
وهل لتصاريفِ ذا الدهرِ حدْ
فقد أصبح السيفُ عبدَ القَضيب
وأضحى الغزالُ الأسيرُ أسد

وأقول شعراً منه: (من الطويل)

وإني وإن تعتبْ لأهونُ هالك
كزائف نقدٍ ذلَّ في يدِ جهْبَذِ(١)
على أن قتْلي في هواكَ لذاذةٌ
فيا عجباً من هالكٍ متلذّذِ

ومنها:

ولو أبصرتْ أنوارَ وجْهكَ فارسٌ
لأغناهمُ عن هُرْمزانَ ومُوبَذِ(٢)

وربما كان المحبوب كارهاً لإظهار الشكوى متبرماً بسماع الوجد، فترى المُحبُّ حينئذ يكتُم حزنَهُ ويكظِمُ أسفه ويَنطوي على علّته، وإن الحبيب مُتجنٍّ، فعندها يقع الاعتذارُ عن كلّ ذنبٍ والإقرارُ بالجريمة، والمرءُ منها بريء، تسليماً لقوله وتركاً لمخالفته. وإني لأعرفُ من دُهي بمثل هذا فما كان ينفكّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له، وإيقاعِ العتاب عليه والسخطِ وهو نقيّ الجلد.

وأقول شعراً إلى بعض إخواني، ويقرب مما نحن فيه، وإن لم يكن منه: (من الطويل)

وقـــد كنتَ تلقـــاني بوجـــهٍ لقُـــربِه
تراضٍ وللهـــجـــرانِ عن قُـــربه ســـخطُ
ومـا تكرهُ العَـتْبَ اليـسـيـرَ سـجـيّـتي
على أنه قـد عـيب في الشّـعَـر الوخْطُ
فـقـد يُتـعب الإنسـانُ في الفكر نفـسَـهُ
وقــد يَحـسُن الخـيـلانُ في الوجـه والنَّقْطُ
تَـزين إذا قـلّتْ ويَـفْـــحُشُ أمــــرهـا
إذا أفـرطَتْ يومـاً وهل يُحـمــدُ الفَـرْطُ

ومنه:

أعِنْه فـــقـــد أضْـحى لفــرْط هُمــومــه
يُبَكّي له القـــرطاسُ والحـــبــــرُ والخَطّ

ولا يقولَنّ قائلٌ إن صبرَ المحبِّ على ذلة المحبوب دَناءةٌ في النفس فهذا خطأ، وقد علمنا أنّ المحبوبَ ليس كفؤاً ولا نظيراً فيقارَضَ بأذاه، وليس سبُّهُ وجفاه مما يُعَيَّرُ به الإنسان ويبقى ذكره على الأحقاب، ولا يقع ذلك في مجالس الخلفاء ولا في مقاعد الرؤساء، فيكون الصبر مستجراً(٣) للمذلة، والضراعةُ قائدةً للاستهانة؛ فقد ترى الإنسان يكلف(٤) بأمَته التي يملك رقَّها، ولا يحولُ حائلٌ بينه وبين التعدّي عليها، فكيف الانتصاف منها. وسبل الامتعاض من السبِّ غير هذه، إنما ذلك بين علية الرجال الذين تُحْصَى أنفاسهم وتتبع معاني كلامهم فتوجّه لها الوجوه البعيدة، لأنهم لا يُوقعونها سدىً ولا يُلقونها هملاً، وأما المحبوبُ فصَعْدة ثابتة وقضيبٌ مُنآد(٥)، يجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى؛ وفي ذلك أقول: (من الكامل)

ليس التـــذلُّلُ في الهـــوى يُســـتنكَرُ
فـــالحُبُّ فـــيـــه يخـــضَعُ المُســـتكبـــر
لا تعـــجَـــبـــوا من ذلَّتي في حـــالة
قـــد ذلَّ فـــيـــهـــا قـــبلي المُســـتنصـــر(٦)
ليس الحـــبـــيبُ مماثلاً ومُكافـــيـــاً
فـــيكونَ صـــبـــرُك ذِلَّةً إذ تصـــبـــر
تُفـــاحـــةٌ وَقَـــعَتْ فـــآلم وَقْـــعُـــهـــا
هل قطْعُـــهـــا منك انتـــصـــاراً يُذكـــر

خبر:

وحدّثني أبو دلف الورّاق عن مَسلمة بن أحمد الفيلسوف المعروف بالمجريطي(٧) أنه قال في المسجد الذي بشرقي مقبرةِ قريش بقرطبة الموازي لدار الوزير أبي عمر أحمد بن محمد بن حدير(٨) رحمه الله:

في هذا المسجد كان مريضُ(٩) مقدّم بن الأصفر أيام حداثته لعشقٍ بعجيب فتى الوزير أبي عمر المذكور، وكان يترك الصلاةَ في مسجد مسرور وبها كانَ(١٠) سكناه، ويقصد في الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب، حتى أخذه الحرس غيرَ ما مرَّةٍ في الليل في حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة، وكان يقعدُ وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجرُ ويقومُ إليه فيُوجعه ضرباً ويلطمُ خَدَّيه وعينيه، فَيُسَرُّ بذلك ويقول: هذا والله أقصى أمنيتي والآن قرَّتْ عيني، وكان على هذا زماناً يماشيه.

قال أبو دلف: ولقد حدّثنا مسلمة بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجيب عندما كان يَرى(١١) من وجاهة مقدّم بن الأصفر وَعَرْض جاهه وعافيته، فكانت حالُ مُقَدَّم بن الأصفر هذا قد جلّت جداً واختصَّ بالمظفر بن أبي عامر اختصاصاً شديداً واتصل بوالدته وأهله، وجرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات وتسبيل(١٢) وجوه الخير غيرُ قليل، مع تصرّفه في كلِّ ما يتصرَّفُ فيه أَصحابُ السلطانِ من العناية بالناس وغير ذلك.

خبر: وأشنعُ من هذا أنه كانت لسعيد بن مُنذر بن سعيد(١٣) صاحب الصلاة في جامع قرطبة أيامَ الحكم المستنصر بالله رحمه الله جاريَةٌ يحبها حبّاً شديداً، فعرض عليها أن يُعتقها ويتزوَّجها، فقالت له ساخرة به، وكان عظيم اللحية: إن لحيتك

استبشع عظمَها، فإن حَذَفْتَ منها كان ما ترغبه. فأعمل الجَلَمَيْن[١٤] فيها حتى لَطُفَتْ، ثم دَعا بجماعةٍ شهودٍ وأشهدهم على عتقها، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به، وكان في جملة من حضر أخوه حَكَم بن مُنذر فقال لمن حضر: اعرض عليها أني أخطبها أنا، ففعل فأجابت إليه، فتزوجها في ذلك المجلس بعينه ورضي بهذا العار الفادح على وَرَعه ونسكه واجتهاده.

فأنا أدركتُ سعيداً هذا وقد قتله البربر يومَ دخولهم قرطبة عَنوةً وانتهابهم إياها، وحكم المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلّمهم وناسكهم، وهو مع ذلك شاعرٌ طيّب وفقيه. وكان أخوه عبد الملك بن مُنذر متهماً بهذا المذهب أيضاً، ولي خطة الردّ أيامَ الحكم رضي الله عنه، وهو الذي صَلبه المنصور ابن أبي عامر إذ اتهمه هو وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة أنهم يُبايعون سراً لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر رضي الله عنهم، فقَتَلَ عبد الرحمن وصَلَبَ عبد الملك بن منذر وبدَّد شملَ من اتهم. وكان أبوهم قاضي القضاة منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال أيضاً، وكان أخطب الناس وأعلمهم بكلّ فنٍّ وأورعهم وأكثرهم هزلاً ودُعابة. وحَكَم المذكور في الحياة في حين كتابتي إليك بهذه الرسالة قد كُفَّ بصره وأسنَّ جداً.

خبر:

ومن عجيب طاعة المُحب لمحبوبه أني أعرف مَن كان سَهرَ الليالي الكثيرةَ ولقي الجهدَ الجاهدَ فقطَّعَتْ قلبَهُ ضروبُ الوَجد ظَفر بمن يُحبُّ وليس به امتناعٌ ولا عنده دفع، فحين رأى منه بعضَ الكراهة لمّا نواه تركه وانصرف عنه، لا تعففاً ولا تخوفاً لكن توقفاً عند موافقته رضاه، ولم يجدْ من نفسه مُعيناً على إتيان ما لم يَرَ له إليه نشاطاً وهو يَجد ما يجد. وإني لأعرفُ مَنْ فَعَلَ هذا الفعل ثم تندّم لعذر[١٥] ظهر من المحبوب؛ فقلت في ذلك: (من الرمل)

غافِص الفُرْصةَ واعْلم أنها
كمُضيّ البرقِ تمْضي الفُرَصُ
كم أمورٍ أمْكَنَتْ أهْمِلُهَا[١٦]
هي عندي إذ تولّت غُصَصُ
بادرِ الكنزَ الذي ألفيتَهُ
وانْتَهِزْ صيداً[١٧] كبازٍ يَقْنصُ

ولقد عرض مثلُ هذا بعينه لأبي المطرف(١٨) عبد الرحمن بن أحمد بن محمود(١٩) صديقنا وأنشدته أبياتاً لي فطار بها كلَّ مطار، وأخذها مني فكانت هِجِّيراهُ.

خبر:

ولقد سألني يوماً أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان أيامَ كوني بالمدينة، وكان طويلَ اللسان جداً مثقفاً للسؤال في كل فنّ، فقال لي، وقد جرى بعضُ ذكر الحب ومعانيه(٢٠): إذاَ كره من أحب لقائي وتجنّبَ قربي فما أصنع؟ قلت: أرى أن تسعى في إدخال الرَّوْح على نفسك بلقائه وإن كره. فقال: لكني لا أرى ذلك بل أوثر هواه على هواي ومُرادَهُ على مُرادي. وأصبرُ ولو كان في ذلك الحَتف. فقلت له: إني إنما أحببته فلنفسي ولالتذاذها بصورته فأنا أتبع قياسي وأقود أصلي وأقفو طريقتي في الرغبة في سرورها، فقال لي: هذا ظلمٌ من القياس، أشدُّ من الموت ما تُمُنّيَ له الموت، وأعزُّ من النفس ما بُذِلَتْ له النفس. فقلت له: إن بذلكَ نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً، ولو أمكنك ألاّ تبذلها لما بذلتها، وتركُكَ لقاءَهُ اختيارٌ منك أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحيفَ عليها. فقال لي: أنت رجلٌ جدليّ ولا جدلَ في الحب يُلْتَفَتُ إليه، فقلت له: إذا كان صاحبه مؤوفاً، فقال: وأيُّ آفةٍ أعظمُ من الحب؟!

الهوامش

(١) قرئ هذا الشطر: كذائب نقر زل في يد جهبذ؛ أي كالفضة السائلة تدافعت في يد الجهبذ؛ ويضعف من الأخذ بهذا المعنى أن الجهبذ صيرفيٌّ للدنانير والدراهم، فهو يميز خالصها من زائفها ولذلك أرجح القراء التي أثبتها.

(٢) الهرمزان: اسم علم؛ ولا يحمل دلالة على معنى خاص؛ ولعله أراد به معنى الشجاعة، كما أراد معنى التدين في الموبذ، وهو قاضي المجوس.

(٣) قراءة بتروف: مستجرة؛ وفي بعض الطبعات: جاراً؛ وهو تحكم في تحوير الأصل.

(٤) في معظم الطبعات: لا يكلف.

(٥) برشيه: مياد.

(٦) هذه هي قراءة برشيه، وبها أخذ غومس في ترجمته (ص: ١٥٥)؛ ولا بد أن تكون موجهة إلى شخص بعينه حينئذ، وهو هنا المستنصر الأموي ابن الناصر، وهذا على سبيل المبالغة في القياس، وإلا فليس لدينا من الأخبار ما يؤكد أن المستنصر ذلّ في الحب والصواب: "المستبصر".

(٧) مسلمة بن أحمد المجريطي (وتكتب أحياناً المرجيطي) أبو القاسم (-٣٩٩) إمام الرياضيين في عصره بالأندلس، كان فلكياً له عناية برصد الكواكب وشغف بتفهم المجسطي لبطليموس وله كتاب تمام علم العدد، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البناني، ومؤلفات أخرى (انظر طبقات الأمم: ٦٩ والصلة: ٥٨٩ و Brock. SI 431 و sezgin, II).

(٨) أحمد بن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير أبو عمر (٢٥٥ -٣٢٧) قرطبي، ولي خطة الوزارة وأحكام المظالم وكان صلباً في أحكامه مهيباً، حج سنة ٢٧٥ وهو أخو موسى الحاجب (الذي ولد ٢٥٦) أيام الأمير عبد الله وولاه المدينة ٢٨٧؛ ولأحمد ولد اسمه سعيد وكنيته أبو عثمان (ابن الفرضي ١: ٤٩)؛ وذكر ابن حزم أن أحمد بن موسى بن حدير صاحب السكة كان من شيوخ المعتزلة وبينه وبين منذر بن سعيد البلوطي (سيجيء التعريف به) مراسلات (الفصل ٤: ٢٠٢ -٢٠٣) وهناك منهم عبد الرحمن بن موسى بن محمد بن حدير، توفي سنة ٣٦٩ (ابن الفرضي ١: ٣٠٧) وأحمد بن محمد بن حدير وكان خازن العسكر زمن المستنصر (المقتبس/بيروت ٢١٠) ومن بني حدير موسى بن محمد بن حدير المعروف بالزاهد وكان إخبارياً ممتعاً حافظاً لأخبار بني أمية، ويذاكر الأمير عبد الله بذلك، (المقتبس نشر انطونية: ٤٤ -٤٥).

(٩) مريض: قراءة برشيه، وهي الصواب، إذ القرينة تدل على أنه كان يلزم المسجد لرؤية عجيب.

(١٠) لعل الصواب: وبه كانت، كما قرأ برشيه.

(١١) قرأها برشيه: يبرم.

(١٢) في أكثر الطبعات: وتسهيل.

(١٣) كان منذر بن سعيد البلوطي من أبرز فقهاء عصره، ويميل إلى مذهب الظاهر، وتولى قضاء الجماعة بقرطبة، وله كتب كثيرة في الفقه والقرآن والردّ، وتوفي سنة ٣٥٥ (ابن الفرضي٢: ١٤٢ والجذوة: ٣٢٦ والبغية رقم: ١٣٥٧) ومن أبنائه: سعيد أبو عثمان وكان خطيباً بليغاً ذكياً نبيهاً، قتل - كما يقول ابن حزم - يوم تغلب البرابرة على قرطبة، ٦شوال ٤٠٣ (الصلة: ٢٠٨) ومنهم حكم أبو العاصي وكان من أهل الأدب والذكاء قديراً في الأدب، توفي بمدينة سالم في نحو ٤٢٠هـ (الصلة: ١٤٦)؛ وثالث الأبناء هو عبد الملك أبو مروان، ولي خطة الردّ ثم لحقته التهمة التي يشير إليها ابن حزم فصلب على باب سدة السلطان (وهو الباب الرئيسي لقصر الخلافة بقرطبة) سنة ٣٦٨ وهو في حدود الأربعين من عمره (ابن الفرضي ١: ٣١٧ والحلة السيراء ١: ٢٧٩ - ٢٨٠).

(١٤) الجلمان: المقص.

(١٥) برشيه: لغدر.

(١٦) معظم الطبعات: أمهلها.

(١٧) معظم الطبعات: صبراً.

(١٨) في جميع الطبعات: المظفر.

(١٩) من أقرب الناس إلى ابن حزم أبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن بشر قاضي الجماعة بقرطبة؛ ولكن لفظة "محمود" لا ترد في نسبه (انظر الجذوة: ٢٥١).

(٢٠) هذه صورة ممتعة تشير إلى تحوّل القضايا العاطفية إلى مستوى الجدل العقلي.

ـ١٥ـ
باب المخالفة

وربما اتبع المحبُّ شهوتَه وركب رأسَهُ فبلغ شفاءَهُ من محبوبه، وتعمَّدَ مسرته منه على كلِّ الوجوه، سَخطَ أو رضي. ومَن ساعده الوقت على هذا وثَبت جنانُه وأتيحت له الأقدار استوفى لذَّتَهُ جميعَها، وذهب غمّه، وانقطع همّه، ورأى أمله، وبلغ مرغوبه. وقد رأيتُ من هذه صفتُه؛ وفي ذلك أقول أبياتاً منها: (من السريع)

إذا أنا[1] بَلَّغْتُ نفسي المُنى
من رشأ مازال لي مُمرضا
فما أبالي الكُرهَ من طاعة
ولا أبالي سَخطاً من رِضى
إذا وجدتُ الماءَ لابُدّ أنْ
أطفي به مُشْعَلَ جمرِ الغَضا

الهوامش

(١) تمد ألف "أنا" ـ على غير العادة ـ لينضبط الوزن (على بحر السريع).

١٦
باب العاذل

وللحبِّ آفات، فأوَّلها العاذل. والعذّالُ أقسام:

١ـ فأولهم صديقٌ قد أسقطتَ مؤونة التحفّظ بينك وبينه، فعَذْلُه أفضلُ من كثير المساعدات، وهو بين الحض والنهي، وفي ذلك زاجرٌ للنفس عجيب، وتقوية لطيفة بها غوص وعمل. ودواء تستدُّ عليه الشهوة(١) ، ولاسيما إن كان رفيقاً في قوله، حَسَنَ التوصّلِ إلى ما يُورِدُ(٢) من المعاني بلطفه، عالماً بالأوقات التي يُؤكّد فيها النَّهي، وبالأحيان التي يزيد فيها الأمر، والساعات التي يكون فيها واقفاً(٣) بين هذين، على قدر ما يرى من تَسَهُّلِ العاشق وتوعُّرِه، وَقَبوله وَعصْيانه.

٢ـ ثم عاذل زاجر لا يفيق أبداً من الملامة، وذلك خطبٌ شديد وعبءٌ ثقيل. ووقَع لي مثلُ هذا، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يُشبهه، وذلك أن أبا السريِّ عمار بن زياد صديقَنا أكثر من عذلي على نحو نَحَوْتُهُ، وأعان عليَّ بعضَ من لامني في ذلك الوجه أيضاً، وكنتُ أظنُّ أنه سيكونُ معي، مُخطئاً كنتُ أو مصيباً، لوكيد صداقتي وصحيح أخوّتي به.

ولقد رأيتُ من اشتدَّ وجده وَعَظُم كَلَفُهُ حتى كان العَذْلُ أحبَّ شيء إليه، ليُري العاذلَ عصيانَهُ ويستلذَّ مخالفَتَهُ، ويحصِّل مقاومته للائمه(٤) وغلبته إياه، كالملك الهازم لعدوّه، والمجادل الماهر الغالب لخصمه، ويُسَرُّ بما يَقعُ منه في ذلك وربما كان هو

المستجلبَ لعذل العاذلِ بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل، وفي ذلك أقول أبياتاً منها: (من البسيط)

أحبُّ شيء إليّ اللومُ والعَذَلُ
كي أسمع اسم الذي ذكْراه لي أمَلُ
كأنَّني شاربٌ بالعَذْلِ صافيةً
وباسم مولاي بعدَ الشُّرب أنْتَقِلُ[٥]

الهوامش

(١) هذه العبارة في الأصل: وتقوية لطيفة لها عرض وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة؛ وفي قراءة برشيه: وتقوية لطيفة لما مرض وعل ودواء لمن تشتدّ عليه الشهوة، وحسب القراءة التي اقترحها يكون معنى العبارة: إن عذل الصديق تقوية لطبيعة قد انهكها الدنف وغلب عليها الفساد (الغمل) وهذا العذل نفسه تستد (من السداد أي تصلح) عليه الشهوة ويعتدل حالها.

(٢) برشيه: يراد.

(٣) في معظم الطبعات: وقفاً.

(٤) برشيه: ويطيل.

(٥) بتروف وغيره (ما عدا برشيه) اللائمة.

(٦) انتقل: تناول نقلاً مع الشراب أو بعده.

-١٧-
باب المساعد من الاخوان

ومن الأسباب المتمنّاة في الحبّ أن يهبَ الله عزّ وجل للإنسان صديقاً مخلصاً، لطيفَ القول، بسيطَ الطول، حسنَ المأخذ، دقيقَ المنفذ، متمكن البيان، مُرهف اللسان، جليلَ الحلم، واسعَ العلم، قليلَ المخالفة، عظيمَ المساعفة، شديد الاحتمال، صابراً على الإدلال، جمَّ الموافقة،جميلَ المخالفة، مستويَ المطابقة، محمودَ الخلائق، مكفوفَ البوائق، محتومَ المساعدة، كارهاً للمباعدة، نبيل المداخل[١]، مصروفَ الغوائل، غامضَ المعاني، عارفاً بالأماني، طيّب الأخلاق، سريَّ الأعراق، مكتومَ السرّ، كثيرَ البر، صحيحَ الأمانة، مأمون الخيانة، كريمَ النفس، صحيح الحدس، مضمونَ العَوْن، كاملَ الصَّوْن، مشهورَ الوفاء، ظاهر الغنَاء، ثابتَ القريحة، مبذولَ النصيحة، مستيقَنَ الوداد، سهلَ الانقياد، حسنَ الاعتقاد، صادقَ اللهجة، خفيف المهجة، عفيفَ الطباع، رحبَ الذراع، واسعَ الصدر، متخلقاً بالصبر، يألفُ الإمحاض، ولا يعرفُ الإعراض، يستريح إليه ببلابله، ويشاركُهُ في خلوةِ فكره[٢]، ويفاوضه في مكتوماته، وإن فيه للمحبِّ لأعظمَ الراحات، وأين هذا ؟! فإن ظَفرت به يداك فشُدّهما عليه شدَّ الضنين، وأمْسكْ بهما إمساكَ البخيل، وَصُنْهُ بطارفك وتالدك، فمعه يكملُ الأنْسُ، وتنجلي الأحزان وَيَقْصُرُ الزمانُ، وتطيبُ الأحوال. ولن يفقدَ الانسانُ من صاحب هذه الصفة عوناً جميلاً، ورأياً حسناً، ولذلك اتخذ الملوكُ الوزراء والدخلاءَ كي يخففوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمور وطوّقوهُ من باهظِ الأحمال، ولكي يستغنوا بآرائهم، ويستمدّوا بكفايتهم، وإلا فليس في قوةِ

الطبيعة أن تقاومَ كلَّ ما يَرِد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها.

ولقد كان بعضُ المحبين ـ لعُدمه هذه الصفةَ من الإخوان،وقلّة ثقته منهم لما جرَّبه من الناس وأنه لم يَعْدَمْ ممن باحَ إليه بشيء من سرِّه أحدَ وجهين: إما إزراءً على رأيه وإما إذاعة لسره ـ أقام الوحدةَ مقامَ الأُنْس، وكان ينفرد في المكان النازح عن الأنيس، ويناجي الهواء، ويكلم الأرضَ، ويجدُ في ذلك راحةً كما يجدُ المريض في التأوه، والمحزونُ في الزفير؛ فإن الهموم إذا ترادفت في القلب ضاق بها، فإن لم يَفِضْ منها شيءٌ[٣] باللسان، ولم يُسْتَرَحْ إلى الشكوى لم يلبثْ أن يهلكَ غماً ويموتَ أسَفاً.

وما رأيت الإسعاد[٤] أكثر منه في النساء، فعندهنّ من المحافظة على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواطؤ على طيِّه إذا اطّلعْنَ عليه ما ليس عند الرجال، وما رأيتُ امرأةً كشفت سرَّ متحابَّين إلا وهي عند النساء ممقوتةٌ مستثقَلةٌ مرميّةٌ عن قوسٍ واحدة. وإنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات، لأن الفتيات منهنّ ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير، وهذا لا يكون إلا في النُّدرة، وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الإشفاقُ محضاً إلى غيرهن.

خبر:

وإني لأعلم امرأةً مُوسرةً ذاتَ جَوَارٍ وخَدَم، فشاع على إحدى جواريها أنها تعشقُ فتىً من أهلها ويعشقها، وأن بينهما معانيَ مكروهةً، وقيل لها: إن جاريتك فلانة تعرفُ ذلك وعندها جلية أمرها، فأخذتها وكانت غليظةَ العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء ما لا يَصبِرُ على مثله جُلَداءُ الرجال، رجاءَ أن تبوحَ لها بشيءٍ مما ذُكر لها، فلم تفعل البتة[٥].

خبر:

وإني لأعلمُ امرأةً جليلةً حافظة لكتاب الله عزّ وجل ناسكةً مُقبلةً على الخير، وقد ظَفرتْ بكتاب لفتى إلى جاريةٍ كان يكْلَف بها، وكانت في غير ملكها، فعرّفته الأمرَ فرام الإنكار فلم يتهيأ له ذلك، فقالت له: مالك؟ ومن ذا عُصِمَ؟ فلا تُبالِ بهذا، فوالله لا أطلعتُ على سرِّكما أحداً أبداً، ولو أمكنني أن أبتاعها لك من مالي ولو أحاط به كله لجعلتُها لك في مكانٍ تصل إليها فيه ولا يَشعرُ بذلك أحد.

وإنك لترى المرأةَ الصالحَة المُسنةَ المُنقطعةَ الرجاء من الرجال، وأحبُّ أعمالها

إليها وأرجاها للقبول عندها سَعْيُها في تَزويج يتيمة، وإعارةُ ثيابهاوحليّها لعروسٍ مُقلّة. وما أعلم علّةَ تمكُّن هذا الطبعِ من النساء إلا أنهنَّ متفرّغاتُ البال من كلِّ شيء إلا من الجماع ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتآلف ووجوهه، لا شُغْلَ لهنَّ غيره، ولا خُلِقْنَ لسواه؛ والرجال مُقْتَسَمُونَ في كَسْب المال وصحبة السلطان وطَلَب العلم وحياطة العيال ومُكابدة الأسفار والصيد وضُروب الصناعات ومُباشرة الحروب ومُلاقاة الفتَن وتحمُّل المخاوف وعمارة الأرض،وهذا كلُّهُ متحيِّفٌ للفراغ، صارفٌ عن طريق البُطْل.

وقرأت في سير ملوك السودان أن الملكَ منهم يوكِّل ثقةً له بنسائه يُلقي عليهنّ ضريبةً من غزل الصوف يشتغلن بها أبدَ الدهر، لأنهم يقولون: إن المرأة إذا بقيتْ بغير شُغْلٍ إنما تتشوّف(٦) إلى الرجال، وتحنُّ إلى النكاح.

ولقد شاهدتُ النساءَ وعلمتُ من أسرارهنّ ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني رُبيت في حجورهن، ونشأتُ بين أيديهن، ولم أعرف غيرَهنّ، ولا جالستُ الرجالَ إلا وأنا في حدّ الشباب وحين تبقّل(٧) وجهي؛ وهنّ علمنني القرآن وروّينني كثيراً من الأشعار ودرّبنني في الخط، ولم يكن وكْدي وإعمالُ ذهني مذ أول فهمي وأنا في سنِّ الطفولة جداً إلا تعرُّفَ أسبابهنَّ، والبحثَ عن أخبارهن، وتحصيلَ ذلك. وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن، وأصلُ ذلك غَيْرَةٌ شديدةٌ طُبِعْتُ عليها، وسوءُ ظن في جهتهن فُكِرْتُ به، فأشرفتُ من أسبابهنّ على غير قليل، وسيأتي ذلك مفسّراً في أبوابه، إن شاء الله تعالى.

الهوامش

(١) برشيه: الشمائل.

(٢) هذه هي قراءة برشيه، وعند غيره: فقره، السامرائي: حلوه ومرّه.

(٣) في الأصل: لم ينض شيء، وعند برشيه: لم يفش شيئاً.

(٤) الاسعاد: المساعفة والعون.

(٥) الجارية التي ضربت فلم تبح نموذج للنساء في التكتم على المحبين، ولكن ما بال سيدتها التي ضربتها ضرباً مبرحاً، أليست هي امرأة؟.

(٦) في الطبعات: تشوق.

(٧) عند الصيرفي: تفيل، وتابعه مكي على ذلك.

-١٨-

باب الرقيب

ومن آفات الحبِّ الرقيبُ، وإنه لَحُمىً باطنةٌ، وبِرْسامٌ مُلِحٌّ، وفكْرٌ مُكِبّ. والرقباء أقسام:

١- فأولهم مُثْقِل بالجلوس، غيرَ متعمِّدٍ، في مكان اجتمع فيه المرءُ مع محبوبه، وعَزَمَا على إظهارِ شيء من سرِّهِمَا والبوحِ بوجدهما والانفراد بالحديث. ولقد يعرضُ للمُحبِّ من القلق بهذه الصفة ما لا يعرضُ له مما هو أشدّ منها، وهذا وإن كان يزولُ سريعاً فهو عائقٌ حالَ دون المُرادَ وَقَطَعَ متونَ[1] الرجاء.

خبر:

ولقد شاهدتُ يوماً مُحبينِ في مكانٍ قد ظنَّا أنهما انفردا فيه وتأهبّا للشكوى، فاستحليا ما هما فيه من الخلوة، ولم يكن الموضعُ حمىً، فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يستثقلانه، فرآني فَعَدل إليَّ وأطال الجلوسَ معي، فلو رأيتَ الفتى المحبَّ وقد تمازج الأسفُ البادي على وجهه مع الغضب لرأيتَ عجباً، وفي ذلك أقول قطعة منها: (من الطويل)

يُطيلُ جلوساً وهو أثقلُ جالسٍ
ويُبدي حديثاً لستُ أرضى فُنونَهُ
شَمامٌ ورَضْوَى واللُّكامُ ويَذبلٌ
ولبنانُ والصَّمَّانُ والحَزْنُ دونَهُ

٢- ثم رقيبٌ قد أحسَّ من أمرهما بطَرف، وتوجَّسَ من مذهبهما شيئاً، فهو يريدُ

أن يستقري[٢] حقيقة ذلك، فيُدْمِنُ الجلوسَ، ويطيلُ القعودَ، ويَتَقَفَّى[٣] الحركات، ويرمُق الوجُوهَ، ويحصي[٤] الأنفاسَ، وهذا أعدى من الجَرب. وإني لأعرف مَن هَمَّ أن يُباطشَ رقيباً هذه صفته؛ وفي ذلك أقول قطعةً منها: (من مخلع البسيط)

مُـــواصـلٌ لا يُـغِـبُّ قَـــصــداً
أَعْظِمْ بهـــذا الوصـــالِ غـــمّـــا
صـــار وصِـــرنا لفَـــرطِ مـــا لا
يَـزولُ كـــالاسـم والمُســـمَّـى

٣- ثم رقيبٌ على المحبوب، فذلك لا حيلةَ فيه إلاّ بترضّيه. وإذا أُرضي فذلك غايةُ اللذة، وهذا الرقيبُ هو الذي ذكرتْه الشعراء في أشعارها. ولقد شاهدتُ مَن تلطَّفَ في استرضاء رقيب حتى صار الرقيبُ عليه رقيباً له، ومتغافلاً في وقت التغافل، ودافعاً عنه وساعياً له؛ ففي ذلك أقول: (من الطويل)

ورُبَّ رقـــيـب أرقـــبـــوه فـلم يـزلْ
على سـيـدي عـمـداً ليـبـعـدني عَنْهُ
فـــمـــا زالتِ الألطافُ تُحْكِمُ أمـــرَهُ
إلى أن غـــدا خـــوفي له أَمَناً منه
وكـان حـسـامـاً سُلَّ حتى يَهُـدَّني[٥]
فـعـاد مُـحِـبّـاً مـا لنعـمـتـه كُنْه

وأقول قطعة، منها: (من المنسرح)

صــار حـــيـــاةً وكـــان سَـــهْمَ رَدىً
وكـــان سَـــمّـــاً فـــصـــار دُرْياقـــا

وإني لأعرف مَن رَقَّبَ على بعض مَنْ كان يُشفقُ عليه رقيباً وثِقَ به عند نفسه، فكان أعظم الآفة عليه وأصلَ البلاء فيه.

وأما إذا لم يكن في الرقيب حيلةٌ ولا وُجِدَ إلى ترضّيه سبيل، فلا طمعَ إلا بالإشارة بالعين همساً والحاجب أحياناً، والتعريض اللطيف بالقول، وفي ذلك مُتعةٌ وبلاغٌ إلى حينٍ، يَقنعُ به المشتاق؛ وفي ذلك أقول شعراً أوله: (من الطويل)

على سـيّـدي مني رقـيـبٌ مـحـافظٌ
وفـيٌّ لمـن ولاّهُ لـيـس بـنـاكـث

ومنه:

ويقطعُ أسبابَ اللُّبانة في الهوى
ويَفعلُ فيها فعلَ بعضِ الحوادث
كأنّ له في قلبه ريبةً ترى(٦)
وفي كُل عينٍ مُخبر بالأحادث

ومنه:

على كلِّ مَنْ حولي رقيبان رقّبا(٧)
وقد خَصَّني ذُو العرشِ منهم بثالثِ

وأشنعُ ما يكون الرقيبُ إذا كان ممن امتُحن بالعشق قديماً ودُهي به وطالت مدته فيه، ثم عَرِيَ عنه بعد إحكامه لمعانيه، فكان راغباً في صيانة من رُقِّبَ عليه، فتبارك الله أيّ رقبةٍ تأتي منه، وأيّ بلاء مصبوب يحلُّ على أهل الهوى من جهته؛ وفي ذلك أقول: (من الوافر).

رقيبٌ طالما عَرَف الغَراما
وقاسى الوَجْدَ اذ منع المَناما
ولاَقى في الهوى ألماً أليماً
وكاد الحُبُّ يُوردُهُ الحِماما
وأتقن حيلةَ الصبِّ المُعَنّى
ولم يُضع الإشَارةَ والكلاما
وأعقبه التسلّي بعد هذا
وصار يرى الهوى عاراً وذاما
وصُيِّرَ دون من أهوى رقيباً
ليُبعدَ عنه صَباً مُستهاما
فأيُّ بليّةٍ صُبّتْ علينا
وأي مصيبة حَلّتْ لماما

ومن طريفِ معاني الرقباء أنّي أعرف محبّين مذهبهما واحدٌ في حُبِّ محبوبٍ واحدٍ بعينه، فلعهدي بهما كُلٌّ واحدٍ منهما رقيبٌ على صاحبه. وفي ذلك أقول: (من السريع).

صَبّانِ هَيْمانانِ في واحدٍ
كلاهما عن خِدْنه مُنْحَرفْ

كـــــالـكـلـب في الآريّ لا يَـعْـــــتَلِفْ
ولا يُخلّي الغَـــيْـــرَ أن يعـــتلف[8]

الهوامش

(١) بتروف وتابعه الصيرفي ومكي: متوفر.

(٢) بتروف: يستبري؛ وغيرها الصيرفي إلى: يستبين، وتابعه مكي.

(٣) بتروف: ويتجفى بالحركات؛ الصيرفي ومكي: ويتخفى بالحركات.

(٤) جميع الطبعات: ويحصل.

(٥) جميع الطبعات: يهدني.

(٦) يريد برشيه أن يقرأها: رئيا يرى، وهذا لا يستقيم به الوزن؛ وقد تقرأ "رِبَّة ترى" والربة: الجماعة الكثيرة.

(٧) رقبا أو رتبا؛ لا فرق في المعنى.

(٨) الآري: محبس الدابة من كلب وغيره، وقوله كالكلب لا يعتلف ولا يخلي غيره يعتلف، مثل جاء في صور مختلفة عند الأندلسيين والمغاربة، من ذلك كلب الورد لا يشم ولا يخلي أحداً يشم؛ (انظر الزجالي ص: ٢٦١ المثل رقم: ١١٢٥) وقد ذكر الأستاذ بنشريفه أن المثل لا يزال مستعملاً في تونس، وله صنو في إسبانيا، وقارنه بقول ابن حزم هنا؛ والصورة الإسبانية من المثل أوردها غومس (هامش ص: ١٧٩) واقتبسها مكي (هامش ص: ٨٢).

١٩

باب الواشي

ومن آفات الحبِّ الواشي، وهو على ضربين: أحدهما واشٍ يريدُ القطعَ بين المتحابين فقط، وإن هذا لأفترهما سَوْءَةً، على أنه السمّ الذعاف والصابُ المقر(١) والحتفُ القاصدُ والبلاء الوارد. وربما لم يَنجع ترقيشه. وأكثر ما يكون الواشي فإلى المحبوب، وأما المحبّ فهيهات، حال الجَريضُ دونَ القريض(٢)، ومنع الحَرَبُ من الطَّرب، شُغلهُ بما هو فيه مانعٌ له من استماع الواشي. وقد علم الوُشاة ذلك، وإنما يقصدون إلى الخليِّ البال، الصائلِ بحوزة الملك، المتعتّب عند أقل سبب.

وإن للوُشاة ضُروباً من التّنقيل، فمنها أن يذكرَ للمحبوب عمَّن يُحبُّ أنه غيرُ كاتم للسر. وهذا مكانٌ صَعْبُ المُعاناة، بطيءُ البُرء إلا أن يوافقَ معارضاً(٣) للمُحبّ في محبته، وهذا أمرٌ يوجبُ النفار، فلا فرجَ للمحبوب إلا بأن تساعدَه الأقدارُ بالاطّلاع على بعض أسرار من يُحب، بعد أن يكونَ المحبوب ذا عقل، وله حَظٌ من تمييز، ثم يَدعه والمطاولة(٤). فإذا تكَذّبَ عنده نَقْلُ الواشي مع ما أظهر من التحفظ والجفاء، ولم يسمع لسرّه إذاعةً عَلِمَ أنه إنما زوِّرَ له الباطل، واضمحل ما قام في نفسه. ولقد شاهدتُ هذا بعينه لبعض المُحبين مع بعض من كان يحبّ، وكان المحبوب شديدَ المراقبة عظيمَ الكتمان، وكثر الوشاة بينهما وحُدِّث في حُب لم يكن، حتى ظهرت اعلامُ ذلك في وجهه، وركبتْه وَجْمَةٌ(٥)، وأظلته فكرة، ودَهَمَتْهُ حيرةٌ، إلى أن

ضاق صدره وباح بما نُقِلَ إليه؛ فلو شاهدتَ مقامَ المحبِّ في اعتذاره لعلمتَ أن الهوى سلطانٌ مُطاعٌ، وبناء مشدودُ الأواخي، وسنانٌ نافذ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف والإنكار والتوبة والرمي بالمقاليد، فبعد لأي ما صَلُحَ الأمرُ بينهما.

وربما ذكر الواشي أن ما يظهر المُحبُّ من المحبة ليس بصحيح[٦]، وأن مذهبه في ذلك شفاءُ نفسه وبلوغُ وَطَره؛ وهذا فصلٌ من النقل وإن كان شديداً فهو أيسرُ معاناةً مما قَبله، فحالةُ المحبِّ غيرُ حالة المتلذذ. وشواهدُ الوجد متفاوتة بينهما: وقد وقع من هذا نُبَذٌ كافيةٌ في باب الطاعة.

وربما نقل الواشي أنَّ هوى العاشق مُشْتَرَكٌ، وهذه النارُ المُحرقة والوجعُ الفاشي في الأعضاء. وإذا وافق الناقلُ لهذه المقالة أن يكون المُحبّ فتىً حسنَ الوجه حلوَ الحركات، مرغوباً فيه مائلاً إلى اللذات، دُنياويَّ الطبع، والمحبوبُ امرأةً جليلة القدر سرّية المنصب، فأقربُ الأشياء سَعْيُها في إهلاكه وتصدِّيها لحتفه، وهذه كانت ميتةَ مروان بن أحمد بن حدير، والد أحمد المتنسك، وموسى وعبد الرحمن المعروفين بابني لبنى[٧]، من قبل قَطْرِ الندى جاريته، وفي ذلك أقول محذِّراً لبعض إخواني قطعةً منها: (من الطويل)

وهل يأمنُ النسوانَ غيرُ مغفَّلٍ
جهولٍ لأسباب الردى متعرِّضِ[٨]
وكمْ واردٍ حوضاً من الموت أسوداً
تَرشّفَهُ من طيِّب الطَّعم أبيضِ

والثاني واشٍ يسعى للقطع بين المُحبّين لينفردَ بالمحبوب ويستأثر به، وهذا أشد شيء وأفظَعُهُ[٩] وأجزم[١٠] لاجتهاد الواشي واستفادته بجهده[١١].

ومن الوُشاة جنسٌ ثالث، وهو واشٍ يَسعى بهما جميعاً ويكشفُ سرَّهما، وهذا لا يُلْتَفَتُ إليه إذا كان المُحبُّ مساعداً؛ وفي ذلك أقول: (من الطويل)

عَجِبتُ لواشٍ ظَلَّ يكْشف أمرنَا
وما بسوى أخبارنا يتنفس
وماذا عليه من عَنائي ولوْعتي
أنا آكلُ الرّمان والوُلد تَضرس[١٢]

ولابدَّ أن أُورد ما يُشبه ما نحن فيه، وإن كان خارجاً منه، وهو شيء في بيان التنقيل والنمائم. فالكلام يدعو بعضهُ بعضاً كما شرطنا في أول الرسالة:

وما في جميع الناس شرٌ من الوُشاة، وهم النمامون، وإن النميمة[١٣] لطبْعٌ يدلُ على نَتن الأصْلِ، ورداءَة الفَرعْ، وفساد الطبع،وخُبث النشأة، ولابدٌ لصاحبه من الكذب؛ والنميمة فرعٌ من فروع الكذب ونوعٌ من أنواعه، وكلٌ نمام كذّاب، وما أحببتُ كذاباً قط، وإني لأسامحُ في إخاء كلِّ ذي عَيب وإن كان عظيماً، وأكلُ أمرَهُ إلى خالقه عزّ وجلّ، وآخذُ ما ظَهَر من أخلاقه حاشا من أعلمه يكذب، فهوعندي ماحٍ لكلِّ محاسنه، ومُعَفٍّ على جميع خصاله، ومُذهبٌ كلَّ ما فيه، فما أرجو عنده خيراً أصلاً، وذلك لأن كلَّ ذنب فهو يتوب عنه صاحِبُهُ وكل ذامٍ فقد يمكن الاستتارُ به والتوبةُ منه، حاشا الكذب فلا سبيلَ إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانه حيث كان. وما رأيت قط ولا أخبرني من رأى كذاباً ترك الكذب ولم يعد إليه، ولا بدأتُ قطٌ بقطيعة ذي معرفة إلا أن أطّلع له على الكذب، فحينئذ أكونُ أنا القاصدَ إلى مجانبته والمتعرِّضَ لمتاركته،وهي سمةٌ ما رأيتها قط في أحد إلا وهو مَزنونٌ إليه بشرٌ في نفسه، مغموزٌ عليه لعاهة سوءٍ في ذاته، نعوذ بالله من الخذلان.

وقد قال بعض الحكماء: آخِ من شئت واجتنب ثلاثةً: الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك، والملولَ فإنه أوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكدها يخذلك، والكذّابَ فإنه يجني عليك آمن ما كنت فيه من حيثُ لا تشعر.

وحديث عن رسول الله: "حسن العهد من الإيمان"[١٤]؛ وعنه عليه السلام: "لا يُؤمن الرجل بالايمان كله حتى يدع الكذبَ في المُزاح"[١٥]. حدثنا بهذا أبو عمر أحمد بن محمد[١٦] عن محمد بن عيسى بن رفاعة[١٧] عن علي بن عبد العزيز عن أبي عُبيد القاسم بن سلاّم عن شيوخه، والآخر منهما مُسند إلى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما.

والله عزّ وجلّ يقول: {يا أيُّها الذين آمنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفْعَلونَ. كَبُرَ مَقْتاً عند الله أنْ تقولوا ما لا تَفْعلون} (الصف ٣-٤). وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل هل يكونُ المؤمنُ بَخيلاً؟ فقال: نعم. قيل: فهل يكون المؤمن جَباناً؟ فقال نعم. قيل: فهل يكونُ المؤمن كذاباً؟ فقال: لا. حدّثناه أحمد بن محمد ابن أحمد عن أحمد بن سعيد[١٨] عن عُبيد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك بن أنس عن صفوان بن سليم. وبهذا الإسناد: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا خيرَ في الكذب" في حديث سُئل فيه. وبهذا الإسناد عن مالك أنه بلغه عن ابن مسعود أنه كان يقول: "لا يزال العَبد يكْذِب وينكتُ في قلبه نُكْتة سوداء حتى يَسودَّ القلبُ

فيُكتبَ عند الله من الكذابين" وبهذا الإسناد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البرِّ والبرُّ يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذبَ فإنه يهدي إلى الفجور، والفجورُ يهدي إلى النار"(١٩).

وروي أنه أتاه رجل فقال: يا رسول الله، إني أسْتَهْتَرُ بثلاث: الخمر والزنا والكذب. فمُرني أيها أترك، قال: اترك الكذب، فذهب عنه. ثم أراد الزنا ففكّر فقال: آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني: أزنيت فإن قلت: نعم، حدّني، وإن قلت: لا، نقضتُ العهد، فتركه. ثم كذلك في الخمر. فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني تركت الجميع.

فالكذب أصلُ كلِّ فاحشة، وجامعُ كلِّ سوء، وجالبٌ لمقت الله عزّ وجلّ. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: كلُّ الخلالِ يُطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "ثلاثٌ من كنَّ فيه كان منافقاً: من إذا وعد أخلف، وإذا حدَّثَ كذب، وإذا اؤتمن خان"(٢٠).

وهل الكفر إلا كذب على الله عز وجل(٢١)، والله الحقُّ وهو يحبُّ الحق، وبالحقّ قامت السمواتُ والأرض. وما رأيت أخزى من كذّاب، وما هلكت الدول، ولا هلكت الممالك، ولا سُفكَت الدماءُ ظلماً، ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب، ولاأكِّدت البغضاءُ والإحَنُ المُرْدِيةُ إلا بنمائم لا يحظى صاحبها إلا بالمقت والخزي والذل، وأن ينظر منه الذي ينقل إليه فضلاً عن غيره بالعين التي ينظر بها إلى الكلب.

والله عزّ وجلّ يقول: {وَيْلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ} (الهمزة: ١) ويقول جلَّ من قائل: {يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا} (الحجرات: ٦) فسمى النقل باسم الفسوق، ويقول:{ولا تُطعْ كلّ حَلاَّف مَهين همَّازٍ مشَّاءٍ بنميم. منّاعٍ للخير مُعْتدٍ أثيم. عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم} (القلم: ١٠-١٣). والرسول عليه السلام يقول: "لا يدخل الجنة قَتّات"(٢٢) ويقول: "واياكم وقاتل الثلاثة" يعني المنقِّل والمنقول إليه والمنقول عنه(٢٣). والأحنف يقول: "الثقة لا يبلّغ"(٢٤) وحُقَّ لذي الوجهين ألا يكون عند الله وجيها؛ وهو ما يجعله من أخسّ الطبائع وأرذلها.

ولي إلى أبي اسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفي الشاعر رحمه الله، وقد نقل إليه رجلٌ من إخواني عنّي كذباً على جهة الهزل، وكان هذا الشاعر كثير الوهم

فأغضبه[٢٥] وصدّقه، وكلاهما كان لي صديقاً، وما كان الناقل إليه من أهل هذه الصفة ولكنه كان كثير المُزاح جمَّ الدعابة، فكتبت إلى أبي إسحاق، وكان يقول بالخبر[٢٦]، شعراً منه: (من الطويل)

ولا تتبدّلْ[٢٧] قالةً قد سمعتها
تُقالُ ولا تدري الصحيحَ بما تدري
كمن قد أراق الماء للآلِ أن بدا
فلاقى الردى في الأفيح المَهمهِ القَفْرِ

وكتبت إلى الذي نقل عني شعراً منه: (من الطويل)

ولا تُدْغِمْنْ[٢٨] في الجدّ مَزْحاً كمُولجٍ
فسادَ عِلاجِ النفسِ طيَّ صلاحها
ومَن كان نقلُ الزور أمضى سلاحه
كمثل الحُبارى تَتّقي بسُلاحها[٢٩]

وكان لي صديق مرة وكثر التدخيل[٣٠] بيني وبينه حتى كدح ذلك فيه واستبان في وجهه وفي لحظه، وطُبعت على التأنّي والتربُّص والمسالمة ما أمكَنَتْ، ووجدتُ بالانخفاض سبيلاً إلى معاودة المودة، فكتبت إليه شعراً، منه: (من الطويل)

ولي في الذي أُبدي مرامٍ لو أنها
بَدَتْ ما ادعى حسنَ الرماية وهْرزُ[٣١]

وأقول مخاطباً لعُبيد الله بن يحيى الجزيري الذي يحفظ لعمِّه الرسائلَ البليغة[٣٢]، وكان طبعُ الكذب قد استولى عليه، واستحوذ على عقله، وألفه ألفةَ النفس الأملَ، ويؤكد نقلَه وكذبه بالأيمان المؤكّدة المغلّظة مجاهراً بها، أكذب من السراب، مستهتراً بالكذب مشغوفاً به، لا يزال يحدِّث من قد صَحَّ عنده أنه لا يصدّقه، فلا يزجره ذلك عن أن يحدّث بالكذب: (من الطويل)

بدا كلُّ ما كَتّمته بين مُخبرِ
وحَالٍ أرتْني قُبْحَ عَقْدكَ بيِّنَا
وكم حالةٍ صارت بياناً بحالةٍ
كما تُثْبتُ الأحكام بالحَبل الزنا

وفيه أقول قطعة منها: (من الطويل)

أنَمُّ من المِرآة في كل ما دَرى
وأقطعُ بين الناس من قُضُبِ الهنْدِ
أظنُّ المَنايا والزمانَ تعلّما
تَحيُّلهُ بالقَطعِ بين ذوي الودِّ

وفيه أيضاً أقول من قصيدة طويلة: (من الطويل)

وأكذبُ من حُسْن الظنون حديثُه
وأقبحُ من دَينٍ وفقرٍ مُلازِمِ
أوامرُ ربِّ العرشَ أضيعُ عندهُ
وأهون من شكوى إلى غيرِ راحم
تجمَّع فيه كلُّ خِزْيٍ وَفَضْحَةٍ
فلم يُبْقِ شتماً في المقالِ لشاتم
وأثقلُ من عَذْلٍ على غيرِ قابلٍ
وأبرَدُ برداً من مدينة سَالمِ[٣٣]
وأبغض من بين وهَجرٍ ورقْبةٍ
جُمِعْن على حَرّانَ حيرانَ هائم

وليس مَنْ نبَّهَ غافلاً، أو نصح صديقاً، أو حفظ مسلماً، أو حكى عن فاسق أو حدَّث عن عدوّ ـ ما لم يكن يكذب ولا يكذّب، ولا تعمد الضغائن ـ منقِّلاً[٣٤]. وهل هلك الضعفاء وسقط من لا عقل له إلا في قلة المعرفة بالناصح من النمام، وهما صفتان متقاربتان في الظاهر متفاوتتان في الباطن، إحداهما داءٌ والأخرى دواء. والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما، لكنَّ الناقلَ من كان تنقيله غير مرضيٍّ في الديانة، ونوى به التشتيتَ بين الأولياء، والتضريبَ بين الإخوان، والتحريشَ والتوبيش[٣٥] والترقيش. فمن خاف إن سلك طريق النصيحة أن يقع في طريق النميمة، ولم يثقْ لنفاذ تمييزه ومضاء تقديره فيما يَرده من أمور دنياه ومعاملة أهل زمانه، فليجعل دينَه دليلاً وسراجاً يستضيء به، فحيثما سلك به سلك وحيثما أوقفه وقف، وكفيلاً له بالنظر وزعيماً بالإصابة وضماناً للفلج والخلاص[٣٦] فشارع الشريعة وباعث الرسول عليه السلام ومرتِّبُ الأوامر والنواهي أعلمُ بطريق الحقّ وأدرى بعواقب السلامة ومغبات النجاة من كل ناظرٍ لنفسه بزعمه، وباحث بقياسه في ظنّه.

الهوامش

(١) المقر:الشديد المرارة.

(٢) حال الجريض دون القريض: هذا مثل يضرب للمعضلة تعرض فتشغل عن غيرها، وهو لعبيد ابن الأبرص حين سئل وهو مترقب الموت أن يقول شعراً (انظر جمهرة العسكري ١: ٣٥٩ والفاخر: ٢٥٠ والميداني ١: ١٢٩ والمستقصى: ٢٠١ واللسان: جرض، وفصل المقال: ٤٤٤).

(٣) برشيه: مغارض. السامرائي: مقارضاً.

(٤) برشيه: يديمه المطاولة.

(٥) مكي والصيرفي: رحمة.

(٦) بتروف والصيرفي ومكي: ليست بصحيحة.

(٧) قد عرفت ببعض بني حدير فيما تقدم ص: ١٥٥هامش ٤ وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب (أعمال الإعلام: ٢١١) موسى بن مروان بن حدير ووصفه بالصرامة والجرأة؛ وجهه صاحب قرطبة إلى خيران حين انتزى في شرق الأندلس، فدارت بين الاثنين وقعة أسر فيها موسى وقتل أصحابه.

(٨) الطبعات (ما عدا برشيه): متأرض.

(٩) أكثر القراءات: وأقطعه.

(١٠) برشيه: وأجزعه.

(١١) الصيرفي ومكي: واستفادة جهده؛ ولعلني أرجح: واستنفاده جهده.

(١٢) عبارة متناقلة مشهورة، لها أصل في العهد القديم (انظر سفر حزقيال، الإصحاح: ١٨).

(١٣) قارن بين هذه الحملة الشديدة على النميمة هنا، وبين قول ابن حزم في رسالته في الأخلاق والسير: "وأما النميمة فهي التبليغ لما سمع مما لا ضرر فيه على المبلغ إليه" رسائل ابن حزم: ١٣٣).

(١٤) ورد في ارشاد الساري ٩: ٢١ واتقان الغزي: ٥٢ وعيون الاخبار ٣: ١٥ والبصائر ٧: ٦٥١.

(١٥) انظر مسند أحمد ٢: ٣٥٢، ٣٦٤.

(١٦) أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الجسور الأموي هو أول شيخ سمع منه ابن حزم قبل الأربعمائة، وتوفي سنة ٤٠١ وكان من أهل العلم متقدماً في الفهم حافظاً للحديث والرأي (الجذوة: ٩٩-١٠٠ والصلة: ٢٩) وفي رواية ابن حزم عنه يروي ابن الجسور عن كل من:

(١) محمد بن عبد الله بن أبي دليم.

(٢) أحمد بن مطرف.

(٣) أحمد بن سعيد بن حزم.

(٤) محمد بن عيسى بن رفاعة القلاس.

(٥) وهب بن مسرة.

وسيعرف بكل واحد من هؤلاء في موضعه.

(١٧) محمد بن عيسى بن رفاعة: هو القلاس (-٣٣٧) انظر ابن الفرضى ٢: ٥٧

(١٨) أبو عمر أحمد بن سعيد بن حزم الصدفي (-٣٥٠) قرطبي سمع بالأندلس من عبيد الله بن يحيى وغيره ورحل إلى المشرق، وجمع كتابا كبيراً في الرجال (ابن الفرضي ١: ٥٥ والجذوة: ١١٧).

(١٩) حديث "عليكم بالصدق... الخ" ورد في الصحاح الستة؛ انظر مثلاً مسلم، باب البر: ١٠٥ (٢: ٢٨٩) وفي الموطأ (الكلام: ١٦) وفي مسند أحمد: ١، ٣، ٥، ٧، ٨، ومواضع أخرى منه، وبهجة المجالس ١: ٥٧٦ وانظره في مصنف عبد الرزاق ١١: ١٥٩ من كلام ابن مسعود.

(٢٠) ورد بصيغ مختلفة منها: آية المنافق ثلاث في البخاري (شهادات: ٢٨) ومسلم (ايمان ١٠٧، ١٠٩) ومسند أحمد ٢: ٣٥٧ وبصيغة: ثلاث من كن فيه فهو منافق، في مسند أحمد ٢: ١٩٨، ٥٣٦، وثلاث في المنافق: في

مسند أحمد ٢: ٢٩٧.

(٢١) كرر ابن حزم هذا في رسالته في مداواة النفوس (رسائل: ١٤٦) فقال: لا شيء أقبح من الكذب، وما ظنك بعيب يكون الكفر نوعاً من أنواعه، فكل كفر كذب، فالكذب جنس والكفر نوع تحته.

(٢٢) ورد حديث "لا يدخل الجنة قتات" في البخاري (أدب: ٥٠) ومسلم (ايمان: ١٦٩، ١٧٠) وأبي داود (أدب: ٣٣، وبر: ٧٩) ومسند أحمد ٥: ٣٨٢، ٣٨٩، ٣٩٢، ٤٠٢، ٤٠٤، وانظر بهجة المجالس ١: ٢-٤٠ والقتات هو النمام.

(٢٣) جاء في بهجة المجالس ١: ٤٠٢ قال عليه السلام: اياك ومهلك الثلاثة، قيل وما مهلك الثلاثة قال: رجل سعى بأخيه المسلم فقتله فأهلك نفسه وأخاه وسلطانه.

(٢٤) الاحنف: اسمه الضحاك بن قيس، وقيل اسمه صخر، مضرب المثل في الحلم، مختلف في عام وفاته بين ٦٧-٧٧، والأول أشهر، انظر ترجمته في ابن خلكان٢: ٤٩٩ وطبقات ابن سعد ٧: ٩٣ وتهذيب ابن عساكر ٧: ١٠ وتهذيب التهذيب ١: ١٩١، وأخبار حلمه مبثوثة في كتب الأدب. وقوله "الثقة لا يبلغ" كلمة تنسب له ولغيره؛ فقد جاء في الأذكياء لابن الجوزي (ط/ ١٣٠٤) غضب رَجل على رجل فقال له: ما أغضبك؟ قال: شيء نقله إلي الثقة عنك، فقال: لو كان ثقة ما نمّ.

(٢٥) برشيه: فأخذ به.

(٢٦) وكان يقول بالخبر: هذه العبارة - فيما أعتقد - صنو لقوله: وكان ظاهرياً؛ وتفسير ذلك أن ابن حزم ومن رأى مثل رأيه يقولون إن الخبر الصحيح عن الرسول حكمه حكم القرآن في وجوب الطاعة لهما فمن بلغه خبر عن الرسول يقر بصحته ثم رده بغير تقية فهو كافر، وهذا معنى قوله تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم}، فمن مال عن قول رسول الله إلى قول فلان وفلان أو قياسه أو استحسانه فإنه ليس بمؤمن، ويستوي في ذلك أن يكون الخبر منقولاً نقل التواتر أو نقله الواحد الثقة، وهم يردون بشدة على من يقول إن الخبر إذا كان مما يعظم به البلوى لم يقبل فيه خبر الواحد (انظر الاحكام ١: ٩٦-١٣٨).

(٢٧) برشيه: تتقبل؛ والبيت الثاني يقوّي رواية "تتبدل".

(٢٨) برشيه: تمزجن؛ وفي سائر القراءات: تزعما.

(٢٩) يشير إلى قولهم في المثل: اسلح (أو أذرق) من حبارى؛ انظر الدرة الفاخرة: ٢٣٣ وجمهرة العسكري ١: ٥٣٤، والميداني ١: ٣٥٤ والمستقصى ١: ١٧٠.

(٣٠) برشيه: التدجيل؛ ولا أراه صواباً؛ والتدخيل مصدر دخل، وهو وان لم يكن جارياً على القياس فإنه بمنزلة "الدخال"؛ والمقصود به هنا الدخول بين اثنين للوقيعة والدسّ.

(٣١) كان وهرز قائد الجيش الفارسي الذي ارسله كسرى لمعاونة سيف بن ذي يزن على طرد الأحباش وكان حاذقاً في الرماية (انظر مروج الذهب: ٣: ١٦٣ وما بعدها).

(٣٢) قوله: يحفظ لعمه الرسائل البليغة الأرجح أنه يقصد بهذا العم عبد الملك بن ادريس الجزيري (انظر الذخيرة ٤/١: ٤٦ ومراجع ترجمته مذكورة فى الحاشية) أما ابن أخيه عبيد الله فمن العبث مساءلة المصادر عن أخبار من كان مثله سقوطاً وخسة؛ ولكن الأمر الذي يستحق التنبّه هو: لماذا لم يحاول ابن حزم أن يخفي اسمه كما أخفى أسماء كثيرين غيره؟ وجعله مرمى لسهام هجائه، حتى كأنه كان مباءة لشتى ضروب الرذائل (انظر ص: ٢٧٩).

(٣٣) مدينة سالم: (Medinacelli) تقع على بعد ١٣٥ كيلو متراً على الطريق من مدريد إلى سرقسطة، وقد توفى المنصور بها ودفن هنالك؛ وهي في منطقة شديدة البرودة شتاء، فلذلك ضرب بها المثل هنا (انظر الادريسي (دوزي): ١٨٩).

(٣٤) برشيه: ناقلاً؛ وتعد "منقلاً" خبر "ليس" فى أول الفقرة.

(٣٥) التوبيش: لعلها من وَبش الكلام وهو الرديء منه؛ وقرأ برشيه "والتوحيش؛ شاكر: والتقريش.

(٣٦) وكفيلاً له... والخلاص: سقطت هذه العبارة من طبعة الصيرفي ومكي والطبعة البيروتية.

٢٠.
باب الوصل

ومن وجوه العشق الوصل، وهو حظٌّ رفيعٌ، وَمَرْتَبَةٌ سريّةٌ، ودرجةٌ عاليةٌ، وسعدٌ طالع، بل هو الحياةُ المجدَّدة، والعيش السنيُّ، والسرور الدائم، ورحمةٌ من الله عظيمة. ولولا أن الدنيا مَمَرٌّ ومحنة وكدر،والجنة دارُ جزاءٍ وأمانٍ من المكاره، لقلنا إن وَصْلَ المحبوب هو الصفاءُ الذي لا كَدَرَ فيه، والفرحُ الذي لا شائبةَ ولا حزنَ معه، وكمالُ الأمانيّ، ومنتهى الأراجي ولقد جرَّبتُ اللذات على تصرفها، وأدركتُ الحظوظَ على اختلافها، فما للدنوِّ من السلطان، ولا للمال المستفاد، ولا الوجود بعد العدم، ولا الأوبة بعد طول الغيبة، ولا الأمن من بعد الخوف، ولا التروّح على المال[١]، من الموقع في النفس ما للوصل، ولاسيما بعدَ طول الامتناع، وحلول الهجر[٢]، حتى يتأجج عليه الجوى، ويتوقدَ لهيبُ الشوق، وتتضرَّمَ نار الرجاء. وما إصنافُ[٣] النبات بعد غبِّ القطر، ولا إشراقُ الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السَّجسج، ولا خريرُ المياه المتخللة لأفانين النوار، ولا تأنُّق القصور البيض قد أَحْدَقَتْ بها الرياض[٤] الخضر، بأحسن من وصل حَبيب قد رُضِيَتْ أخلاقه، وحُمِدت غرائزه، وتقابلت في الحسن أوصافه، وأنه لمعجزٌ ألسنةَ البلغاء، ومقصّرٌ فيه بيانُ الفصحاء، وعنده تطيشُ الألباب، وتعزُبُ الأفهام؛ وفي ذلك أقول: (من البسيط)

وسائلٍ لِيَ عما لي من العُمُر
وقد رأى الشيْبَ في الفوْدين والعُذَرِ

أجَبْتُهُ ساعةٌ لا شيء أحسبُه
عُمراً سواها بحكم العقلِ والنظر
فقال لي: كيف ذا بَيِّنْهُ لي فلقد
أخبرتني أشنعَ الأنباءِ والخَبر
فقلتُ إن التي قلبي بها عَلِقٌ
قَبَّلتها قُبْلَةً يوماً على خَطَر
فما أُعُدُّ ولو طالتْ سِنِيَّ سوى
تلك السويعة بالتحقيق من عُمُري

ومن لذيذ معاني الوصل المواعيدُ، وإن للوعد المنتظَر مكاناً لطيفاً من شغاف القلب؛ وهو ينقسم قسمين: أحدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه، وفيه أقول قطعةً منها: (من البسيط).

أُسامِرُ البدرَ لمّا أبطأتْ وأرى
في نوره من سَنا إشراقها عَرضَا
فبِتُّ مشترطاً والوُدُّ مختلطاً[٥]
والوَصلُ مُنبسطاً والهجر منقبضا

والثاني: انتظارُ الوعد من المحبّ أن يزورَ محبوبه. وإن لمبادىء الوصل وأوائل الإسعاف لتولُّجاً[٦] على الفؤاد ليس لشيء من الاشياء. وإني لأعرفُ مَنْ كان مُمتحَناً بهوىً في بعضِ المنازلِ المصاقبة فكان يصلُ متى شاء بلا مانع، ولا سبيل إلى غير النظر والمحادثة زماناً طويلاً، ليلاً متى أحبَّ ونهاراً، إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة، ومكنته بإسعاد، بعد يأسه، لطول المدة، ولعهدي به قد كاد أن يختلطَ عقلُهُ فرحاً، وما كاد يتلاحق كلامُهُ سروراً، فقلت في ذلك: (من البسيط).

برغبةٍ[٧] لو إلى ربي دعوتُ بها
لكان ذنبيَ عند الله مغفورا
ولو دعوتُ بها أُسْدَ الفلا لَغَدا
إضرارُها عن جميع الناس مقصورا
فجادَ باللثمِ لي من بعد مَنعَتِه
فاهتاج من لوعتي ما كان مغمورا

كـــشـــارب الماء كي يُطْفي الغليلَ به
فغصَّ فانصاعَ في الأجْداث مقبورا

وقلت: (من المتقارب).

جـرى الحبُّ منّي مَـجْـرَى النَّفَسْ
وأعطيتُ عيني عِنانَ الفَرَسْ

ولي سيّدٌ لم يزل نافراً
وربّتما جاد لي في الخُلَسْ

فقَبّلْتُهُ طالباً راحةً
فزاد أليلاً بقلبي اليَبَسْ

وكان فؤادي كنبتٍ هشيمٍ
يَبيسٍ رمَى فيه رامٍ قَبَس

ومنها:

ويا جَوهر الصينِ سُحقاً فقد
غَنيتُ بياقُوتةِ الأندلُس[٨]

خبر:

وإني لأعرف جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء، وهو لا علم عنده، وكثر غمها به[٩] وطال أسفها إلى أن ضَنيَتْ بحبه، وهو بغرارة الصِّبا لا يشعر؛ ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياءُ منه لأنها كانت بكراً بخاتمها، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدري لعله لا يوافقه، فلما تمادى الأمر - وكانا إلْفين[١٠] في النشأة - شكتْ ذلك إلى امرأة جَزْلة الرأي كانت تثق بها لتولّيها تربيتها، فقالت لها: عَرِّضي له بالشعر، ففعلت المرّةَ بعدَ المرّة وهو لا يأبه في كلّ هذا. ولقد كان لَقناً ذكياً ولكنه لم يظنَّ ذلك فيميلَ إلى تَفْتيشِ الكلام بوهمه، إلى أن عيلَ صبرُها وضاق صدرها ولم تمسك نَفْسَها في قَعْدَة كانت لها معه في بعض الليالي مُنْفَرِدين، ولقد كان - يعلم الله - عفيفاً مُتصاوناً بعيداً عن المعاصي، فلما حانَ قيامُها عنه بَدَرَتْ إليه فقبّلَتْه في فَمه ثم ولّت في ذلك الحين ولم تكلّمه بكلمة، وهي تتهادى في مشيها، كما أقول في أبيات لي: (من البسيط).

كأنها حين تخطو في تأوّدها
قضيبُ نرجسةٍ في الرّوض ميّاسُ

كـأنما خطوها[١١] في قلب عـاشـقـهـا
فـفـيـه من وقـعـهـا خَطْرٌ ووسـواسُ
كـأنما مـشـيُـهـا مـشيُ الحَـمـامـة لا
كـــدٌّ يُعـــابُ ولا بُـطءٌ بـه بـاسُ

فبُهت وسُقط في يده وفُتَّ في عضده ووجدَ في كبده وَعَلَتْهُ وجمةٌ، فما هو إلا أن غابت عن عينه ووقع في شَرَك الرَّدَى، واشتعلت في قلبه النار، وتصعَّدَتْ أنفاسه، وترادفت أوجاله، وكثر قلقه، وطال أرقه، فما غمض تلك الليلةَ عيناً، وكان هذا بدءَ الحب بينهما دهراً، إلى أن جَذّت حبليهما[١٢] يدُ النوى؛ وإن هذا لمن مصايد إبليس ودواعي الهوى التي لا يقفُ لها أحدٌ إلا من عصمه الله عز وجل.

ومن الناس من يقول: إن دوام الوصل يودي بالحب، وهذا هجينٌ من القول، إنما ذلك لأهل الملل، بل كلما زاد وصلاً زاد اتصالاً:

وعنّي أخبرك أنّي ما رويتُ قط من ماء الوصل ولا زادني إلاّ ظمأً، وهذا حكمُ من تداوى بدائه وإن رفه عنه شيئاً ما[١٣] . ولقد بلغتُ من التمكن بمن أحبُّ أبعدَ الغايات التي لاَ يجدُ الإنسانُ وراءها مَرْمَىً فما وجدتُني إلا مستزيداً، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتني فترة.

وقد ضمني مجلسٌ مع بعض من كنتُ أحبُّ فلم أجِلْ خاطري في فنٍ من فنون الوَصل إلا وجدتُهُ مقصّراً عن مرادي، وغيرَ شافٍ وَجْدي ولا قاضٍ أقلَّ لبانة من لباناتي، ووجدتُني كلما ازددتُ دنواً ازددتُ ولوعاً، وقدحتْ زنادُ الشوق نارَ الوجد بين ضلوعي، فقلت في ذلك المجلس: (من الطويل)

وَدِدْت بـأنَّ الـقـلـبَ شُـقَّ بـمُـــدْيَـةٍ
وأُدخلت فـيـــه ثم أُطبِقَ في صَـــدري
فـأصـبـحتِ فـيـه لا تحلِّينَ غـيـره
إلى مُـقْـتـضَى يوم القـيـامـة والحَـشْـر
تعـيـشين فـيـه مـا حـيـيتُ فـإن أَمُتْ
سكنت شـغـافَ القلبِ في ظُلَم القـبـر

وما في الدنيا حالة تعدل مُحبَّين إذا عدما الرُقباءَ وأمِنَا الوشاةَ، وسلما من البين ورغبا عن الهجر، وبَعُدا عن الملل وفقدا العذّال، وتوافقا في الأخلاق، وتكافيا في المحبة، وأتاح الله لهما رزقاً داراً، وعيشاً قاراً، وزماناً هادياً، وكان اجتماعُهما

على ما يُرْضي الربَّ من الحلال[١٤] ، وطالت صُحبتهما واتصلت إلى وقت حُلول الحمام الذي لا مردَّ له ولابدَّ منه، هذا عطاءُ لم يحصل عليه أحد، وحاجةٌ لم تُقضَ لكلِّ طالب. ولولا أن مع هذه الحال الإشفاقَ من بغتات المقادير المحكمة في غيب الله عزّ وجلّ، من حُلول فراق لم يكتسب، واخترام منيّة في حال الشباب، أو ما أشبه ذلك، لقلتُ إنها حالٌ بعيدة من كلِّ آفة، وسليمةٌ من كلِّ داخلة.

ولقد رأيتُ من اجتمع له هذا كلُّه، إلا أنه كان دُهي في من كان يحبه بشراسة أخلاقٍ، ودالةٍ على المحبة، فكانا لا يتهنيان العيش ولا تطلع الشمسُ في يومٍ إلا وكان بينهما خلاف فيه، وكلاهما كان مطبوعا بهذا الخُلق، لثقة كلِّ واحدٍ منهما بمحبة صاحبه، إلى أن دبَّتِ النوى بينهما فتفرقًا بالموت المرتَّبِ لهذا العالم، وفي ذلك أقول: (من المنسرح).

كيف أذُمُّ النوى وأظلمُها
وكلُّ أخلاقِ من أحبُّ نَوى

قد كان يَكفي هوىً أضيقُ به
فكيف إذ حَلَّ بي نوىً وهوى

وروي عن زياد بن أبي سفيان رحمه الله أنه قال لجُلسائه: مَن أنعمُ الناسِ عيشةً؟ قالوا: أمير المؤمنين. فقال: وأين ما يلقى من قريش؟ قيل: فأنت. قال: أين ما ألقى من الخوارج والثغور؟ قيل: فمن أيها الأمير؟ قال: رجلٌ مسلمٌ له زوجة مسلمةٌ لهما كفافٌ من العيش، قد رَضيَتْ به ورضيَ بها، لا يعرفنا ولا نعرفه[١٥].

وهل فيما وافق إعجابَ المخلوقين، وجلا القلوبَ، واستمال الحواسَّ، واستهوى النفوسَ، واستولى على الأهواء، واقتطعَ الألبابَ، واختلسَ العقولَ، مُستَحْسَنٌ يعدلُ إشفاقَ مُحبٍّ على محبوب. ولقد شاهدتُ من هذا المعنى كثيراً، وإنه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقة الرائقة المعنى، لاسيما إن كان هوى يكتتم به.فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تَغَضُّبٍ بمحبه، وخَجْلَتَهُ في الخروج مما وقع فيه بالاعتذار، وتوجيهه إلى غير وجهه، وتحيله في استنباط معنىً يُقيمه عند جلسائه، لرأيتَ عجباً ولذةً مخفية لا تقاومها لذة. وما رأيتُ أجلَب للقلوب ولا أغوصَ على حَبَّاتها[١٦] ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل. وإن للمُحبين في الوصل من الاعتذار ما أعجزَ أهلَ الأذهانِ الذكيّة والأفكار القوية؛ ولقد رأيت في بعض المرات هذا فقلت: (من السريع).

إذا مـــــــزجتَ الحقَّ بـالبــــــاطلِ
جَـــوَّزَت مـــا شـــئتَ على الغـــافلِ
وفـــيـــهـــمـــا فـــرقٌ صـــحـــيحٌ له
عـــلامـــةٌ تبـــدو إلى العـــاقلِ
كـــالتِّـــبْـــرِ إن تمزجْ به فـــضـــةً
جـــازتْ على كلِّ فـــتـىً جـــاهلِ
وإن تُصـــادفْ صـــائغـــاً مـــاهراً
مَـــيَّـــزَ بين المحضِ والخـــائلِ(١٧)

وإني لأعلم فتىً وجاريةً: كان يكلف كلُّ واحد منهما بصاحبه، فكانا يضطجعان إذا حضرهما أحد وبينهما المُسنَد العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش، ويلتقي رأساهما وراء المسند ويقبِّلُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه ولا يُرَيان، وكأنهما إنما يتمدّدان من الكَلَل؛ ولقد كانا بلغا(١٨) من تكافيهما في المودة أمراً عظيماً، إلى أن كان الفتى المُحبُّ ربما استطال عليها؛ وفي ذلك أقول: (من السريع).

ومـن أعـــاجـــيـب الزمـــان التـي
طَمَّتْ على الســـامع والقـــائل
رَغـــبـــةُ مَـــركُـــوبٍ إلى راكبٍ
وذلـةُ المســـؤول للســـائـل
وَطَولُ مـــأســـورٍ إلى آســـر
وصَـــولَـةُ المَقـــتـــولِ للقـــاتل
مـــا إن ســـمـــعنا في الورى قـــبلهـــا
خـــضـــوعَ مـــأمـــولٍ إلى آمـل
هـل هـا هـنـا وجـــهٌ تـراه ســـوى
تـواضعِ المَفـــعـــول للفـــاعـل

ولقد حدثتني امرأةٌ أثقُ بها أنها شاهدتْ فتىً وجاريةً كان يَجدُ كلّ واحدٍ منهما بصاحبه فَضْلَ وَجْد، قد اجتمعا في مكانٍ على طَرَبَ، وفي يد الفتى سكينٌ يقطع بها بعضَ الفواكه، بجرِّها جرّاً زائداً فقطع إبهامَهُ قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم، وكان على الجارية غلالة قَصَبٍ خَزائنية لها قيمة، فَصَرَّفَتْ(١٩) يدها وَخَرَقَتْها وأخرجتْ منها

فضلةً شَدَّ بها إبهامه.

وأما هذا الفعل للمحبِّ فقليل في ما يجب عليه، وفرضٌ لازم وشريعة مؤدّاةٌ، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه، فما يَمْنَعُ بعدهما.

خبر:

وأنا أدركتُ بنتَ زكريا بن يحيى التميمي المعروف بابن برطال[٢٠]، وعمها كان قاضيَ الجماعةِ بقرطبة محمد بن يحيى[٢١] وأخوها[٢٢] الوزير القائد الذي كان قتله غالبٌ وقائدين له في الوقعة المشهورة بالثغور، وهما مروان بن أحمد بن شهيد ويوسف بن سعيد العكّي[٢٣]، وكانت متزوجةً بيحيى بن محمد بن الوزير يحيى بن إسحاق[٢٤]، فعاجلته المنيةُ وهما في أغضّ عيشهما وأنضر سرورهما، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه في دثارٍ واحد ليلةَ مات، وجعلته آخرَ العهدِ به وبوصله، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حينِ موتها.

وإن للوصلِ المختلس الذي يُخاتَلُ به الرقباء وَيُتَحَفَّظُ به من الحضّر، مثل الضحك المستورِ والنحنحة وجولان الأيدي والضغط بالأجناب والقرص باليد والرجل، لموقعاً من النفسِ شهياً؛ وفي ذلك الوقت أقول: (من المديد).

إن للوصلِ الخفيِّ محلاً
ليس للوصلِ المكينِ الجليّ
لذةٌ تمزجها بارتقابٍ
كمسيرٍ في خلال النقي

خبر:

ولقد حدثني ثقة من إخواني جليلٌ من أهل البيوتاتِ أنه كان عَلق في صباه جاريةً كانت في بعض دور آله، وكان ممنوعاً منها، فهام عقلَه بها؛ قال لي: فتنزهنا يوماً إلى بعض ضياعنا بالسَّهلْةِ غربيَّ قرطبة مع بعض أعمامي، فتمشينا في البساتين وأبعدنا عن المنازل وانبسطنا على الأنهار، إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي الجميع؛ قال: فأمر عمّي ببعض الأغطية فألقيَ عليّ وأمرها بالاكتنانِ معي، فظنٌّ بما شئت من التمكن على أعين الملأ وهم لا يشعرون، ويا لك من جَمْعٍ كخَلاءٍ، واحتفالٍ كانفراد، قال لي: فوالله لا نسيتُ ذلك اليوم أبداً. ولعهدي به وهو يحدثني بهذا الحديث وأعضاؤُهُ كلّها تضحكُ وهو يهتزُّ فرحاً

على بُعْد العهد وامتداد الزمّان؛ ففي ذلك أقول شعراً منه: (من الخفيف).

يَضحكُ الروضُ والسحائبُ تبكي
كحبيبٍ رآه صَبٌّ مُعَنَّى

خبر:

ومن بديع الوصل ما حدثني به بعضُ إخواني أنه كان في بعض المنازل المصاقبة له هوىً، وكان في المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر، فكانت تقفُ له في ذلك الموضع، وكان فيه بعضُ البعد[٢٥] ، فتسلّم عليه ويدها ملفوفة في قميصها. فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك فأجابته: إنه ربما أحسَّ من أمرنا شيء فوقف لك غيري فسلم عليك فرددتَ عليه فصحَّ الظن، فهذه علامةٌ بيني وبينك، فإذا رأيت يداً مكشوفةً تشير نحوك بالسلام فليستْ يدي، فلا تجاوب.

وربما استحلي الوصالُ واتفقت القلوبُ حتى يقعَ التجليح[٢٦] في الوصال، فلا يُلْتَفَتُ إلى لائم ولا يُستَتَرُ من حافظ ولا يُبالَى بناقل، بل العَذْلُ حينئذ يُغري؛ وفي صفة الوصل أقول شعراً منه: (من السريع).

كم دُرتَ حول الحُب حتى لقد
حَصَلْتَ فيه كحُصولِ الفراشْ

ومنه:

تَعشو إلى الوصل دواعي الهَوى
كما سَرَى نحو سَنا النارِ عاشْ

ومنه:

عَلَّلني بالوصل من سيّدي
كمِثلِ تعليلِ الظماء العِطاشْ

ومنه:

لا توقِفِ العينَ على غايةٍ
فالحُسنُ فيه مُستزيدٌ وفاش[٢٧]

وأقول من قصيدة لي: (من السريع).

هل لقتيل الحبِّ من وادي[٢٨]
أم هل لعاني الحبِّ من فادي

أمَ هل لدهري عـــــودةٌ نحـــــوها
كــــمـــثلِ يومٍ مَـــرَّ في الوادي
ظللتُ فـــيـــه ســـابحـــاً صـــادياً
يا عـــجـــبـــاً للســابحِ الصَّـــادي
ضَنيتُ يا مـــولاي وجـــداً فـــمـــا
تُبـــصـــرُني ألحـــاظُ عُـــوَّادِي
كـــيف اهتـــدَى الوجـــدُ إلى غـــائبٍ
عـن أعينِ الحـــاضـــرِ والبـــادِي
مَنْ مُـــداواتي طبـــيـــبي فـــقـــد
يرحـــمني للسُّـــقْمِ حُـــسَّـــادي

الهوامش

(١) التروح: أراد هذه الصيغة بمعنى الراحة، ولو كانت "التريح" لكانت بمعنى الشعور بالأريحية وقرأ برشيه: ولا الأمن من بعد الخوف والنزوح عن الآل؛ وعلى تعسفه في القراءة فإنه يلمح إلى الحال النفسية لدى ابن حزم في فقدانه الأمن ونزوحه عن وطنه وآله بعيد الفتنة.

(٢) وحلول الهجر: لم ترد عند برشيه في النص، وثبت معناها في الترجمة (فسقوطها سهوٌ).

(٣) إصناف النبات: بدءُ ظهور إيراقه؛ وغيَّرها برشيه فجعلها: "إيراق"، وذلك تحكم منه.

(٤) برشيه: قد أحدقن بالرياض.

(٥) كذا هذا الشطر عند بتروف وغيره، إلا أن برشيه قرأه: فبت مختبطاً والود معتبطاً؛ والأصل والتصحيح عليه كلاهما قلق، ولم أتبين له وجهاً صحيحاً؛ ولعله لو كان "فبت مختلطاً والود مشترطاً" لكان ذا معنى.

(٦) برشيه: لثلوجاً.

(٧) برشيه: بي رغبة.

(٨) الجواهر الفاخرة ثلاث الياقوت والزمرد واللؤلؤ، وليس واحد منها موطنه الصين، وأقربها إلى تلك البلاد الياقوت فإن موطنه سرنديب (انظر الجماهر للبيروني: ٨١، ٣٢ وصفحات أخرى) وقال التيفاشي: من جزيرة خلف سرنديب بأربعين فرسخاً، وهذا يقرب أن تكون الصين أو بعض الجزائر القريبة منها موطناً له (أزهار الأفكار: ٦٣) ومهما يكن من شيء فإن الشاعر إنما يومىء إلى النفاسة التي تجعل التجار يحملون الجواهر من مكان سحيق.

(٩) به: عند برشيه وحده.

(١٠) برشيه: اليقين (والترجمة شاهد على أن لا تصحيف).

(١١) جميع الطبعات: خلدها.

(١٢) برشيه: جملتهما.
(١٣) أثبت قراءة برشيه، وعند غيره: تداوى برأيه... عنه سريعا.
(١٤) في معظم الطبعات: من الحال.
(١٥) ورد هذا الخبر في بهجة المجالس ١: ١١٧ على النحو الآتي: قال زياد لجلسائه: من أغبط عيشاً؛ قالوا: الأمير وجلساؤه، فقال: ما صنعتم شيئاً إن لأعواد المنابر هيبة، وان لقرع لجام البريد لفزعة، لكن أغبط الناس عندي رجل له دار لا يجري عليه كراؤها، وله زوجة صالحة قد رضيته ورضيها فهما راضيان بعيشهما، لا يعرفنا ولا نعرفه، فإنه إن عرفنا وعرفناه اتعبنا ليله ونهاره، وأفسدنا دينه ودنياه.
(١٦) في جميع الطبعات: حياتها؛ وهو وهمٌ.
(١٧) في جميع الطبعات: والحائل - بالحاء المهملة - ؛ والحائل: المشتبه الأمر.
(١٨) في الطبعات (ما عدا برشيه): "ولقد كان بلغ" ويسأل من يقرأ هذه القراءة بأي شيء نصبت "أمراً"؟
(١٩) برشيه: فشرقت.
(٢٠) زكريا بن يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال، كان فقيهاً نبيلاً في الفتيا وعقد الشروط، تصرف في القضاء ببطليوس وباجة أيام الناصر والمستنصر وتوفي سنة ٣٥٩ (ابن الفرضي ١: ١٧٨ وترتيب المدارك ٤: ٥٦١) واخته بريهة هي أم المنصور بن أبي عامر (الحلة السيراء ١: ٢٧٥).
(٢١) محمد بن يحيى بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال (أخو زكريا المتقدم ذكره والخال الثاني للمنصور) له رحلة إلى المشرق وسماع كثير، ولما عاد إلى الأندلس ولاه الناصر قضاء كورة رية، وتولى في صدر دولة المؤيد هشام قضاء كورة جيان وأحكام الشرطة فلما توفي ابن زرب (٣٨١) تولى قضاء الجماعة بقرطبة، وبقي حتى سنة ٣٩٢ وقد علت سنه وتفلت ذهنه، فعزل عن القضاء ونقل إلى الوزارة وتوفي ٣٩٤ (وعمره ست وتسعون سنة) (ابن الفرضي ٢: ١٠٧-١٠٩ والنباهي: ٨٤ وترتيب المدارك ٤: ٥٦٢).
(٢٢) في جميع الطبعات: وأخوه، والتصويب من عمل بروفنسال استناداً إلى الوقائع التاريخية (الأندلس: ٣٥٣).
(٢٣) كانت هذه الوقعة سنة ٣٧٠هـ بين المنصور وغالب بن عبد الرحمن (انظر البيان المغرب ٢: ٢٧٩)؛ وقد كان مروان بن أحمد بن شهيد من رجالات الدولة أيام الحكم، أرسله سنة ٣٦٣ إلى العسكر المقيم بالعدوة خازناً على أوقار الأموال التي وجبت للجند وغيرهم، وعاد في ذي الحجة من العام نفسه (المقتبس، ط. بيروت، ص: ١٦٨، ١٨٣) ولم أجد ذكراً ليوسف بن سعيد العكي؛ ولكن ابن الفرضي ترجم لمن اسمه سعيد بن مرشد العكي وجعل وفاته سنة ٣٧٣ (ابن الفرضي ١: ٢٠٤).
(٢٤) يحيى بن اسحاق الوزير - فيما ذكر ابن حزم نفسه - أديب فاضل غلب عليه الطب فبرع فيه وذكر به، وله في ذلك كتب نافعة يعتمد عليها (الجذوة: ٣٥١ والبغية رقم: ١٤٦) ولم أجد ذكراً لابنه محمد ولا لحفيده يحيى الذي يدور الخبر حوله وحول زوجه بنت ابن برطال.
(٢٥) برشيه: البهو...
(٢٦) التجليح: ركوب الرأس والمكاحة، (وقد مرّ: ١٤٩).
(٢٧) هذه هي قراءة برشيه؛ وفي سائر المطبوعات "وباش" ولا أدري ما معناه.
(٢٨) وادي: اسم فاعل من "ودى" بمعنى دافع الدية.

ـ٢١ـ
باب الهجر

ومن آفات الحب أيضاً الهجر، وهو على ضروب:

١ـ فأولها؛ هجر يوجبه تحفّظٌ من رقيب حاضر؛ وإنه لأحْلَى من كلِّ وصل. ولولا أن ظاهرَ اللفظ وحكمَ التَّسـميـة يوجبُ إدخالَهُ في هذا البـاب لرجعتُ[١] به عنه ولأجْللته عن تسطيره فيه. فحينئذ ترى الحبيبَ منحرفاً عن مُحبه، مقبلاً بالحديث على غيره، مُعْرِضاً كمعرِّض لئلا تلحق ظنته أو تسبق استرابته؛ وترى المحب أيضاً كذلك، ولكنَّ طبعه له جاذب، ونفسه له صارفة بالرغم، فتراه حينئذٍ منحرفاً كمُقبل، وساكتاً كناطق، وناظراً إلى جهةٍ نَفْسُهُ في غيرها؛ والحاذق الفطنُ إذا كشف بوهمه عن باطنِ حديثهما عَلِمَ أن الخافيَ غيرُ البادي، وما جَهَرَ به غيرُ نفس الخبر، وإنه لمن المشاهد الجالبة للفتن، والمناظر المحركة للسواكن، الباعثة للخواطر، والمهيجة للضمائر، الجاذبة للفتوة. ولي أبيات في شيء من هذا أوردتها، وإن كان فيها غير هذا المعنى على ما شرطنا، منها: (من الطويل)

يلومُ أبو العبـاسِ جـهـلاً بطبـعـه
كما عـيَّرَ الحوتُ النعـامَـة بالصـدى[٢]

ومنها:

وكم صـاحب أكـرمـتُـه غـيـرَ طائعٍ
ولا مُكـرَهٍ إلا لأمـرٍ تُعُـمِّـدا

ومـــا كـــان ذاك البـــرُّ إلا لغـــيــــره
كـمـا نصبـوا للطيـر بالحبِّ مـصـيـدا

وأقولُ من قصيدة محتويةٍ على ضروبٍ من الحِكَم وفنونٍ من الأداب الطبيعية:

(من الطويل)

وسَـــرّاءُ أحـــشـــائي لمنْ أنا مـــؤثرٌ
وسَـــرّاءُ أنبـــائي لمن أتحـــبـبُ
فـــقـــد يُشْـــرَبُ الصـــابُ الكريهُ لعلّةٍ
ويُتْـرَكُ صَـفْـوُ الشّـهْـدِ وهو مُـحَـبَّبُ
وأعْـذَلُ في إجـهـاد نفـسيَ في الذي
أُريدُ وأني فـــيـــه أشـــقى وأتعب
هـل الـلـؤلـؤُ المـكـنـونُ والدرُّ كـلـه
رأيتَ بغـيـر الغـوصِ في البـحـر يُطْلَبُ
وأصـرف نَفْـسي عن وجـوهِ طِبـاعِـهـا
إذا في سـواها صَحَّ مـا أنا أرغبُ
كـــمـــا نَسخَ الله الشـــرائعَ قـــبلنا
بما هو أدْنى للصّـــلاح وأقـــربُ
كـــمـــا صـــار لونُ الماء لونَ إنائه
وفي الأصلِ لونُ الماء أبيضُ مُـعْـجِبُ

ومنها:

أقـــمتُ ذَوي وُدّي مُـــقـــامَ طبـــائعي
حـــيـــاتي بهـــا والموتُ منهن يُرْهَبُ

ومنها:

ومـــا أنا ممن تَطَّبـــيـــهِ بشـــاشـــةٌ
ولا يقـتـضي مـا في ضـمـيـري التَجنبُ
أزيـد نِـفـــــاراً عـنـد ذلك بـاطـنـاً
وفي ظاهري أهلٌ وســـهـلٌ ومـــرْحبُ

فـإني رأيتُ الحـربَ يَعْلُو اشـتـعـالُهـا
ومـبـدؤها فـي أول الأمـر مَلعبُ
وللحـيّـةِ الرقـشـاءِ وَشْيٌ ولونُهـا
عـجـيبٌ وتحت الوشْيِ سِمٌّ مُـركّبُ
وإنّ فِـرنْدَ السـيفِ أعـجبُ منظراً
وفـيـه إذا هُزّ الحِـمـامُ المُذرّبُ
وأجـعلُ ذُلّ النفسِ عـزّةَ أهلهـا
إذا هي نالتْ مـا لهـا فـيـه مـرغبُ(٣)
فـقـد يضعُ الإنسـانُ في التـرب وَجْـهَـهُ
ليـأتي غـداً وهو المَصـونُ المقـرّبُ
فـذُلٌّ يسـوقُ العـزَّ أجـودُ للفـتى
من العـزِّ يَتلوه من الذُّل مَـركَبُ
وكم مـأكلٍ أربتْ عـواقبُ غـبِّـه(٤)
ورُبَّ طَوىً بالخِـصْب آتٍ ومُـعْـقِبُ
ومـا ذاقَ عِـزَّ النفس مَن لا يُذلّهـا
ولا التـذَّ طعمَ الرَّوحِ من ليس يَنصَبُ
وُرودك نغبَ(٥) الماء من بعـد ظَمـأةٍ
ألـذُّ من العَلّ المَكينِ وأعـذبُ

ومنها:

وفـي كـلِّ مَـخلوق تراه تفـاضـلٌ
فَـردْ طيِّـبـاً إن لم يُتَحْ لك أطيبُ
ولا ترْضَ وِرْدَ الرَّنقِ إلا ضـرورةً
إذا لم يكنْ في الأرض حـاشـاه مَشـربُ
ولا تقـربنْ مِلحَ الميـاه فـإنهـا
شَـجىً والصـدا بالحـرِّ أولى وأوجبُ

ومنها:

فـخـذ مِن جَـداها[٦] مـا تـيـسَّـرَ واقـتـنعْ
ولا تَكُ مـشـغـولاً بمن هو يَغْلبُ[٧]

فـمـا لك شـرْطٌ عندها لا ولا يَدٌ
ولا هـي إن حَـصَّـلْـتَ أُمٌّ ولا أبُ

ومنها:

ولا تـيـأسَنْ مما يُنالُ بـحـيـلة
وإن بَعُـدتْ فـالأمـرُ ينأى ويصـعُب

ولا تأمَنِ الإظلامَ فـالفـجـرُ طالعٌ
ولا تلتـبسْ بالضـوء فـالشـمسُ تغْـربُ

ومنها:

ألحَّ فـإن الماء يكْدَحُ في الصَّـفـا
إذا طال مـا يـأتي عليـه ويذهبُ

وكـثـر ولا تَفْـشَلْ وَقَلِّلْ كـثـيـرَ مـا
فَـعلْتَ فـمـاء المُزنِ[٨] جمٌّ وينضبُ

فلو يتـغـذى المرءُ بالسمّ قـاتَهُ
وقـام له منه غـذاءٌ مُـجـرَّبُ

٢ـ ثم هجر يوجبه التدللُ وهو ألذ من كثير الوصال، ولذلك لا يكون إلا عن ثقة كلِّ واحد من المتحابين بصاحبه، واستحكام البصيرة في صحَّة عقده، فحينئذ يُظهرَ المحبوبُ هجراناً ليرى صَبْرَ محبه، وذلك لئلا يصفو الدهر البتة، وليأسفَ المحبّ إن كان مُفرطَ العشق عند ذلك لا لما حلَّ، لكن مخافةَ أن يترقَّى إلى ما هو أجلَ فيكون ذلك الهجرُ سبباً إلى غيره، أو خوفاً من آفة حادث ملل.

ولقد عرض لي في الصبا هجرٌ مع بعضِ من كنت آلفُ، على هذه الصفة، وهو لا يلبث أن يضمحلَّ ثم يعود؛ فلما كثر ذلك قلتُ على سبيل المزاح شعراً بديهياً ختمتُ كلَّ بيت منه بقسيمٍ[٩] من أول قصيدة طرفة بن العبد المعلقة، وهي التي قرأناها مشروحةً على أبي سعيدٍ الفتى الجعفريّ عن أبي بكر المقرىء عن أبي جعفر النحاس[١٠]، رحمهم الله، في المسجد الجامع بقرطبة، وهي: (من الطويل)

تذكـــرتُ وُدّاً للحـــبـــيب كـــأنه
"لخـــولَةَ أطلالٌ ببـــرقـــةِ ثهـــمـــدِ"
وعـــهـــدي بعـــهـــدٍ كـــان لي منه ثابتٍ
"يلوح كـــبـــاقي الوشْم في ظاهر اليـــدِ"
وقـــفتُ بـه لا مُـــوقناً برجـــوعـــه
"ولا آيســـاً أبكي وأبكي إلى الغـــدِ"
إلى أن أطال الناس عَـــذْلي وأكـــثـــروا
"يقـــــولـون لا تَهـلِكْ أسىً وتجلَّـدِ"
كـــأن فنونَ السُّـــخْط ممن أحـــبـــه
"خَـــلايا سَـــفينٍ بالنواصفِ من دَدِ"
كـأن انقـلابَ الهـجـر والوصل مَـركبٌ
"يجـــورُ به الملأّحُ طَوراً ويهـــتـــدي"
فـــوقْتُ رضىً يتلوه وَقتُ تَســـخّط
"كـمـا قَـسم التُّـربَ المفـايلُ باليـدِ"
ويبـسـم نحـوي وهو غَـضـبـانُ مُـعْـرِضٌ
"مُـظاهر ســمطَيْ لُؤلؤٍ وزَبرجـــدِ"

٣ـ ثم هجرٌ يوجبه العتابُ لذنبٍ يقعُ من المحبّ، وهذا فيه بعضُ الشدة، لكنّ فرحةَ الرجعة وسرورَ الرضى يعدلُ ما مضى، فإنَّ لرضى المحبوب بعد سخطه لذةً في القلب لا تعدلها لذة، وموقعاً[١١] من الروح لا يفوقُهُ شيءٌ من أسباب الدنيا. وهل شاهد مشاهدٌ أو رأتْ عينٌ أو قام في فكر ألذُّ وأشهى من مقام قد قام عنه كلُّ رقيب، وبَعُد عنه كلُّ بغيضٍ، وغاب عنه كل واشٍ، واجتمع فيه مُحبّان قد تصارما لذنبٍ وَقع من المحبّ منهما، وطال ذلك قليلاً، وبدأ نقضُ الهجر، ولم يكن ثمَّ مانعٌ من الإطالة للحديث، فابتدأ المحبُّ في الاعتذار والخضوع والتذلُّلِ والادلاء[١٢] بحجته الواضحة[١٣] من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف، فطوراً يدلّ ببراءته، وطوراً يرد بالعفو[١٤] ويستدعي المغفرة ويقرُّ بالذنب ولا ذنب له، والمحبوبُ في كلِّ ذلك ناظرٌ إلى الأرضِ يُسارقُهُ اللحظَ الخفيّ، وربما أدامه فيه،ثم يبسم مخفياً لتبسمه، وذلك علامة الرضى، ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر، وتقبل القول، وامتحت ذنوبُ النقل، وذهبت آثارُ السخطِ، ووقع الجوابُ بنعم وذنبك مغفورٌ، لو كان، فكيف

ولا ذنب؛ وختما أمرهما بالوصل الممكن وسقوط العتاب والإسعاد، وتفرقا على هذا - هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكّنُ بتحديده الألسنة.

ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدتُ محاضرَ الملوك، فما رأيتُ هيبةً تعدلُ هيبةَ محبٍّ لمحبوبه؛ ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكُّمَ الوزراء، وانبساطَ مدبّري الدول، فما رأيت أشدَّ تبجّحاً ولا أعظمَ سروراً بما هو فيه من محبٍّ أيقنَ أن قلب محبوبه عنده ووثق بميله إليه وصحة مودته له؛ وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتّهمين بعظيم الذنوب مع المتمرّدين الطاغين، فما رأيتُ أذلَّ من موقفِ محبٍّ هَيمَان بين يدي محبوبٍ غضبان قد غمره السخطُ وغلبَ عليه الجفاء.

ولقد امتحنتُ الأمْرَين وكنتُ في الحالةِ الأولى أشدَّ من الحديد وأنفذ من السيف، لا أجيبُ إلى الدنيّة ولا أساعدُ على الخضوع، وفي الثانية أذلَّ من الرداء، وألينَ من القطن، أبادرُ إلى أقصى غاياتِ التذلل، وأغتنمُ فرصةَ الخضوعِ لو نجع، وأتحلل بلساني، وأغوصُ على دقائق المعاني ببياني، وأفتنُّ القول فنوناً، وأتصدّى لكلٍّ ما يوجب الترضّي.

والتجنّي بعضُ عوارضِ الهجران، وهو يقع في أول الحبِّ وآخره، فهو في أوله علامةٌ لصحّةِ المحبة، وفي آخره علامةٌ لفتورها وباب للسلو.

خبر:

وأذكر في مثل هذا أني كنتُ مجتازاً في بعض الأيام بقرطبة من مقبرة باب عامر في لمّةٍ من الطلاب وأصحاب الحديث، ونحن نريد مجلسَ الشيخِ أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري(١٥) بالرصافة(١٦) أستاذي رضي الله عنه، ومعنا أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي(١٧) من أهل سبتة، وكان شاعراً مفلقاً. وهو ينشد لنفسه في صفة متجنٍّ معهودٍ أبياتاً له، منها: (من الطويل)

سَريعٌ إلى ظَهرِ الطريق وإنه
إلى نَقْضِ أسبابِ المودّةِ أسرع
يطُولُ عَلينا أن نرقِّع وُدَّه
إذا كان في تَرقيعه يتقَطّع

فوافق إنشادُ البيت الأول من هذين البيتين خطورَ أبي (علي) الحسين بن علي الفاسي(١٨) رحمه الله تعالى وهو يؤمُّ أيضاً مجلسَ ابن أبي يزيد، فسمعه فتبسم

رحمه الله نحونا وطوانا ماشياً وهو يقول: بل إلى عَقْدِ المودّة إن شاء الله، هذا على جدِّ أبي (علي) الحسين رحمه الله وَفَضْلِهِ وتقرّبه وبراءته ونسكه وزهده وعلمه، فقلت في ذلك: (من الكامل)

دعْ عنكَ نقْضَ مودّتي متعمداً
واعقدْ حبالَ وصالِنا يا ظالمُ
ولترجعنَّ أردْته أولم تُردْ
كَرهاً لما قال الفقيهُ العالمُ

ويقع فيه الهجر والعتاب؛ ولعمري إن فيه إذا كان قليلاً للذةً، وأما إذا تفاقم فهو فأل غير محمود، وأمارة وبيئة المصدر، وعلامةُ سُوءٍ، وهي بجملةِ الأمر مطيّةُ الهجران، ورائدُ الصريمة، ونتيجةُ التجني، وعنوانُ الثقل، ورسولُ الانفصال، وداعيةُ القلى، ومقدّمةُ الصد، وإنما يُسْتَحْسَنُ إذا لَطُفَ وكان أصله الإشفاق؛ وفي ذلك أقول: (من الوافر)

لعلّك بعد عَتْبك أن تجودا
بما منه عتبتَ وأن تزيدا
فكم يومٍ رأينا فيه صحْواً
وأسْمعْنا بآخِرِهِ الرُّعودا
وعاد الصَّحوُ بعدُ كما علمنا
وأنت كذاك نرجو أن تعودا

وكان سببَ قولي هذه الأبيات عتابٌ وقع في يومٍ هذه صفته من أيام الربيع فقلتُها في ذلك الوقت.

وكان لي في بعض الزمن صديقان وكانا أخوين فغابا في سفر ثم قدما، وقد أصابني رَمَدٌ فتأخّرا عن عيادتي، فكتبت إليهما، والمخاطبة للأكبر منهما، شعراً منه: (من المتقارب)

وكنتُ أعَدِّد أيضاً على
أخيك بمُؤلمة السَّامع
ولكنْ إذا الدجْن غطّى ذُكاء
فما الظنُّ بالقَمَرِ الطالع

٤ـ ثم هجرٌ يُوجبه الوُشاةُ، وقد تقدَّم القولُ فيهم وفيما يتولد من دبيبِ عقاربهم، وربما كان سبباً للمقاطعة البتة.

٥ـ ثم هجر الملل، والملُ من الأخلاقِ المطبوعة في الإنسان، وأحرى لمن دُهي به ألا يصفوَ له صديقٌ، ولا يَصحَّ له إخاء، ولا يثبتَ على عهدٍ، ولا يصبرَ على إلفٍ ولا تطولَ مساعدته لُمحبّ، ولا يُعْتقَد منه ودٌّ ولا بغضة.وأولى الأمور بالناس ألاَّ يقرِّبوه منهم وأن يَفرُّوا عن صحبته ولقائه، فلن يَحْلوا[١٩] منه بطائل،ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المُحبّين وجعلناها في المحبوبين، فهم بالجملة أهل التجنّي والتظنّي والتعرض للمقاطعة؛ وأما من تزيّا باسم الحُب وهو مَلول فليس منهم، وحقُّهُ أن يبهرج مذاقَهُ[٢٠]، ويُنْفىَ عن أهل هذه الصفة ولا يدخل في جملتهم.

وما رأيت قط هذه الصفة أشدَّ تغلباً منها على أبي عامر محمد بن (أبي) عامر رحمه الله، فلو وصفَ لي واصفٌ بعضَ ما علمته منه لما صَدَّقْتُهُ. وأهلُ هذا الطبعِ أسرعُ الخلقِ محبةً، وأقلهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه، وبالضدّ؛ وانقلابهم عن الودِّ على قدر تسرعهم إليه؛ فلا تثقْ بملول ولا تشغلْ به نفسك، ولا تُعَنِّها[٢١] بالرجاء في وفائه. فإن دُفعتَ إلى محبته ضرورةً فعُدَّه ابن ساعته، واستأنفْهُ كلَّ حين من أحيانه بحسب ما تراه من تلونّه، وقابِلْهُ بما يشاكلُهُ.

ولقد كان أبو عامر المُحدَّثُ عنه يَرَى الجارية فلا يَصبرُ عنها، ويَحيقُ به من الاغتمام والهمِّ ما يكادُ أن يأتيَ عليه حتى يملكها، ولو حالَ دون ذلك شوكُ القتاد، فإذا أيقنَ بتصيُّرها إليه عادت المحبةُ نفاراً، وذلك الأنسُ شُروداً والقلقُ إليها قَلَقاً منها، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها، فيبيعها بأوكس الأثمان. هذا كان دأبَهُ حتى أتْلَفَ فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيماً. وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض؛ وأما حُسْنُ وجهه وكمالُ صورته فشيء تقف الحدودُ عنه وتكلُّ الأوهام عن وصف أقلّه ولا يتعاطى أحد وصفه. ولقد كانت الشوارع تخلو من السيّارة ويتعمَّدونَ الخُطورَ على باب داره في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجانب الشرقي بقُرطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة، وفي هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقةً لنا، لا لشيءٍ إلا للنظرة منه. ولقد مات من محبَّته جوارٍ كنَّ عَلَّقْنَ أوهامهن به، ووفين[٢٢] له فخانهن مما أملنه منه، فصرن رهائنَ البِلَىَ وقتلتهنّ الوحدة. وأنا أعرف جاريةً منهنّ كانت تسمى عفراء، عهدي بها لا

تتستر بمحبته حيثما جلست، ولا تجفُّ دموعها، وكانت قد تضيَّرَتْ من داره إلى البركات الخيَّال صاحب الفتيان(٢٣).

ولقد كانَ رحمه الله يُخبرني عن نفسه أنه يملُّ اسمه فضلاً عن غير ذلك. وأما إخوانه فإنه تبدَّلَ بهم في عُمره على قصَرِه مراراً، وكان لا يَثبُتُ على زيٍّ واحدٍ كأبي بَراقش(٢٤)، حيناً يَكونُ في ملابس المُلوك وحيناً في ملابس الفُتَّاك.

فيجب على من امتحن بمخالطة مَن هذه صفته على أي وجه كان ألا يستفرغَ عامَّةَ جهده في محبته، وأن يُقيم اليأس من دوامه حصناً(٢٥) لنفسه، فإذا لاحتْ له مخايلُ الملل قاطعه أياماً حتى يَنْشَطَ باله، ويبعد به عنه، ثم يُعاوده، فربما دامت المودَّة مع هذا؛ وفي ذلك أقول: (من المجتث)

لا تَرجـــونَّ مَلولاً ليس المَلُولُ بعُــدَّهْ
وُدّ المَلول فَـدَعْـهُ عـاريَّةٌ مُـسـتردَّهْ

٦ـ ومن الهَجر ضَربٌ يكون متوليه المحبّ، وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه والميل عنه إلى غيره، أو لثقيلٍ يلازمه؛ فيرى الموتَ وتَجرُّعَ غُصَص الأسى، والعضَّ على نقيفِ الحنظل أهونَ من رؤية ما يكره، فينقطعُ وكبده تتقطع؛ وفي ذلك أقول: (من السريع)

هَجـــرتُ من أهواهُ لا عن قِلىً
يا عجباً للعاشقِ الهاجرِ

لكنَّ عيني لم تُطِق نظرةً
إلى مُحيّا الرَّشأ الغادرِ

فالموتُ أحلى مَطْعَماً(٢٦) من هوىً
يُباحُ للواردِ والصادرِ

وفي الفؤادِ النارُ مُذكيّةٌ
فاعجبْ لصَبٍّ جزعٍ صابرِ

وقد أباحَ اللهُ في دينه
تقيّةَ المأسورِ للآسرِ

وقد أحلّ الكُفرَ خوفَ الردى
حتى ترى المؤمنَ كالكافرِ

خبر:

ومن عجيب ما يكون فيها وشنيعه أني أعرفُ مَنْ هام قلبه بمتناءٍ عنه نافرٍ منه، فقاسى الوجدَ زمناً طويلاً، ثم سَنحتْ لَه الأيام بسانحةٍ عجيبةٍ من الوصل أشرفَ منها على بلوغ أمله، فحين لم يكن بينه وبين غايةِ رجائه إلا كـ"لا" و"لا"[٢٧] عاد الهجرُ والبعدُ إلى أكثر مما كان قبل، فقلت في ذلك: (من السريع).

كانتْ إلى دهريَ لي حاجةٌ
مقرونةٌ في البعد بالمُشتري
فساقها باللطف حتى إذا
كانت من القُربِ على محجِري[٢٨]
أبْعَدها عني فعادتْ كأنْ
لم تَبْدُ للعينِ ولم تَظْهر

وقلت: (من الطويل)

دنَا أملي حتى مددتُ لأخذه
يَداً فانثنى نحو المجرَّةِ راحلا
فأصبحتُ لا أرجو وقد كنتُ موقناً
وأضحى مع الشِّعرى وقد كان حاصلا
وقد كنتُ محسوداً فأصبحتُ حاسداً
وقد كنتُ مأمولاً فأصبحتُ آملا
كذا الدهرُ في كرَّاتِه وانتقاله
فلا يأمنَنَّ الدهرَ مَنْ كان عاقلا

٧- ثم هَجْر القِلَى، وهنا ضلَّتِ الأساطين[٢٩] ونفدت الحيل وعَظُمَ البلاء، وهو الذي خلَّى العقولَ ذواهلَ، فمن دُهي بهذه الداهية فليتصدَّ لمحبوب محبوبه، وليتعمدْ ما يعرفُ أنه يستحسنه. ويجب أن يجتنب ما يدري أنه يكرهه، فربما عَطَفَهُ ذلك عليه إن كان المحبوبُ ممن يدري قَدْرَ المُوافقة والرغبة فيه، وأما من لم يعلم قَدْرَ هذا فلا طمعَ في استصرافه، بل حسناتك عنده ذنوب. فإن لم يقدرِ المرءُ على استصرافه فليتعمَّد السُّلوان وليحاسبْ نفسه بما هو فيه من البلاءِ والحرمان، وليسعَ في نَيل رغبته على أيِّ وجهٍ أمكنه. ولقد رأيت من هذه صفته، وفي ذلك أقول قطعة أولها: (من الطويل)

دُهيتُ بمن لو أدفعُ الموتَ دونه
لقال إذاً يا ليتني في المقابرِ

ومنها:

ولا ذَنْبَ لي إذ صرتُ أحدو ركائبي
إلى الوِرْدِ والدُّنيا تُسيء مَصادري
وماذا على الشمسِ المُنيرةِ بالضُّحى
إذا قَصُرَتْ عنها ضِعافُ البصائر

وأقول: (من مخلع البسيط)

ما أقبحَ الهجْرَ بعد وصْلٍ
وأحسنَ الوصلَ بعد هَجْرِ
كالوَفْرِ تَحْويهِ بعد فَقْرٍ
والفقْرِ يأتيكَ بعد وفرِ

وأقول: (من السريع)

معهودُ أخلاقكَ قسمان
والدهرُ فيكَ اليومَ صِنفانِ
فإنك النعمانُ فيما مضى
وكان للنعمان يومان
يومُ نعيمٍ فيه سَعْدُ الورى
ويومُ بأساءٍ وعدوان
فيومُ نعماكَ لغيري ويَو
مي منك ذو بُؤْسٍ وهجران
أليس حُبي لكَ مُستأهلاً
لأَنْ تجازيه بإحسان

وأقولُ قطعةً منها: (من الكامل)

يا مَن جميعُ الحُسنِ مُنتظمٌ
فيه كنظْمِ الدرِّ في العقْدِ
مابال حتْفي منكَ يَطْرُقُني
قصْداً ووجهك[٣٠] طالعُ السّعد

وأقول قصيدةً أولها: (من الطويل)

أساعةُ توديعيك[٣١] أم ساعةُ الحَشر
وليلةُ بَيْني منك أم ليلةُ النشر

وهجرُك تعْذيبُ الموحِّد ينقضي
ويرجو[٣٢] التلاقي أم عذابُ ذوي الكفر

ومنها:

سقى الله أياماً مَضَتْ ولياليا
تحاكي لنا النّيلوفَرَ الغضَّ في النشر

فأوراقُهُ الأيامُ حُسناً وبهجةً
وأوسطُهُ الليلُ المُقصَّرُ للعُمر

لهونا بها في غَمرةٍ وتآلفٍ
تمرُّ فلا ندْري وتأتي فلا ندْري

فأعْقَبَنا منه زمانٌ كأنه
ولاشكَ حُسنُ العقد أعقِبَ بالغدرِ

ومنها:

فلا تيأسي يا نفْسُ علَّ زمانَنا
يعُودُ بوجه مُقبل غير مزورِّ[٣٣]

كما صَرَف الرحمنُ مُلْكَ أُميَّةٍ
إليهم، ولوذي بالتجمُّلِ والصبر

وفي هذه القصيدة أمدحُ أبا بكر هشام بن محمد[٣٤] أخا أمير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى[٣٥] رحمه الله، فأقول:

أليس يحيط الرُّوح فينا بكلِّ ما
دَنا وتناءى وهو في حُجُب الصدر

كذا الدهرُ جسمٌ وهو في الدَّهر رُوحه
محيطٌ بما فيه وإن شئت فاستقر

ومنها:

إتاوتهم[٣٦] تُهْدَى إليه، ومنّة
تَقبُّلهاَ منهم يُقاومُ بالشُّكر

كــــذا كلّ نهـــــرٍ في البـــــلاد وإن طَمَتْ
غـــــزارتُهُ ينصبُّ في لُجَجِ البـــــحـــــر

الهوامش

(١) برشيه: لأرجأت.

(٢) الصدى: الظمأ، والعرب في أمثالها تقول أروى من حوت لأنه لا يفارق الماء وتقول أظمأ من حوت وأعطش من حوت يزعمون بلا بيّنة انه يعطش وهو في البحر، وفي الوقت نفسه يقولون: أروى من نعامة (لأنها مستغنية عن الماء)؛ انظر هذه الأمثال في الدرة الفاخرة.

(٣) هذه هي قراءة برشيه؛ وفي سائر الطبعات: مذهب.

(٤) يريد برشيه أن يقرأها: غُبّةٍ؛ وفي الطبعات الأخرى: غيه.

(٥) بتروف: يغلب؛ برشيه: بعض؛ وفي سائر الطبعات: نهل.

(٦) الصيرفي ومكي: جراها؛ ولا معنى له.

(٧) برشيه: يصلب.

(٨) يريد برشيه أن يقرأ: فما المزنّ (وهي قراءة غريبة جداً).

(٩) في جميع الطبعات: بقسم.

(١٠) هذا هو السند الذي نقلت به "المعلقات التسع" إلى الاندلسيين عن شارحها ابن النحاس؛ أخذها عنه أبو بكر محمد بن علي الأذفوي وعن الأذفوي أخذها أبو سعيد خلف مولى الحاجب جعفر، الفتى المقرىء المعروف بالجعفري؛ وهذا الفتى الجعفري سكن قرطبة، ثم رحل إلى المشرق فسمع بمكة، ولقي الأذفوي بمصر وأخذ عن علماء القيروان، وكان من أهل القرآن والعلم نبيلاً من أهل الفهم، مائلاً إلى الزهد والانقباض، خرج عن قرطبة في الفتنة وقصد طرطوشة وتوفي بها سنة ٤٢٥ وقيل ٤٢٩ (فهرسة ابن خير ٣٦٦ - ٣٦٩، وانظر ترجمته أيضاً في الصلة: ١٦٤) وأما أبو بكر الاذفوي (نسبة إلى أذفو - بالذال المعجمة، أو بالدال المهملة - بصعيد مصر) فقد كان نحوياً مفسراً مقرئاً ثقة، وكان يتجر بالخشب، وله كتاب التفسير في القرآن في مائة وعشرين مجلداً، وكانت وفاته بمصر سنة ٣٨٨ (غاية النهاية ٢: ١٩٨ وعبر الذهبي ٣: ٤١) قلت: وفي تسمية ابن خير لها "المعلقات التسع" تجوز لأن ابن النحاس أنكر التعليق جملة وسماها القصائد التسع.

(١١) الصيرفي ومكي والبيروتية: وموقفاً؛ وهو غير دقيق.

(١٢) هذه هي قراءة برشيه: وفي سائر الطبعات: والأدلة.

(١٣) الواضحة: لم ترد إلا عند برشيه.

(١٤) برشيه: يريد العفو.

(١٥) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي يزيد المصري: دخل الأندلس سنة ٣٩٤ وكان أديباً حافظاً للحديث وأسماء الرجال والأخبار، وسكن قرطبة حتى وقعت الفتنة فعاد إلى مصر وتوفي سنة ٤١٠ (الصلة: ٣٣٧).

(١٦) الرصافة: قرأها برشيه "الصواف" اعتماداً على أن هذه كانت صفة أبي القاسم المصري.

(١٧) عبد الرحمن بن سليمان البلوي أبو بكر كان أديباً شاعراً من أهل العلم (الجذوة: ٢٥٤ والبغية رقم: ١٠١٤).

(١٨) الحسين بن علي الفاسي أبو على، كان من أهل العلم والفضل مع العقيدة الخالصة والنية الجميلة، قضى عمره فى طلب العلم، ومازحه ابن حزم يوماً قائلاً: متى تنقضي قراءتك على الشيخ (يعنى عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي) فأجابه: إذا انقضى أجلي (انظر ترجمته في الجذوة: ١٨١، والبغية رقم: ٦٤٨ والصلة: ١٣٨ وسماه "الحسن").

(١٩) برشيه: يحظوا، والطبعات الأخرى: يظفروا، والصواب ما أثبته.

(٢٠) برشيه: أن يهجر مذاقه.

(٢١) برشيه: تعللها.

(٢٢) برشيه: وربين، وفي سائر الطبعات: ورثين.

(٢٣) يريد بروفنسال أن يقرأ: إلى أبي البركات الخيالي صاحب البنيان، ذلك لأنه يرى انه لم تكن هناك خطة تسمى "صاحب الفتيان" ويكون الخيالي نسبة إلى "خيال" زوج الحاجب عبد الملك المظفر (انظر الأندلس: ٣٥٢ وترجمة غومس: ٢٠٠ الحاشية؛ ومكى: ١٠٥).

(٢٤) أبو براقش ـ فيما قيل ـ طائر منقش بألوان النقوش يتلون في اليوم ألواناً ويضرب به المثل للمتلوّن (ثمار القلوب: ٢٤٧) ويبدو أن هذا هو مفهوم المشارقة فقد جاء في (Vocabulista) أنه يقابل (Stellio, drago) وأنه يرادف "حرباء" (انظره ص: ٥٩١ ونبه إليه بروفنسال في الأندلس: ٣٥٣).

(٢٥) بتروف والصيرفى ومكي: خصماً.

(٢٦) قرئت مطمعاً في بعض الطبعات، ومن حسن الظن أن يقال إنها خطأ مطبعي.

(٢٧) إلا كـ "لا" و"لا" دلالة على قصر الزمن، وهو تعبير مشهور، ورغم ذلك فقد أثبتت اللفظة في بعض الطبعات "كهؤلاء".

(٢٨) المحجر: العظم المحيط بالعين، أي قريبة جداً.

(٢٩) بتروف ومكي والصيرفي: الأساطير؛ ولعلّ معناها: ضلّت الأقاويل؛ أما الأشاطر عند برشيه فلا أدري لها توجيهاً، وكأنه فهمها بمعنى "الحذاق" أو "الشطار، فكذلك تنبيء ترجمته.

(٣٠) برشيه: ووجهي.

(٣١) بعض الطبعات: توديعك، ولا يستقيم بها الوزن.

(٣٢) برشيه: ويرجى، وهي قراءة جيدة.

(٣٣) جميع الطبعات؛ مدبر؛ وهذا لا يجوز في حكم التقفية، وابن حزم لا يمكن أن يجهل ذلك.

(٣٤) هشام بن محمد: لما قطع أهل قرطبة دعوة بني حمود سنة ٤١٧هـ أجمع رأيهم على ردّ الخلافة إلى الأمويين، فاتفقوا على تقديم هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر فبايعوه سنة ٤١٨ وتلقب المعتد بالله، فدخل قرطبة ٤٢٠ ولم يبق إلا يسيرا حتى قامت عليه فرقة من الجند، فخلع، وانقطعت الدولة الأموية واستولى على أمر قرطبة أبو الحزم بن جهور (الجذوة: ٢٦-٢٧ والبيان المغرب ٣: ١٤٥-١٤٨).

(٣٥) المرتضى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الناصر قام سنة ٤٠٧ بشرق الأندلس والتف حوله الموالي العامريون وغيرهم وزحفوا إلى قرطبة وأميرها القاسم بن حمود، وفي الطريق حاولوا الاستيلاء على غرناطة، وفيها زاوي بن زيري، فانهزم اتباع المرتضى وقتل هو (البيان المغرب: ٣، ١٢١، ١٢٥، ١٢٦).

(٣٦) فى معظم الطبعات: إتاوتها.

ـ٢٢ـ
باب الوفاء

ومن حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق في الحبِّ وغيره الوفاء؛ وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طيب الأصلِ وشَرف العنصر، وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات. وفي ذلك أقول قطعة منها: وهو (من البسيط).

أفـــعـــالُ كلِّ امـــرىء تنبي بعنصـــره
والـعـينُ تـغـنـيـك عـن أن تـطـلـبَ الأثـرا

ومنها:

وهل ترى قطُّ دِفْلَى أنبـــتتْ عنبـــاً
أو تَذْخـرُ النحلُ في أوكـارها الصَّـبِـراَ

١ـ وأولُ مراتب الوفاء أن يفيَ الإنسانُ لمن يفي له، وهذا فرضٌ لازم وحقٌ واجبٌ على المُحبِّ والمحبوب، لا يحولُ عنه إلاَ خبيثُ المحتد لا خَلاقَ له ولا خَيْرَ عنده. ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلامَ في أخلاق الإنسَان[١] وصفاته المطبوعة والمُتَطَبَّع بها، وما يزيد من المطبوع بالتطبع وما يضمحلُّ من التطبُّع بعدم الطبع، لَزدتُ في هذا المكان ما يجبُ أن يوضَع في مثله، ولكنا إنما قصدنا التكلم فيما رغبتَهُ من أمرِ الحبِّ فقط، وهذا أمر كان يطولُ جداً إذ الكلام فيه يتفنن كثيراً.

خبر:

ومن أرفع[٢] ما شاهدته من الوفاء في هذا المعنى وأهوله شأناً قصَّةً رأيتها عياناً، وهو أني أعرفُ مَنْ رضِيَ بقطيعة محبوبه وأعزِّ الناس عليه، ومن كان الموت عنده أحلى

من هجر ساعة في جَنب طَيِّه لسرٍّ أُودعَه، والتزم محبوبُهُ يميناً غليظةً ألا يكلّمه أبداً ولا يكون بينهما خبر أو يفضَح إليه ذلك السر؛ على أن صاحبَ ذلك السرِّ كان غائباً فأبى من ذلك وتمادى هُوَ على كتمانه والثاني على هجرانه إلى أن فَرَّقَتْ بينهما الأيام.

٢ـ ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر، وهي للمُحبِّ دون المحبوب، وليس للمحبوب ها هنا طريقٌ ولا يلزمه ذلك، وهي خُطة لا يُطيقها إلا جَلدٌ قويٌّ واسعُ الصدر حُرُّ النفس عظيم الحلْم جليلُ الصبر حَصيفُ العُقدة[٣] ماجدُ الخلق سالم النية.ومن قابَلَ الغدرَ بمثله فليس بمُستأهلٍ للملامة، ولكنَّ الحال التي قدّمنا تفوقها جداً وتفوقها بعداً. وغايةُ الوفاء في هذه الحال تركُ مكافأة الأذى بمثله، والكفُّ عن سيىء المقارضة بالفعل والقول، والتأني في جذّ[٤] حبل الصحبة ما أمكن ورُجّيت الألفةُ وطُمعَ في الرجعة ولاحت للعودة أدنى مَخيلة وشيمتْ منها أقلُّ بارقة، أو تُوُجِّسَ منها أيسر علامة. فإذا وقع اليأس واستحكم الغيظُ فحينئذ (لُذْ) بالسلامة ممن غرَّك،والأمن ممن ضرَّك، والنجاة ممن آذاك[٥]، وأن يكون ذكر ما سلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما وقع، فرَعْيُ الأذمَّة[٦] حقٌّ وكيدٌ على أهل العقول، والحنينُ إلى ما مضى وألا يُنْسَى ما قد فُرغَ منه وفَنيت مدته أثبتُ الدلائل على صحة الوفاء. وهذه الصفة حسنةٌ جداً وواجبُ استعمالها في كلِّ وجهٍ من وجوهِ معاملات الناسِ فيما بينهم على أيِّ حالٍ كانت.

خبر:

ولعهدي برجل من صَفوةِ إخواني قد عَلق بجارية فتأكد الود بينهما، ثم غَدَرَتْ بعهده ونقَضَتْ ودَّهُ وشاع خبرهما، فوَجد لذلك وجداً شديداً.

خبر:

وكان لي مرَّةً صديقٌ ففَسدت نيّتُهُ بعدَ وكيدِ مودة لا يُكْفَرُ[٧] بمثلها، وكان علم كلٌّ واحد منا سرَّ صاحبه وسَقطت المؤنة، فلما تغير عليَّ أفشى كلَّ ما اطلع لي عليه مما كنتُ اطّلعتُ منه على أضعافه، ثم اتصل به أن قوله فيَّ قد بلغني، فجزع لذلك وخشيَ أن أقارضَهُ على قبيح فَعْلَتهِ؛ وبلغني ذلك فكتبت إليه شعراً أؤنسه فيه وأعلمه أني لا أقارضه.

خبر:

ومما يدخلُ في هذا الدرج، وإن كان ليس منه، ولا هذا الفصل المتقدم من جنس

الرسالة والباب، ولكنه شبيهٌ له على ما قد ذكرنا وشرطنا، وذلك أن محمد بن وليد بن مكسير الكاتب كان مُتَّصلاً بي ومنقطعاً إليَّ أيامَ وزارة أبي رحمة الله عليه، فلما وقع بقرطبةَ ما وقع وتغيَّرت الأحوال خرج إلى بعض النواحي فاتصل بصاحبها فَعَرُضَ جاهُه وحدثت له وجاهةٌ وحالٌ حسنة. فحللت أنا تلك الناحية في بعض رحلتي فلم يُوَفِّني حقِّي بل ثَقُلَ عليه مكاني وأساء معاملتي وصُحبتي، وكلَّفته في خلال ذلك حاجةً لم يقم فيها ولا قَعد، واشتغل عنها بما ليس في مثله شغل، فكتبت إليه شعراً أعاتبه فيه، فجاوبني مستعتباً على ذلك، فما كلَّفْتُهُ حاجةً بعدها. ومما لي في هذا المعنى وليس من جنس الباب ولكنه يشبهه أبياتٌ قلتها، منها: (من البسيط).

وليس يُحمد كتمانٌ لُمكتتم
لكنَّ كَتْمَكَ ما أفشاه مُفْشيه

كالجُود بالوَفْر أسنى ما يكونُ إذا
قَلَّ الوُجودُ له أو ضَنَّ مُعْطيه

٣- ثم مرتبةٌ ثالثة وهي الوفاء مع اليأس الباتِّ وبعد حلول المنايا وفجاءات المنون، وإن الوفاء في هذه الحالةِ لأجلُّ وأحسن منه في الحياةِ ومع رجاء اللقاء.

خبر:

ولقد حدَّثتني امرأة أثقُ بها أنها رأتْ في دار محمد بن وهب المعروف بابن الركيزة[٨] من ولد بدرٍ[٩]، الداخل مع الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضي الله عنه، جاريةً رائعةً جميلةً كان لها مولى فجاءته المنية فبيعت في تركته، فأبتْ أن ترضَى بالرجال بعده، وما جامعها رجلٌ إلى أن لقيتْ الله عز وجل؛ وكانت تُحسنُ الغناء فأنكرتْ علمَها به، ورضيتْ بالخدمة والخروج عن جملة المتّخذات للنسل واللذة والحال الحسنة وفاءً منها لمن دثَر ووارتْه الأرض وتلمأت عليه الصفائح، ولقد رامها سيدها المذكورُ أن يضمَّها إلى فراشه مع سائر جواريه ويُخْرِجَها مما هي فيه فأبت، فضربها غيرَ مرةٍ وأوقع بها الأدب، فصبرت على ذلك كله، فأقامت على امتناعها؛ وإن هذا من الوفاء غريب جداً.

واعلم أن الوفاء على المحبِّ أوجبُ منه على المحبوب وشرطُهُ له ألزم، لأن المحبَّ هو البادي باللصوق والتعرُّضِ لعقد الأذمة، والقاصدُ لتأكيد المودة والمستدعي صحةَ العشرة، والأولُ في عدادِ طالبي الأصفياء[١٠]، والسابقُ في ابتغاء اللذة باكتساب

الخلة، والمقيَّدُ نفسه بزمام المحبة - قد عقلها بأوثقِ عقال وخطمها بأشدِّ خطام، فمن قسره على هذا كله إن لم يرد إتمامه؟ ومن أجبره على استجلاب المقة إن لم ينْو خَتمها بالوفاء لمن أراده عليها؟ والمحبوبُ إنما هو مجلوبٌ إليه ومقصودٌ نحوه ومُخَيَّرٌ في القبول أو الترك، فإن قبل فغايةُ الرجاء، وإن أبى فغيرُ مستحقٍّ للذمّ. وليس التعرض للوصل والإلحاحُ فيه والتأتي لكل ما يُستجلب به من الموافقة وتصفية الحضرة والمغيب، من الوفاء في شيء، فحظٌّ نفسه أراد الطالب، وفي سروره سعى وله احتطب، والحبُّ يدعوه ويَحدوه على ذلك شاء أو أبى، وإنما يُحمد الوفاء ممن يَقْدرُ على تركه.

وللوفاء شروطٌ على المحبين لازمةٌ: فأولها أن يحفظ عهدَ محبوبه ويرعى غَيْبَتَهُ، وتستوي[١١] علانيته وسريرته، ويطوي شرَّهُ وينشر خيره، ويغطي على عيوبه ويحسِّن أفعاله، ويتغافل عمّا يقع منه على سبيل الهفوة ويرضى بما حَمَّلَهُ ولا يكثر عليه بما ينفر منه، وألا يكونَ طُلعةً دَبوباً ولا مَلّةً طَرفا[١٢]. وعلى المحبوب إن ساواه في المحبة مثلُ ذلك، وإن كان دونه فيها فليس للمحبِّ أن يكلِّفه الصعود إلى مرتبته ولا له الاشتطاط عليه بأن يسومَهُ الاستواء معه في درجته. وبحسبه منه حينئذٍ كتمانُ خَبَره وألا يقابله بما يكره ولا يخيفه به، وإن كانت الثالثة - وهي السلامة مما يلقى بالجملة - فليقنعْ بما وجد، وليأخذْ من الأمر ما استدف[١٣] ولا يطلبِ شرطاً ولا يقترح عَقْداً[١٤]، وإنما له ما سنح بجدِّه أو ما حان بكدِّه.

واعلم أنه لا يَستبينُ قبحُ الفعلِ لأهله، ولذلك يتضاعفُ قبحه عند من ليس من ذويه، ولا أقول قولي هذا مُمتدحاً ولكن آخذاً بأدب الله عز وجل {وأمَّا بنعمة ربِّك فَحدِّث} (الضحى: ١١): لقد منحني الله عزَّ وجلّ من الوفاء لكُلِّ من يَمُتُّ إليَّ بلقية واحدة، ووهبني من المحافظة لمن يتذمَّمُ مني ولو بمحادثته ساعةً حظّاً أنا له شاكرٌ وحامدٌ، ومنه مُستمدٌّ ومستزيد، وما شيء أثقل عليٌّ من الغدر؛ ولعمري ما سَمَحَتْ نفسي قطٌّ في الفكرة في إضرار مَن بيني وبينه أقلُّ ذمام، وإن عظمتْ جريرتُه وكثرتْ إليَّ ذنوبه، ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جَزَيْتُ على السُّوءِ إلا بالحسنى، والحمدُ لله على ذلك كثيراً. وبالوفاء أفتخرُ في كلمة طويلة ذكرتُ فيها ما مَضَّنا من النكبات، ودهمنا من الحَلِّ والترحالِ والتجوُّلِ في الآفاق، أولها[١٥]: (من البسيط).

ولّى فولّى جميلُ الصبرِ يَتبعه
وصَرَّح الدمعُ ما تخفيه أضلعهُ

جِـسْمٌ مَلولٌ وقلبٌ آلفٌ فإذا
حلَّ الفراقُ عليه فهو مُوجِعُه
لم تستقرَّ به دارٌ ولا وطَنٌ
ولاَ تَدفَّأ منه قطٌّ مَضْجَعُهُ
كأنما صِيغَ من رَهو السحاب فما
تَزالُ ريحٌ إلى الآفاق تدْفَعُه
كأنما هو تَوْحيدٌ تَضيقُ به
نفس الكفور فتأبى حين تُودَعُهُ
أو كوكبٌ قاطعٌ في الأفْقِ منتقلٌ
فالسيرُ يُغْرِبُهُ حيناً ويُطلعه
أظنُّه لو جَزَتْه أو تساعده
ألقت عليه انهمال الدمع يَتْبعُه[١٦]

وبالوفاء أيضاً أفتخرُ في قصيدةٍ لي طويلةٍ أوردتها، وإن كان أكثرها ليس من جنس الكتاب، فكان سببَ قولي لها أنّ قوماً من مخالفيَّ شرقوا بي فأساءوا العتبَ في وجهي وقذفوني بأني أعضدُ الباطل بحجتي، عجزاً منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحقّ وأهله، وحسداً لي، فقلت وخاطبت بقصيدتي بعضَ إخواني وكان ذا فهم، منها: (من الطَويل).

وخُذني عصا موسى وهات جميعهم
ولو أنهم حَياتُ ضَالٍ نَضانِضُ

ومنها:

يذيعون في عيبي عجائبَ جَمَّةً
وقد يتمنى[١٧] الليثُ والليثُ رابضُ

ومنها:

ويَرجون ما لا يبلغون كمثلِ ما
يُرجِّي مُحالاً في الإمامِ الرَّوافضُ

ومنها:

ولو جَلَدي في كلِّ قلب ومُهجةٍ
لما أثَّرَتْ فيها العيونُ المرائض

أَبَت عن دَنيٍّ الوصف ضَربةَ لازبٍ
كما أبتِ الفعلَ الحروفُ الخوافض

ومنها:

ورأيي له في كلِّ ما غابَ مَسْلَكٌ
كما تسلُكُ الجسمَ العروقُ النوابضُ
يَبينُ مَدَبُّ النملِ في غيرِ مُشكلٍ
ويُسْتَرُ عنهم للفيولِ المَرابضُ(١٨)

الهوامش

(١) بتروف: النساء.

(٢) برشيه: أشنع.

(٣) برشيه والصيرفي ومكي: العقل.

(٤) بعض الطبعات: جرّ.

(٥) بتروف. حينئذ والسلامة من غرك والأمن من ضرك والنجاة من آذاك؛ وتابعه على ذلك الصيرفي ومكي؛ والنص مضطرب، والتصويب عن برشيه.

(٦) برشيه: الذمة.

(٧) برشيه: يفكر.

(٨) برشيه: بأبي ركيزة؛ ولا أدري على أي شيء اعتمد في هذا التغيير.

(٩) أخبار بدر مولى عبد الرحمن الداخل وجهوده في خدمته لاقامة الدولة في الاندلس، تراجع في نفح الطيب ٣: ٢٧ـ ٣١

(١٠) بتروف: طالب الأصفياء.

(١١) برشيه: ويستر.

(١٢) بتروف: طُلَعَةُ ثؤوباً ولا ملة طروقاً؛ وتابعه عليذلك الصيرفي ومكي والطبعة البيروتية؛ وليس "ثؤوباً" أو "طروقاً" مما يفيد معنى؛ وعلى حسب توجيهي للقراءة، فالطلعة هو الشديد التبحث عن حال الآخرين، والدبوب النمام، والملة السريع الملال ومثله الطرف كذلك؛ وقرأ برشيه: وألا يكون طله شؤبوباً وظله غروباً، وفي هذا تعسف واضح.

(١٣) دف الأمر واستدف: تهيأ وأمكن، ومثله: استطف، يقال خذ ما استدف لك أو خذ ما طف لك وأطف واستطف أي ما دنا وأمكن.

(١٤) بتروف: حقداً؛ وصوبت في بعض الطبعات: حقاً؛ وما هنا أقرب إلى رسم الكلمة في الأصل.

(١٥) يبدو أن ابن حزم كان معجباً بقصيدة ابن زريق البغدادي، فهو يعارضها هنا، كما عارضها بقصيدة أخرى أثبتها في كتابي: تاريخ الأدب الاندلسي ـ عصر سيادة قرطبة (ط. ثانية): ٣٨٥ـ٣٨٧ .

(١٦) هذا البيت غريب الصلة بما قبله؛ وأظنه مضطرباً في تركيبه (أعني ان الشطر الأول قد جمع إلى شطر من بيت آخر).

(١٧) قرأها برشيه: وقد يستهان.

(١٨) يريد أن نفاذ رأيه وبصيرته يمكنه من رؤية مدب النمل في سهولة ويسر، أما خصومه الأغبياء فإنهم يعجزون عن رؤية الفيول في مرابضها على ضخامة حجمها.

٢٣.
باب الغدر

وكما أنَّ الوفاء من سَرِيِّ النعوت ونبيل الصفات، فكذلك الغدرُ من ذَميمها ومكروهها، وإنما يُسمَّى غدراً من البادىء به، وأما المُقارض بالغدر على مثله - وإن استوى معه في حقيقة الفعل - فليس بغدر ولا هو مَعيباً بذلك، والله عز وجل يقول: {وجَزاء سيِّئة سيئةٌ مثلُها} (الشورى: ٤٠) وقد علمنا أنَّ الثانيةَ ليست بسيِّئة، ولكن لما جانست الأولى في الشبه أُوقِعَ عليها مثلُ اسمها، وسيأتي هذا مفسراً في باب السلو إن شاء الله. ولكثرة وجود الغدر في المحبوب استُغرب الوفاء منه، فصار قليله الواقع منهم يُقاوم الكثيرَ الموجود في سواهم. وفي ذلك أقول: (من الوافر).

قليلُ وَفاء من يُهْوَى يَجِلُّ
وعُظْمُ وفاء من يَهْوَى يَقِلُّ
فنادرةُ الجَبانِ أجلُّ مما
يَجيء به الشجاعُ المشمعلُّ

ومن قبيح الغدر أن يكون للمُحبِّ سفيرٌ إلى محبوبه يستريحُ إليه بأسراره فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ويستأثر به دونه؛ وفيه أقول: (من الطويل)

أقمت سفيراً قاصداً في مَطالبي
وثقتُ به جهلاً فَضرَّب بيننا
وحَلَّ عُرى وُدِّي وأثبتَ وُدَّه
وأبعد عنِّي كلّ ما كان مُمكنا

فصرت شهيداً بعدما كنتُ مُشهدا
وأصبح[1] ضيفاً بعدما كان ضيفنا

خبر:

ولقد حدَّثني القاضي يونس بن عبد الله[2] قال: أذكر في الصبا جاريةً في بعض السُّدَد يهواها فتى من أهل الأدب من أبناء الملوك وتهواه ويتراسلان، وكان السفيرُ بينهما والرسول بكتبهما فتى من أترابه كان يصل إليها، فلما عُرضت الجاريةُ للبيع أراد الذي كان يحبها ابتياعها، فبدر الذي كان رسولاً فاشتراها. فدخل عليها يوماً فوجدها قد فَتَحَتْ درجاً لها تطلبُ فيه بعضَ حوائجها، فأتى إليها وجعل يفتش الدَّرج، فخرج إليه كتابٌ من ذلك الفتى الذي كان يهواها مضمَّخاً بالغالية مصوناً مُكرَّماً، فغضب وقال: من أين هذا يا فاسقة؟ قالت: أنت سُقْتَه إليَّ، فقال: لعلَّه مُحدَثٌ بعد ذلك الحين. فقالت: ما هو إلا من قديم تلك التي تعرف؛ قال: فكأنما ألقمته حجراً، فسُقط في يديه وسكت.

الهوامش

(١) في جميع الطبعات: وأصبحت؛ والمعنى يأباها؛ هو يقول بعد ما تغير السفير فأحبَّ من كنت أحب، أصبحت أنا شهيداً على ما يصنع بعدما كنت مشهداً له؛ أما هو فانتقلت حاله فبعدما كان ضَيْفَناً (أي ضيف ضيفٍ) اعتلت به الحال فأصبح ضيفاً. (قلت: والضيفن مذموم لأنه قريب الشبه من الطفيلي).

(٢) يونس بن عبد الله بن مغيث أبو الوليد المعروف بابن الصفار: كان قاضي الجماعة بقرطبة، ومن أعيان أهل العلم يميل إلى الزهد وله فيه مصنفات وأشعار وعنه يروي ابن حزم وابن عبد البر وأبو الوليد الباجي، توفي سنة ٤٢٩ (انظر ترجمة له مطولة نسبياً في الصلة: ٦٤٦ وراجع الجذوة: ٣٦٢ والبغية رقم: ١٤٩٨ وترتيب المدارك ٤: ٧٣٩).

ـ٢٤ـ
باب البين

وقد علمنا أنه لابدَّ لكلِّ مُجتمعٍ من افتراق، ولكلِّ دانٍ من تناء، وتلك عادةُ الله في العباد والبلاد حتى يرثَ الله الأرضَ ومن عليها وهو خيرُ الوارثين. وما شيءٌ من دواهي الدنيا يَعدلُ الافتراق، ولو سالت الأرواح به فضلاً عن الدموع كان قليلاً. وسمع بعضُ الحكماء قائلاً يقول: الفراقُ أخو الموت، فقال: بل الموت أخو الفراق(١).

والبين ينقسم أقساماً:

١ـ فأولها مُدةٌ يوقَنُ بانصرامها وبالعودة عن قريب، وإنه لشَجىً في القلب، وغُصَّة في الحلق لا تبرأ إلا بالرَّجعَة. وأنا أعلمُ من كان يَغيبُ من يُحبّ عن بصره يوماً واحداً فيعتريه من الهَلَعِ والجزَعِ وشُغلِ البالِ وترادُفِ الكُرَب ما يكادُ يأتي عليه.

٢ـ ثم بَيْنُ مَنْعٍ من اللقاء وتَحظيرٍ على المحبوب من أن يراه مُحبه، فهذا ـ ولو كان من تحبه معك في دار واحدة ـ فهو بَيْنٌ، لأنه بائنٌ عنك، وإن هذا ليولِّدُ من الحزنِ والأسفِ غيرَ قليل، ولقد جرَّبناه فكان مُراً، وفي ذلك أقول: (من الطويل).

أرى دارَها في كلِّ حينٍ وساعةٍ
ولكنَّ مَن في الدار عني مُغيَّبُ
وهل نافعي قربُ الدِّيار، وأهلُها
على وصْلِهم مني رقيبٌ مُرَقِّبُ

فـيـا لك جـارَ الجَنب أسـمعُ حسّـه
وأعلـم أنَ الصّين أدنى وأقـرب

كـصـادٍ يَرى مـاء الطَويِّ بعـينه
وليس إليـه من سـبـيـلٍ يُسَـجَّبُ

كـذلك مَن في اللحـد عنك مُـغَـيَّبٌ
ومـا دونه إلا الصَّـفـيحُ المُنصَّبُ

وأقول من قصيدة مُطوَّلة: (من الطويل).

مـتى تشـتـفي نفسٌ أضَـرَّ بهـا الوجْـدُ
وتَصْـقَبُ دارٌ قـد طوى أهلَهـا البـعـدُ

وعـهـدي بهنْدٍ وهي جـارةُ بَيـتنا
وأقـربُ من هنْدٍ لطالبـهـا الهنْدُ

بلى إنَّ في قـرب الديار لراحـةً
كـمـا يُمـسكُ[٢] الظمـآنَ أن يدْنُوَ الورْدُ

٣ـ ثم بَيْنٌ يتعمَّده المحبُّ بعداً عن قول الوشاة، وخوفاً أن يكونَ بقاؤه سبباً إلى منع اللقاء، وذريعةً إلى أن يفشو الكلام فيقعَ الحجاب الغليظ.

٤ـ ثم بَيْنٌ يولِّده المُحبُّ لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان، وعُذرُهُ مقبولٌ أو مُطَّرَحٌ على قَدْرِ الحافزِ له إلى الرحيل.

خبر:

ولعهدي بصديق لي دارُهُ المرية، فَعَنَّتْ له حوائجُ إلى شاطبة فقصدها، وكان نازلاً بها في منزلي مدة إقامته بها، وكان له بالمريَّة علاقة هي أكبرُ همّه وأدهى غمه، وكان يؤمِّل تبتيته وفراغَ أسبابه وأن يوشك الرُّجعة ويسرع الأوبة، فلم يكنْ إلا حينٌ لطيفٌ بعد احتلاله عندي حتى جَيَّش المَوفَّق أبو الجيش مجاهد صاحب الجزائر[٣] الجيوش وقرَّب العساكرَ ونابذ خيرانَ صاحبَ المريَّة[٤] وعزم على استئصاله، فانقطعت الطرقُ بسبب هذه الحرب، وتُحوميت السُّبُلُ واحْتُرسَ البحرُ بالأساطيل، فتضاعف كَرْبُه إذ لم يجد إلى الانصراف سبيلاً البتة، وكاد يُطفأُ أسفاً، وصار لا يأنسُ بغير الوحدة، ولا يلجأُ إلا إلى الزفير والوجوم، ولعمري لقد كان ممن لم أقدِّرْ قط فيه أنَّ قلبه يُذْعِنُ للودِّ، ولا شراسةَ طبعه تجيبُ إلى الهوى.

وأذكر أني دخلت قرطبةَ بعد رحيلي عنها ثم خرجت منصرفاً عنها فضمَّني الطريقُ مع رجلٍ من الكتَّاب قد رَحل لأمرٍ مهمّ وتخلف سَكَنٌ له[5]، فكان يَرمَض لذلك.

وإني لأعلمُ من عَلق بهوىً له وكان في حال شَظَف، وكانت له في الأرض مذاهب واسعةٌ ومناديح رَحْبة ووجوهُ مُتَصَرَّفٍ كثيرةٌ، فهان عليه ذلك وآثر الإقامة مع من يحب؛ وفي ذلك أقول شعراً منه: (من الكامل).

لك في البـــلاد مَنادحٌ مَـــعلومـــةٌ

والســـيفُ غُـــفْلٌ أو يَبينَ قِـــرابهُ

٥- ثم بَينُ رحيلٍ وتباعد ديار، ولا يكون من الأوبة فيه على يقينِ خَبرٍ، ولا يحدُث تلاقٍ، وهو الخطبُ الموجعُ، والهمُّ المُفظع، والحادث الأشنع، والداء الدويُّ. وأكثرُ ما يكونُ الهلعُ فيه إذا كان النائي هو المحبوب؛ وهو الذي قالت فيه الشعراء كثيراً؛ وفي ذلك أقول قصيدة منها[6]: (من الطويل).

وبي[7] عِلَّةٌ أعيـا الطبيـبَ عـلاجُـهـا

ستـــوردني لا شكَّ مَنهلَ مَـــصـــرعي

رضـــيتُ بأن أُضـــحي قـــتـــيلَ وداده

كـجـارع سمٍّ في رَحـيقٍ مُـشـعـشـع

فـمـا لليـالي مـا أقَلَّ حَـيـاءَها

وأولَعـهـا بالنفس من كلِّ مُـولع

كـأنَّ زمـاني عَـبـشـميٌّ يخـالني

أعنتُ على عُـثـمـان أهلَ التـشـيُّع

وأقول من قصيدة: (من الطويل)

أظنُّك تِمـثـالَ الجنانِ أباحـه

لمُجـتـهـد النسّـاكِ من أوليـائِهِ

وأقول من قصيدة: (من الطويل).

لأَبْرُدَ باللقـيـا غليـلاً من الهـوى

تَوَقُّـد[8] نيـرانِ الغـضـا هَيـمـانُهُ

وأقول شعراً منه: (من الطويل).

خَـفـيتُ عن الأبصـار والوجـدُ ظاهرٌ

فـأعْـجِبْ بأعـراضٍ تبينُ ولا شَـخْصُ

غَـــدا الـفلكُ الـدَّوار حَلْقـــةَ خـــاتم
مُـــحـــيطٍ بما فـــيـــه وأنت له فَصُّ

وأقول من قصيدة: (من الطويل)

غَنيتَ عن التـشـبـيـه حُـسناً وبَهـجـةً
كـمـا غَنيتْ شـمسُ السـمـاء عن الحَلْيِ
عـجـبتُ لنفـسي بعـده كـيف لم تُمت
وهجْـرانُه دَفني وفـقـدانه نَعْـيي
وللجَـسـدِ الغضِّ المُنعَّم كـيف لم
تُذبْهُ يدُ خـشناءُ (تقـوى على) البـري

وإن للأوبة من البين الذي تُشْفِقُ منه النفسُ لطول مسافته وتكاد تيأسُ من العودة فيه،، لروعةً تبلغُ ما لا حدَّ وراءه، وربما قتلت؛ وفي ذلك أقول: (من الخفيف).

للتـــلاقي بعـــد الـفـــراق ســـرورٌ
كـــسُـــرورِ المُفـــيق حـــانتْ وفـــاتُهْ
فـــرحَـــةٌ تُبـــهجُ النفـــوسَ وتحـــيي
مَـن دنـا مـنـه بـالـفـــــراقِ مماتـه
ربما قـــــد تـكـونُ داهيــــــةَ المو
ت وتـودي بـأهـلـه هَجَـــــمـــــاتـه
كـم رأينـا مـن عَـبٍّ فـي المـاءَ عَـطشـــا
نَ فـــزار الحـــمـــامَ وهو حـــيـــاتـه

وإني لأعلمُ مَن نأتْ دارُ محبوبه زمناً ثم تيسَّرَتْ له أوبةٌ، فلم يكن إلا بقدْر التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية، فكاد أن يهلك؛ وفي ذلك أقول: (من الطويل).

أطلتَ زمـانَ البـعـد حـتى إذا انقـضى
زمـانُ النوى بالقـرب عُـدتَ إلى البـعـدِ
فـلم يـكُ إلا كـــرَّةَ الطَّرف قُـــربُكُمْ
وعـــاودكم بعـــدي وعَـــاودني وَجـــدي
كـــذا حـــائرٌ في الليل ضـــاقتْ وجـوهُه
رأى البـرقَ في داجٍ من الليل مُـســـودٍّ

فـــأُخْلِفَـــهُ منه رجـــاءُ دوامـــه
ويـعضُ الأراجي لا تفـــيـــدُ ولا تجـــدي

وفي الأوبة بعد الفراق أقول قطعة منها: (من الطويل).

لقـــد قـــرت العـــينان بالقُـــرب منكُمُ
كَـــمـــا سَـــخِنَتْ أيامَ يطويكمُ البـــعـــدُ
فلله فـــيـــمـــا قـــد مـــضى الصـــبرُ والرِّضى
ولله فـــيـــمـــا قـــد قـــضى الشكرُ والحـــمـــدُ

خبر:

ولقد نُعيَ إليَّ بعضُ من كنتُ أحبُّ من بلدةٍ نازحة، فقمتُ فاراً بنفسي نحو المقابر، وجعلتُ أمشي بينها وأقول: (من الوافر).

وددْتُ بـأنّ ظـهـــــــــرَ الأرض بطـنٌ
وأن البطنَ منهـــا صـــار ظـهـــرا
وأنـي متُّ قـــــــبـــل ورُود خَطبٍ
أتى فـــأثار في الأكـــبـــاد جـــمـــرا
وأن دمي لمن قـــــد بـان غـــــسْلٌ
وأنَّ ضُلوعَ صـــدري كنَّ قـــبـــرا

ثم اتصل بعد حين تكذيبُ ذلك الخبر فقلت: (من السريع).

بُشـــرى أتتْ واليـــأسُ مُـــســتـــحكمُ
والقـلبُ في سَـــبْعٍ طِبـــاقٍ شِـــدادْ
كَـــسَتْ فـــؤادي خُـــضـــرةً بعـــدمـــا
كـــان فـــؤادي لابســـاً للحِـــداد
جَـلّى ســـوادَ الغمّ عنّي كـــمـــا
يُجلَى بلونِ الشـــمس لونُ الســـواد
هذا ومـــا آملُ وصـــلاً ســـوى
صـــدقِ وفـــاء بقـــديم الوداد
فـــالمُزنُ قـــد يُطلب لا للحـــيـــا
لـكنْ لظلٍّ باردٍ ذي امـــتـــداد

ويقع في هذين الصنفين من البين الوداعُ، أعني رحيلَ المحب أو رحيلَ المحبوب. وإنه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التي تُفْتَضَحُ فيها عزيمةُ كلِّ ماضي العزائم، وتذهب قوةُ كلِّ ذي بصيرة، وتسكبُ كلُّ عينٍ جمود، ويظهرُ مكنونُ الجوى. وهو فصلٌ من فصول البَين يجبُ التكلم فيه، كالعتاب في باب الهجر. ولعمري لو أن ظريفاً يموت في ساعة الوداع لكان معذوراً إذا تفكر فيما يحلُّ به بعد ساعة من انقطاع الآمال، وحلول الأوجال، وتبدُّل السرور بالحزن. وإنها ساعةٌ تُرقُّ القلوبَ القاسيةَ، وتُلينُ الأفئدةَ الغلاظ. وإن حركة الرأس وإدمانَ النظر والزفرةَ بعد الوداع لهاتكةُ حجابَ القلب، ومُوصلةٌ إليه من الجزع بمقدار ما تفعل حركةُ الوجه في ضدٍّ هذا والإشارةُ بالعينِ والتبسُّمُ في مواطن(٩) الموافقة.

والوداع ينقسم قسمين، أحدهما لا يتمكن فيه إلا بالنظر والإشارة والثاني يتمكن فيه بالعناق والملازمة، وربما لعله كان لا يمكن قبل ذلك البتة مع تجاور المحالِّ وإمكانِ التلاقي، ولهذا تمنّى بعضُ الشعراء البينَ ومدحَوا يومَ النوى، وما ذاك بِحَسَنٍ ولا بصواب ولا بالأصيلِ من الرأي، فما يفي سرورُ ساعةٍ بحزنِ ساعات، فكيف إذا كان البين أياماً وشهوراً وربما أعواماً وهذا سوءٌ من النظرِ ومعْوَجٌّ من القياس، وإنما أثنيتُ على النّوى في شعري تمنياً لرجوع يومها، فيكونَ في كلِّ يومٍ لقاءٌ ووداع، على أن تحتمل مضض هذا الاسم الكريه، وذلك عندما يمضي من الأيام التي لا التقاء فيها فحينئذ يرغب المحب من يوم الفراق لو أمكنه في كلِّ يوم؛ وفي النصف الأول من الوداعِ أقول شعراً منه: (من البسيط).

تنوبُ عن بهجةِ الأنوارِ بهجتُهُ
كما تنوبُ عن النيرانِ أنفاسي

وفي الصنف الثاني من الوداع أقول شعراً منه: (من البسيط).

وجهٌ تخرُّ له الأنوارُ ساجدةً
والوجهُ تَمٌّ فلم يَنقُصْ ولم يَزدِ
دِفءٌ وشمس الضحى بالجدي نازلةٌ
وباردٌ ناعمٌ والشمسُ في الأسدِ

ومنه:

يومُ الفِراق لَعمري لستُ أكرهه
أصلاً وإن شَتَّ شملَ الروحِ عن جسدي

فــفــيـــه عــانقتُ من أهوى بلا جَــزَعٍ
وكـــان مـن قـــبلـه إن ســـيل لم يَجُـــدِ
أليس من عَــجب دمــعي وعَــبــرتُهــا[١٠]
يومُ الوصـــال ليـــومِ البَين ذو حَـــســـدِ

وهل هجس في الأفكار أو قام في الظنون أشنعُ وأوجعُ من هجرِ عتاب وقع بين محبين، ثم فَجَأتْهُمَا النوى قبل حلول الصُّلح وانحلال عُقْدَة الهجران، فقاما إلى الوداع وقد نُسِيَ العتاب، وجاء ما طَمَّ عن[١١] القُوى وأطار الكَرى؛ وفيه أقول شعراً منه: (من الطويل).

وقـــد ســـقطَ العَـــتْبُ المُقـــدَّم وامَّـــحى
وجــاءتْ جـــيـــوشُ البـــيْن تجــري وتُسْـــرعُ
وقـــد ذعـــر البينُ الصـــدودَ فـــراعَـــهُ
فـــولّى فـــمـــا يُدْرَى له اليـــومَ مـــوضعُ
كـــذئبٍ خـــلا بالصـــيـــد حـــتى أظَلّه
هِزَبْرٌ له مـن جـــــانب الغـــــيـلِ مطلع
لئن سَـــرَّني في طَرْده الهـــجَـــر إنني .
لإبعــــاده عـني الحـــبـــيـــب لموجَع
ولابُدَّ عـنـد الموت مـن بـعـض راحــــــة
وفي غـــبِّـــهـــا[١٢] الموتُ الوحيُّ المصـــرّعُ

وأعرف من أتى ليودِّعَ محبوبه يومَ الفِراق فوجده قد فات، فوقف على آثاره ساعةً وتردَّد في الموضع الذي كان فيه ثم انصرف كئيباً متغيِّرَ اللونِ كاسفَ البال، فما كان بعد أيام قلائل حتى اعتل ومات، رحمه الله.

وإن للبين في إظهار السرائر المطويّة عملاً عجباً: ولقد رأيتُ من كان حبُّه مكتوماً وبما يجدُ فيه مستتراً حتى وقع حادثُ الفراقِ فباح المكنون وظهر الخفيُّ. وفي ذلك أقول قطعة منها: (من المتقارب).

بـذلت مـن الـودّ مــــا كـنـتَ قــــبـلُ
منعتَ وأعطيــــتنيــــه جُـــزافـــا
ومــــا لـي بـه حــــاجــــةٌ عـند ذاك
ولـو جُـــدتَ قـــبلُ بلغت الشـــغـــافـــا

ومــــا ينفعُ الطبُّ عندَ الحِـــمـــام
ويـنـفـعُ قـــــبـلَ الـردى مَنْ تـلافـى

وأقول: (من الكامل).

الآن إذ حـلَّ الـفـــــراقُ وُجِـــــدْتَ لِـي
بـخـــفـيِّ حبٍّ كنتَ تبـــدي بُـخلَـهُ
قـد زدتني في حـسـرتي أضـعـافَـهـا
وَيحي فـــهـــلاًّ كـــان هذا قـــبلَـهُ

ولقـد أذكـرني هذا أني خطبتُ[١٣] في بعض الأزمـان مـودَّةَ رجلٍ من وزراء السلطان أيامَ جاهه فأظهرَ بعضَ الامتساك، فتركته حتى ذهبت أيامه وانقضتْ دولته، فأبدى لي من المودة والاخوة غيرَ قليل، فقلت: (من الطويل).

بذلْتَ ليَ الإعـــراضَ والدهرُ مُـــقـــبلٌ
وتَبــذلُ لي الإقــبـــالَ والدهرُ مُـــعـــرضُ
وتبــــسطُني إذ ليـس ينفعُ بَسْطُكُمْ
فـــهـــلا أبحت البــسطَ إذ كنت تقــبضُ

٦- ثم بينُ الموت وهو الفوت، وهو الذي لا يُرجى له إياب، وهو المصيبة الحالّة، وهو قاصمةُ الظهر وداهية الدهر، وهو الويل[١٤]، وهو المُغطّي على ظلمة الليل، وهو قاطعُ كلِّ رجاء وماحي كلِّ طمع والمؤيسُ من اللقاء. وهنا حارت الألسن، وانجذم حبلُ العلاج، فلا حيلةَ إلا الصبرُ طوعاً أو كرهاً. وهو أجلُّ ما يبتلى به المحبون، فما لمن دُهيَ به إلا النوحُ والبكاء إلى أن يتلف أو يملّ؛ فهو القرحةُ التي لا تُنْكا، والوجع الذي لا يَفْنى، وهو الغمُّ الذي يتجدد على قدر بلاء من اغْتَمَدْتَهُ في الثرى وفيه أقول: (مشطور المديد).

كـــلُّ بـــيْـــنٍ واقـــعٍ
فـــمـــرجَّـىً لم يَـفُـتْ
لا تـعـــجِّـل قـنـطـاً
لـم يَـفُـتْ مَـن لـم يَـمُـت
والـذي قـــد مـــات فـــالـ
يـأسُ عـنـه قـــد ثَـبـت

وقد رأينا مَنْ عَرَضَ له هذا كثيراً.

وعنّي أخبرك أني أحدُ من دُهِيَ بهذه الفادحة وَتعُجِّلَتْ له هذه المصيبة، وذلك أني كنتُ أشدَّ الناس كلفاً وأعظمهم حُبّاً بجارية لي، كانت فيما خلا اسمها نُعْم. وكانت أمنيةَ المتمنّي وغايةَ الحسن خَلْقاً وخُلُقاً وموافقةً لي، وكنتُ أبا عُذْرِهَا، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتني بها الأقدارُ، واخترمتها الليالي ومرُّ النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسنّي حين وفاتها دونَ العشرين سنة، وكانت هي دوني في السنّ؛ فلقد أقمتُ بعدها سبعةَ أشهر لا أتجرَّدُ عن ثيابي ولا تفترُ لي دمعةٌ على جُمود عيني وقلة إسعادها؛ وعلى ذلك فوالله ما سلوتُ حتى الآن، ولو قُبِلَ فداءٌ لفديتها بكلِّ ما أملك من تالدٍ وطارفٍ، وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليَّ مسارعاً طائعاً، وما طاب لي عيشٌ بعدها، ولا نسيتُ ذكرها، ولا أنسْتُ بسواها، ولقد عَفَّى حُبي لها على كلِّ ما قبله، وَحَرَّمَ ما كان بعده؛ ومما قلت فيها: (من الطويل).

مهذبةٌ بيضاء كالشمس إن بَدَتْ
وسائرُ ربَّات الحجالِ نُجومُ
أطار هواها القلبَ عن مستقرِّه
فبعد وقوعٍ ظَلَّ وهو يحوم

ومن مراثيَّ فيها قصيدةٌ منها: (من الطويل).

كأنّيَ لم آنسْ بألفاظكَ التي
على عُقَدِ الألبابِ هُنَّ نوافثُ
ولم أتحكَّمْ في الأماني كأنني
لإفراطِ ما حُكِّمْتُ فيهنَّ عابثُ

ومنها:

ويُبدين إعراضاً وهنَّ أوالفٌ
ويُقْسِمْنَ في هَجري وهنَّ حوانثُ

وأقول أيضاً في قصيدة أخاطبُ فيها ابنَ عمي أبا المُغيرة عبدَ الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حَزم ابن غالب(١٥)، وأقرّضه فأقول: (من الطويل).

قِفا فاسألا الأطلال أين قطينُها
أمرَّتْ عليها بالبلى الملَوَانِ

على دراسـاتٍ مُـقـفـراتٍ عَـواطلِ

كـأنَّ المَغـاني في الخـفـاء مَـعـاني

واختلف الناسُ في أيِّ الأمرين أشدّ: البينُ أم الهجر؟ وكلاهما مُرتقىً صعبٌ وموتٌ أحمرُ وبليّةٌ سوداء وَسَنَةٌ شهباء، وكلٌّ يستبشع من هذين ما ضادَّ طبعَهُ: فأما ذو النفس الأبية الأنوف، الحنانة الألوف[١٦] الثابتة على العهد، فلا شيء يعدل عنده مُصيبة البَين، لأنه أتى قصداً، وتعمدته النوائبُ عَمداً، فلا يجدُ شيئاً يسلّي نفسه؛ ولا يصرّفُ فكرتَه في معنى من المعاني إلا وجد باعثاً على صَبابته ومحركاً لأشجانه، وعلةً لألمه[١٧]، وحجةً لوجده وحاضاً على البكاء على إلفه. وأما الهجر فهو داعيةُ السلو ورائدُ الإقلاع.

وأما ذو النفس التوّاقة الكثيرة النزوع والتطلع القلوقِ العزوفِ فالهجرُ دواؤُهُ وجالبُ حتفه، والبينُ له مَسلاةٌ وَمَنْسَاةٌ.

وأما أنا فالموتُ عندي أسهلُ من الفراق، وما الهجرُ إلا جالبٌ للكمد فقط، ويوشكُ إن دام أن يُحدث إيغاراً[١٨]، وفي ذلك أقول: (من المتقارب).

وقـالوا ارتحـلْ فـلـعـلَّ الـسُّـلـوّ

يـكـونُ وتـرغـبُ أن تَـرْغَـبَـهْ

فـقلتُ الـرّدى لـيَ قـبلَ السلوِّ

ومَـن يَشـربُ السمَّ عن تَـجـربـه!

وأقول (من المضارع)

سَـبَى مـهـجـتي هَـواهُ

وأودتْ بـهـا نَـواهُ

كـأنَّ الـغـرامَ ضـيـفٌ

وروحـي غـدا قـراه

ولقد رأيتُ من يستعجل[١٩] هَجْرَ محبوبه ويتعمَّدُهُ خوفاً من مرارة يوم البَين وما يحدثُ به من لوعة الأسف عند التفرق، وهذا وإن لم يَكنْ عندي من المذاهب المرضية، فهو حُجّةٌ قاطعةَ على أَن البين أصعبُ من الهجر، وكيف لا وفي الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين. ولم أجد أحداً في الدنيا يلوذُ بالبين خوفاً من الهجر، إنما يأخذ الناس أبداً الأسهلَ ويتكلّفون الأهْوَنَ. وإنما قلناإنه ليس من المذاهب المحمودة لأن أصحابه قد استعجلوا البلاءَ قبل نزوله، وتجرّعوا غُصّةَ الصبر قبل وقتها، ولعل

ما تخوّفوه لا يكون، وليس من يتعجل المكروهَ ـ وهو على غير يقين مما يتعجل ـ بحكيمٍ، وفيه أقول شعراً منه: (من الخفيف).

لبِسَ الصبُّ للصبابة بيْنا
ليس من جانبَ الأحبَّةَ منّا
كغنيٍّ يعيش عيشَ فقير
خوفَ فقرٍ وفقرُهُ قد أبنّا

وأذكر لابن عمي أبي المغيرة في هذا المعنى ـ من أنَّ البين أصعبُ من الصدِّ ـ أبياتاً من قصيدة خاطبني بها وهو ابنُ سبعةَ عشر عاماً أو نحوها، وهي: (من الكامل المجزوء).

أجزِعْتَ أن أزف الرّحيلُ
ولهتَ أن نُصّ الذميلُ
كلاَّ: مُصابك فادحٌ
وأجَلْ: فراقُهُمْ جليل
كذَب الألى زعموا بأنّ
الصدَّ مرتعُه وبيل
لم يعرفوا كُنْهَ الغليـ
ـل وقد تحمّلتِ الحُمول
أمّا الفِراقُ فإنه
للموتِ إن أهوَى دليل

ولي في هذا المعنى قصيدةٌ مطولة أولها: (من الكامل).

لا مثلَ يومِك ضحوةَ التنعيم
في منظَرٍ حسنٍ وفي تنْعيم[٢٠]
قد كان ذاك اليومُ ندرةَ عاقرٍ
وصوابَ خاطئةٍ ووُلْد عقِيم
أيّامَ بَرْقُ الوصل ليس بخُلَّبٍ
عندي ولا روضُ الهوى بهشيم
من كلِّ غانيةٍ تقول ثُديُّها
سيري أمامَك والإزارُ أقيمي

مـــا بي ســـوى تلك العـــيـــونِ وليس في
بَرئي ســـــــواهـا في الـورى بـزعـــــــيـم

مـــثـل الأفـــاعي لـيس فـي شيءٍ ســـوى
أجـــــــســـــــادها إبـراءُ لَـدْغٍ سـليـم

والبينُ أبكى الشعراءَ على المعاهد فأدرُّوا على الرسوم الدموع، وسقوا الديارَ ماءَ الشوق، وتذكروا ما قد سلف لهم فيها فأعولوا وانتحبوا، وأحيت الآثارُ دفينَ شوقهم فناحوا وبكوا.

ولقد أخبرني[٢١] بعضُ الورّاد من قرطبة ـ وقد استخبرته عنها ـ أنه رأى دورَنا ببلاط مُغيث في الجانب الغربيّ منها وقد امّحت رسومها، وطُمستْ أعلامها، وخفيتْ معاهدها، وغَيَّرها البلى وصارت صحاريَ مجدبةً بعد العمران، وفيافيَ موحشةً بعد الأنس، وخرائبَ منقطعة[٢٢] بعد الحُسن، وشعاباً مفزعة بعد الأمن، ومأوىً للذئاب، ومعازف للغيلان، وملاعبَ للجان، ومكامنَ للوحوش، بعد رجال كالليوث[٢٣]، وخرائدَ كالدمى، تفيضُ لديهم النعم الفاشية ـ تبدّدَ شملهم فصاروا في البلاد أيادي سَبا، فكأن تلك المحاريبَ المنمقة، والمقاصيرَ المزيّنة، التيّ كانت تُشْرقُ إشراقَ الشمس، ويجلو الهمومَ حُسنُ منظرها، حين شملها الخرابُ، وعمَّها الهدْمُ، كأفواه السباع فاغرة، تُؤْذِنُ بفناء الدنيا، وتُريك عواقبَ أهلها، وتُخبرك عما يصيرُ إليه كلُّ من تراه قائماً فيها، وتَزهدُ في طلبها بعد أن طالما زهدتَ في تركها، وتذكرتُ أيامي بها ولَذّاتي[٢٤] وشهورَ صباي لديها، مع كواعب إلى مثلهنَّ صَبَا الحليم، ومَثَّلْتُ لنفسي كَوْنَهُنَّ تحت الثرى وفي الآفاق[٢٥] النائية والنواحي البعيدة، وقد فرّقتهن يدُ الجلاء، ومزّقتهنّ أكفُّ النوى، وخُيِّلَ إلى بصري فناء[٢٦] تلك النُّصْبَة بعدما علمتُهُ من حُسْنها وغضارتها والمراتب المُحكمة التي نشأت فيها[٢٧] لديها، وخلاءُ تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها، وأوهمتُ[٢٨] سمعي صوتَ الصدى والهام عليها، بعد حركةَ تلك الجماعات التي رُبِّيت بينهم فيها، وكان ليلُها تَبَعاً لنهارها في انتشار ساكنها والتقاء عُمّارها، فعاد نهارُها تبعاً لليلها في الهدوء والاستيحاش، فأبكى عيني[٢٩] وأوجعَ قلبي وقرعَ صَفاةَ كبدي وزاد في بلاء لُبي، فقلت شعراً منه[٣٠]: (من الطويل).

لئن كـــان أظمـــانا فـــقـــد طالما سَـــقَى
وإن ســـاءنا فـــيـــهـــا فـــقـــد طالما سَـــرّا

والبيْن يولّد الحنين والاهتياج والتذكُّرَ، وفي ذلك أقول: (من البسيط).

ليتَ الغـرابَ يُعـيـدُ اليـومَ لي فـعـسى
يَبينُ بيـنهُمُ عنّي فـقـد وَقـفـا
أقـول والليـل قـد أرخى أجلّتـه
وقـد تألّى بألا ينقـضي فـوَفَى
والنجمُ قـد حـار في أُفْق السـمـاء فـمـا
يمضي ولا هو للتـغـوير منصـرفـا
تخـاله مـخطئـاً أو خـائفـاً وَجِـلا
أو راقـبـاً مـوعـداً أو عـاشـقـاً دَنفـا

الهوامش

(١) ذكر ابن داود عن الجاحظ قوله: "لكل شيء رفيق ورفيق الموت الهجر" وعلق عليه بقوله: "وليس الأمر كما قال، بل لكل شيء رفيق، ورفيقُ الهجر الموت" (الزهرة ١: ١٣٧) وانظر المقدمة.

(٢) برشيه: مسك.

(٣) استولى أبو الجيش مجاهد العامري على دانية والجزائر من سنة ٤٠٠-٤٣٦؛ انظر أخباره في البيان المغرب ٣: ١٥٥ وتاريخ ابن خلدون ٤: ١٦٤ وأعمال الاعلام: ٢٥٠ والمغرب ٢: ٤٠١ وللمستشرقة الايطالية كليليا سارنللي دراسة عنه (القاهرة: ١٩٦١)، (والجزائر هي ميورقة ومنرقة ويابسة).

(٤) كان خيران أيضاً من موالي العامريين الذين استقلوا لدى انهيار الدولة الاموية، وكان مركزه المرية، إلا أنه قام بدعوة المرتضى الأموي، ثم تخلص منه، وتوفي سنة ٤١٨ (أو ٤١٩)، انظر أعمال الاعلام: ٢٤٢ والبيان المغرب والذخيرة (القسم الأول) والمغرب ٢: ١٩٣؛ هذا وقد تمت المنابذة بين خيران ومجاهد العامريين سنة ٤١٧.

(٥) برشيه: وخلف سكناً.

(٦) أغلب الأشعار التالية لا تنطبق على مفهوم الفقرة السابقة، وهو بين الرحيل وتباعد الديار ولا نظن ابن حزم يستغلُّ هنا قلة تدقيق القارىء فيورد شعراً كيفما اتفق، وإنما هذا في الأرجح عمل الناسخ إذ يحذف الأبيات اختصاراً.

(٧) بعض الطبعات: وذي، وهو خطأ.

(٨) بتروف: توقع؛ وتابعه على ذلك آخرون.

(٩) بتروف: ومواطن الموافقة؛ واضطرب النص كثيراً بحسب هذه القراءة، فقد جعله مكي: والاشارة بالعين والتبسم ومواطن الموافقة والوداع تنقسم قسمين، وهذا مستغرب يعز على الفهم، والمؤلف بعد سطور سيقول: وفي الصنف الأول من الوداع أقول... وفي الصنف الثاني من الوداع أقول؛ فالوداع هو الذي ينقسم قسمين، وليس غيره.

(١٠) برشيه: أليس من عجب واعجب بعبرته.

(١١) برشيه: على.

(١٢) برشيه: غيبها.

(١٣) في معظم الطبعات: حظيت.

(١٤) برشيه: الليل.

(١٥) عبد الوهاب أبو المغيرة: كان في عصره من المقدمين في الآداب والشعر والبلاغة، وكان شعره كثيراً مجموعاً، توفي في طليطلة (٤٣٨) وجرى بينه وبين ابن عمه أبي محمد الفقيه تنابذ سجلاه في رسائل عنيفة (انظر الجذوة: ٢٧٣ والبغية رقم: ١١١٠ والصلة: ٣٦١ والمغرب ١: ٣٥٧ والذخيرة ١/١: ١٣٢-١٦٦).

(١٦) في معظم القراءات: فأما ذو النفس الأبية الألوف الحنانة.

(١٧) بعض القراءات: وعليه لا له.

(١٨) معظم الطبعات: اضراراً.

(١٩) بتروف: يستعمل، وتابعته طبعات أخرى؛ والسياق التالي يقوي قراءة "يستعجل" فقد قال المؤلف بعد سطور "لأن أصحابه قد استعجلوا البلاء... وليس من يتعجل المكروه... الخ".

(٢٠) التنعيم الأولى اسم مكان والثانية بمعنى النعمة.

(٢١) أورد لسان الدين بن الخطيب بكاء ابن حزم لقرطبة نثراً وشعراً في أعمال الأعلام: ١٠٦-١٠٨ ولما كانت المقارنة بين النصين تدل على اختلافات وفوارق كثيرة؛ فإني سأثبت النص الوارد عند لسان الدين ملحقاً في آخر الرسالة (انظر الملحق: ١ ومجلة الأندلس: ٣٦١-٣٦٣).

(٢٢) قرأها برشيه: مفظعة؛ وفي أعمال الاعلام: منقطعة.

(٢٣) أعمال الاعلام: بعد طول غنيانها برجال كالسيوف وفرسان كالليوث.

(٢٤) أعمال الاعلام: وصبابة لذاتي بها.

(٢٥) قرأها برشيه: الديار؛ وفي سائر الطبعات: الآثار، وما أثبته فهو من أعمال الاعلام، وهو الصواب.

(٢٦) في الطبعات (ما عدا برشيه): بقاء، وتتفق قراءة برشيه مع أعمال الاعلام.

(٢٧) هذه هي قراءة برشيه، وفي سائر الطبعات: فيما، والعبارة في الاعلام مختلفة عما هي هنا، إذ جاءت: والمرتبة الرفيعة التي رفلت في حللها ناشئاً فيها.

(٢٨) الأعمال: وأرعيت.

(٢٩) أعمال الأعلام: فأبكى ذلك عيني على جمودها، وهذا الاحتراس ضروري لما تقدم من وصف ابن حزم لنفسه بأنه جامد العين.

(٣٠) لم يرد هنا إلا بيت من عشرين بيتاً وردت في الاعلام، انظر الملحق.

٢٥.
باب القنوع

ولابد للمحب، إذا حُرم الوصل، من القنوع بما يجد، وإنَّ في ذلك لمتعللاً للنفس، وشغلاً للرجاء، وتجديداً للمنى، وبعضَ الراحة. وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكُّن:

١. فأولها الزيارة، وإنها لأملٌ من الآمال ومن سريٍّ ما يسنح في الدهر، مع ما تبدي من الخَفر والحياء، لما يعلمه كلٌّ واحد منهما مما في نفس صاحبه؛ وهي على وجهين: أحدهما أن يزور المحب محبوبه. وهذا الوجه واسع؛ والوجه الثاني أن يزور المحبوبُ مُحبَّه، ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر؛ وفي ذلك أقول: (من الطويل).

فـإن تَنْأَ عنّي بالوصالِ فإنني
سأرضى بلَحظ العين إن لم يكنْ وَصْلُ

فحسبيَ أن ألقاك في اليوم مَرّةً
وما كنتُ أرضى ضعفَ ذا منك لي قبلُ

كذا همّة الوالي تكونُ رفيعةً
ويرضى خَلاصَ النفس إنْ وقعَ العزلُ

وأما رَجعُ السلامِ والمخاطبةُ فأملٌ من الآمال: وإن كنت أنا أقول في قصيدة لي: (من الطويل).

فها أنا ذا أُخفي وأقنعُ راضياً
برَجْعِ سلامٍ إن تيسَّرَ في الحينِ

فإنما هذا لمن ينتقل من مَرتبةٍ إلى ما هو أدنى منها. وإنما تتفاضلُ المخلوقاتُ في جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلى ما هو فوقها أو دونها. وأني لأعلم من كان يقول لمحبوبه: عِدْني واكذبْ، قُنوعاً بأن يُسلّي نفسه في وعده وإن كان غيرَ صادق؛ فقلت في ذلك: (من الكامل).

إن كـــان وصلُك ليس فـــيـــه مَطمعٌ
والقـــربُ ممنوعٌ فـــعِـــدني واكـــذبِ
فـعـسى التـعلُّلَ بالتـقـائك مُـمـسكٌ
لحـــيـــاة قلبٍ بالصُّـــدود مُـــعـــذَّبِ
فلقـــــد يُسلّي المجْـــدبين إذا رأوا
في الأفـق يَلمـعُ ضـــــوءَ بَرْقٍ خُلَّبِ

ومما يدخل في هذا الباب شيءٌ رأيته ورآه غيري معي: أن رجلاً من إخواني جَرحه من كان يُحبه بمُدية، فلقد رأيته وهو يُقبِّلُ مكانَ الجُرح ويفدّيه مرة بعد مرة، فقلت في ذلك: (من المتقارب).

يقـــولون شـــجَّكَ من همتَ فـــيـــه
فـــقلت لعـــمـــريَ مـــا شـــجّني
ولـكـن أحـسَّ دمـي قُـــــــــربَـه
فـطـار إلـيـــــــه ولـم يـنْـثَـنِ
فـــيـــا قـــاتلي ظالما مُـــحـــسناً
فـــديتُـك من ظالـم مُـــحـــســنِ

٢ـ ومن القُنوعِ أن يُسرّ الإنسان ويَرضى ببعضَ آلات محبوبه، وإن له من النفس لموقعاً حسناً وإن لم يكن فيه إلا ما نصَّ الله تعالى علينا، من ارتداد يعقوبَ بصيراً حين شَمَّ قميصَ يوسف عليهما السلام وفي ذلك أقول: (من السريع).

لما مُنعتُ القـــربَ من ســـيـــدي
ولَـجَّ فـي هـجـــــري ولـم يُـنْـصِـفِ
صِـــــرْتُ بـإبـصـــاريَ أثـوابَـه
أو بعضَ مـــا قـــد مـــسّـــه أكـــتـــفي
كَـــذاك يعـــقـــوبُ نَـبيُّ الهـــدى
إذ شَـــفّـــه الحـــزنُ على يوسفِ

شمّ قميصاً جاء من عنده
وكان مكفوفاً فمنه شُفي

وما رأيتُ قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خُصَلَ الشعر مبخّرةً بالعنبر مرشوشةً بماء الورد وقد جُمعَتْ في أصلها بالمصطكي وبالشمع الأبيض المصفّى، ولُفّت في تطاريف الوشي والخز وما أشبه ذلك، لتكونَ تذكرة عند البين. وأما تهادي المساويك بعدَ مضغها، والمصطكي إثر استعمالها، فكثير بين كلّ متحابين قد حُظِرَ عليهما اللقاء[1]؛ وفي ذلك أقول قطعة منها: (من الطويل).

أرى ريقَها ماءَ الحياة تيقناً
على أنها لم تُبقِ لي في الهوى حَشَا

خبر:

وأخبرني بعض إخواني عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابنَ سهلٍ الحاجبَ بجزيرة صقلية، وذكر أنه كان غايةً في الجمال، فشاهده يوماً في بعض المتنزهات ماشياً وامرأةٌ خلفه تَنظرُ إليه، فلما بعدَ أتت إلى المكان الذي قد أثّر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثمُ الأرض التي فيها أثر رجله؛ وفي ذلك أقول قطعة أولها: (من الطويل).

يلومونني في لثم موطىء خفّه[2]
ولو علموا عاد الذي لام يَحْسُدُ
فيا أهلَ أرضٍ لا يجودُ سحابُها
خُذوا بوَصَاتي تستقلوا[3] وتُحمدوا
خذوا من ترابٍ فيه موضعُ وَطئه
وأضمنُ أن المَحْلَ عنكم يُبَعَّدُ
فكلُّ تراب واقعٍ فيه رجْلهُ
فذاكَ صعيدٌ طيّبٌ ليس يُجحدُ
كذلك فِعلُ السامريِّ وقد بَدا
لعينيه من جبريلَ إثْرٌ مُمجّدُ
فصيّر جوفَ العِجلِ من ذلك الثرى
فقام له منه خُوارٌ مُمدّدُ

وأقول: (من الطويل).

لقــــد بوركَتْ أرضٌ بهـــا أنت قـــاطنٌ
وبوركَ من فـيــهــا وحَلَّ بهــا السـعــدُ

فــأحــجــارُها درٌّ وسَــعْــدانُهَــا وَرْدُ
وأمــواهُهــا شُــهــدٌ وتُربتــهــا نَدُّ

٣- ومن القنوع الرضى بمزَار الطيف وتسليم الخيال، وهذا إنما يحدث عن ذكر لا يفارق، وعهد لا يحول، وفكرٍ لا ينقضي، فإذا نامتِ العيونُ وهدأت الحركاتُ سَرى الطيف؛ وفي ذلك أقول: (من البسيط).

زار الخـيــالُ فـتـىً طالت صَـبـابـتُــهُ
على احـتـفــاظ من الحُـراس والحَـفَظَهْ

فــبتُّ في ليلتي جَــذلانَ مُـبـتـهـجـاً
ولـذةُ الـطـيـفِ تُـنـسـي لـذَةَ اليَـــقَظَهْ

وأقول: (من الطويل).

أتـى طيفُ نُعْمٍ مَـضـجـعي بعــد هدأة
ولـلـيــل سـلــطــانٌ وظــلٌ ممــدّدُ

وعــهــدي بهــا تحتَ التــراب مُـقـيـمـةً
وجــاءت كـمــا قــد كنتُ من قــبلُ أعــهـد

فــعُــدْنا كــمــا كنا وعــاد زمــاننا
كـمــا قــد عــهـدنا قــبلُ والعَـوْدُ أحـمـدُ

وللشعراء في علة مَزَارِ الطيف أقاويلُ بديعةٌ بعيدة المرمى مخترعة، كلٌّ سبَق إلى معنى من المعاني، فأبو إسحاق ابن سيّار النظام رأسُ المعتزلة جعل علةَ مزارِ الطيف خوفَ الأرواح من الرقيب المرقَّب على لقاء[٤] الأبدان، وأبو تمام حبيب بن أوس الطائي جعل علته أنّ نكاح الطيف لا يفسدُ الحبّ ونكاحَ الحقيقةِ يفسده[٥] والبحتري جعلَ علّة إقباله استضاءَتَه بنارِ وجده، وعلة زواله خوف الغرق في دموعه[٦] . وأنا أقول من غَير أن أمثل شعري بأشعارهم - فلهم فضل التقدم والسابقة، إنما نحن لاقطون وهم الحاصدون، ولكن اقتداء بهم، وجرياً في ميدانهم،وتتبعاً لطريقتهم التي نهجوا وأوضحوا - أبياتاً بيَّنت فيها مزارَ الطيف مقطَّعة: (من الوافر).

أغـــــــارُ عـلـيـكِ مـن إدراك طَـرفـي
وأُشْـــــفقُ أن يـذيـبك لمسُ كـــــفّي
فـــأمــــتنعُ اللقـــاءَ حـــذَارَ هذا
وأعــتــمـــدُ التـــلاقي حين أُغـــفي
فــــــروحي إن أنمْ، بـك ذو انفـــــراد
من الأعـضــاءِ مُـسـتـتـرٌ ومَـخْـفي
ووصلُ الروح ألطفُ فــيك وقـــعـــاً
من الجـــسم المواصلِ ألفَ ضِــعْفِ

وحال المزور في المنام ينقسم أقساماً أربعة:

١ـ أحدها محبٌّ مهجور قد تطاول غمه، ثم رأى في هجعته أن حبيبه وَصله فَسُرَّ بذلك وابتهج، ثم استيقظ فأسف وتلهف، حيث علم أن ما كان فيه أمانيُّ النفس وحديثها؛ وفي ذلك أقول: (من الخفيف).

أنتَ في مَــشْــرقِ النهـــار بخـــيلُ
وإذا الـلـيـلُ جَـنَّ كـنـتَ كـــــــريما
تجـعـلُ الشــمسَ منك لي عــوضــاً هيـ
هات مـــا ذا الفَـــعـــالُ منك قـــويما
زارني طيـــفُك البـــعـــيـــدُ فـــيـــأتي
واصــــــلاً لـي وعــــــائـداً ونـديما
غـــيـــر أنـي منعـــتني من تمامِ الـ
ـعـيش لكن أبحتَ لي التَّــشـــمــيـــمـــا
فـكأنـي من أهـلِ الاعــرافِ لاَ الـفـــر
دوسُ داري ولا أُخـــاف الجـــحـــيـــمـــا

٢ـ والثاني محب مواصل مُشفق من تغيُّر يقع، قد رأى في وَسَنه أن حبيبه يهجره فاهتمَّ لذلك همّاً شديداً، ثم هبّ من نومه فعلم أن ذلك باطلٌ وبعضُ وساوس الإشفاق.

٣ـ والثالث محب داني الديار يرى أن التنائي قد فَدَحَهُ،فيكترث ويوْجَل ثم

ينتبهُ فيذهبُ ما به ويعود فرحاً؛ وفي ذلك أقول قطعة منها: (من الطويل).

رأيتُك في نومي كأنَّك راحلٌ
وقمنا إلى التوديع والدمعُ هاملُ

وزال الكرى عني وأنت معانقي
وغمّي إذا عاينتُ ذلك زائلُ

فجدَّدتُ تعنيقاً وضمّاً كأنني
عليك من البين المفرق واجل

٤ـ والرابع محب نائي المزار، يرى أن المزار قد دنا، والمنازلَ قد تصاقبت، فيرتاح ويأنس إلى فقد الأسى، ثم يقوم من سِنته فيرى أن ذلك غير صحيح، فيعود إلى أشدِّ ما كان فيه من الغمّ.

وقد جعلت في بعض قولي علةَ النوم الطمع في طيف الخيال، فقلت: (من البسيط).

طاف الخيالُ على مستهتر كَلِفٍ
لولا ارتقابُ مَزارِ الطيفِ لم ينمِ

لاتعجبوا إذ سرى والليل معتكرٌ
فنورُهُ مُذْهِبٌ[٧] في الأرض للظلم

٤ـ ومن القنوع أن يقنعَ المحبُّ بالنظر إلى الجدران ورؤية الحيطان التي تحتوي على من يحب، وقد رأينا من هذه صفته. ولقد حدّثني أبو الوليد أحمد بن محمد بن اسحاق الخازن[٨] رحمه الله عن رجل جليل، أنه حدَّث عن نفسه بمثل هذا.

٥ـ ومن القنوع أن يرتاح المحب، إلى أن يرى مَن رأى محبوبَهُ ويأنَس به ومن أتى من بلاده، وهذا كثير؛ وفي ذلك أقول: (من الطويل).

توحَّش من سكانه فكأنَّهُمْ
مساكنُ عاد أعقبته ثمودُ

ومما يدخل في هذا الباب أبياتٌ لي، موجبهاً أني تنزهَّت أنا وجماعة من إخواني من أهل الأدب والشرف إلى بستان لرجل من أصحابنا، فجُلنا ساعة ثم أفضى بنا القعودُ إلى مكانٍ دونه يُتمنى، فتمددنا في رياضٍ أريضة، وأرضٍ عريضة، للبصر فيها منفسح، وللنفس لديها منسرح، بين جداول تطَّرد كأباريق اللجين، وأطيار تغرد بألحان تُزري بما أبدعه معبدٌ والغريض[٩]، وثمار مُهدّلة قد

ذللت للأيدي ودنت[١٠] للمتناول، وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها فتتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة، وماء عَذب يوجدك حقيقة طعم الحياة، وأنهار متدفقة تنسابُ كبطون الحيات لها خريرٌ يقوم ويهدأ، ونواوير مؤنقة مختلفة الألوان تصفّقها الرياحُ الطيبةُ النسيم، وهواء سجسج، وأخلاق جُلاس تفوقُ كلَّ هذا، في يومٍ ربيعيٍ ذي شمس ظليلة، تارةً يُغطيها الغيمُ الرقيقُ والمُزن اللطيف،وتارة تتجلى فهي كالعذراء الخَفِرة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيبُ فيها حَذر عين مراقبة. وكان بعضنا مُطْرقاً كأنه يحادثُ الثرى[١١]، وذلك لسرٍّ كان له، فَعرَّضَ لي بذلك، وتداعَبنا حينا فَكُلِّفْتُ أن أقول على لسانه شيئاً في ذلك، فقلتُ بديهةً، وما كتبوها إلا من تذكّرها بعد انصرافنا، وهي: (من الطويل).

ولما تروَّحْنا بأكناف روضة
مُهدلّة الأفنانِ في تُرْبِها الندي
وقد ضحكتْ أنوارها وتضوَّعَتْ
أساورُها[١٢] في ظل فيء ممدَّدِ
وأبدت لنا الأطيارُ حسن صريفها
فمن بين شاكٍ شجوهُ ومُغرِّدِ
وللماءِ فيما بيننا مُتصرَّفٌ
وللعين مُرتادٌ هناك ولليَدِ
وما شئتَ من أخلاق أروعَ ماجد
كريمِ السجايا للفخار مُشيِّدِ
تَنَغَّصَ عندي كلُّ ما قد وصفتُه
ولم يَهنني إذْ غاب عنّيَ سيِّدي
فيا ليتني في السجن وهو معانقي
وأنتم معاً في قَصْر دار المجدَّدِ[١٣]
فمن رامَ منا أن يبدلَ حاله
بخال أخيه أو بمُلْكٍ مُخلّد
فلا عاش إلا في شَقاءٍ ونكبة
ولازال في بؤسى وخِزْيٍ مُردّدِ

فقال هو ومن حضر: آمين آمين. وهذه الوجوه التي عددّتُ وأوردت في حقائق

القناعة هي الموجودةُ في أهل المودة، بلاتزيّد ولا ادّعاء.

٦ـ وللشعراء فن من القنوع أرادوا فيه إظهارَ غرضهم وإبانةَ اقتدارهم على المعاني الغامضة والمرامي البعيدة، وكلٌّ قال على قدر قُوة طبعه، إلا أنه تحكُّمٌ باللسان وتشدُّقٌ في الكلام واستطالةٌ بالبيان، وهو غير صحيح في الأصل: فمنهم من قنع بأن السماء تُظلّه هو ومحبوبه والأرضَ تُقلّهُما، ومنهم من قنع باستوائهما في إحاطة الليل والنهار بهما، وأشباه هذا(١٤)، وكلٌّ مبادرٌ إلى احتواء الغاية في الاستقصاء، وإحراز قَصَب السبق في التدقيق، ولي في هذا المعنى قَولٌ لا يمكنُ لمتعقّب أن يجدَ بعده مُتناولا، ولا وراءه مكاناً، مع تَبيّني علة قرب المسافة البعيدة، وهو: (من الطويل).

قــالوا بعــيــد قلتُ حَــسـبي بأنه
مــعي في زَمــانٍ لا يُطيق مَــحــيــدا
تَمُــرُّ عليَّ الشــمس مــثل مــرورها
بـه كلَّ يـومٍ يســتنيــر جــديدا
فَــمَن ليس بيني في المســيــر وبينه
ســوى قَطْعِ يومٍ هل يكون بعــيــدا
وعِلمُ إله الخلق يَجــمــعُنا مــعــاً
كــفى ذا التــداني مــا أريدُ مــزيدا

فبينتُ كما ترى أني قانعُ بالاجتماع مع مَن أُحبُّ في علم الله الذي السمواتُ والأفلاك والعوالم كلّها وجميع الموجودات(١٥) بسبب منه ولا تجزؤ فيه ولا يشذ عنه شيء، ثم اقتصرت من علم الله تعالى على أنه في زمان؛ وهذا أعمُّ مما قاله غيري في إحاطة الليل والنهار، وإن كان الظاهر واحداً في البادىء إلى السامع، لأن كل المخلوقات واقعة تحت الزمان، وإنما الزمان اسم موضوع لمرور الساعات وقَطع الفلك وحركاته وأجرامه، والليل والنهار متوالدان عن طُلوع الشمس وغروبها، وهما متناهيان في بعض العالم الأعلى، وليس هكذا الزمان، فإنهما بعض الزمان. وإن كان لبعض الفلاسفة قولٌ: إن الظل متماد، فهذا يخطئه العيان، وعلَلُ الردِّ عليه بيِّنة ليس هذا موضعها، ثم بينتُ أنه وإن كان في أقصى المعمور من الشرق وأنا في أقصى المعمور من الغرب، وهذا طول السكنى، فليس بيني وبينه إلا مسافة يوم؛ إذ الشمس تبدو في أول النهار في أول المشارق وتغرب في آخر النهار في آخر المغارب.

٧ـ ومن القنوع فصلٌ أورده وأستعيذ بالله منه ومن أهله، وأحمده على ماعَرَّفَ

نفوسنَا من منافرته، وهو أن يضلّ العقلُ جُملةً، وتَفْسُدَ القريحة، ويتلفَ التمييزُ ويهونَ الصعب، وتَذهَبَ الغيرة، وتُعْدَمَ الأنفة، فيرضى الإنسان بالمشاركة فيمن يحب، وقد عَرض هذا لقوم، أعاذنا الله من البلاء. وهذا لا يصح إلا مع كلبيةٍ في الطبع، وسقوط من العقل ـ الذي هو عيارٌ على ما تحته ـ وضعف حسّ. ويؤيد هذا كلَّهُ حبٌّ شديدٌ مُعْمٍ. فإذا اجتمعت هذه الأشياء وتلاحقت بمزاج الطبائع ودُخول بعضها في بعض نتج بينهما هذا الطبع الخسيس، وتولدت هذه الصفة الرذلة، وقام منها هذا الفعل المقذور القبيح. وأما رجلٌ معه أقلُّ همةٍ وأيسرُ مروءة فهذا منه أبعدُ من الثريّا، ولو مات وجداً وتقطّع حُبّاً، وفي ذلك أقول زارياً على بعض المُسامحين في هذا الفصل: (من الطويل).

رأيتك رَحْبَ الصدر ترضى بما أتى
وأفضلُ شيءٍ أن تَلينَ وتُسْمِحا
فحظُّك من بعض السواني مُفضَّلٌ
على أن يحوز الملكُ من أصلها الرّحى
وعُضْوُ بعيرٍ فيه في الوزن ضِعْفُ ما
تُقدِّره في الجَدْيِ فاعص الذي لحا
ولُعْبُ الذي تهوى بسيفين مُعْجِبٌ
فكُنْ ناحياً في نحوه كيفما نَحا

الهوامش

(١) يقول الوشاء في وصف عشق القيان (الموشى: ٩٣): وتبعث إليه بخاتمها وفضلة من شعرها... وقطعة من مسواكها، ولبان قد جعلته عوضاً من قبلتها... وكتاب... ختمته بغالية قد عدل بالعنبر متنها".

(٢) في الأصل: في موطىء خفه خطا؛ برشيه: جفا.

(٣) عند برشيه: تستغلوا.

(٤) بتروف والصيرفي ومكي: بهاء.

(٥) أظنه يشير إلى قول أبي تمام: (ديوانه ٢: ٦٩).

غدت مغتدى الغضبى وأوْصَتْ خيالها
بحرأن نضو العيس نضو الخرائد
وقالت نكاح الحب يفسدُ شكله
وكم نكحوا حباً وليس بفاسد

والمعنى الاجمالي أنها أوصت خيالها بزيارتي وتعهدي، وقالت: ان نكاح الحب يفسد شكله، ولكن نكاح (الطيف) لا يفسده (أو هذا ما فهمه ابن حزم من البيتين)...

(٦) لقد حاولت أن أجد هذا المعنى في ديوان البحتري فلم أوفق على كثرة ترداد النظر في الديوان.

(٧) برشيه: مرهب.

(٨) ذهب بعض المعلقين إلى أن أبا الوليد أحمد بن محمد بن اسحاق الخازن هو والد محمد بن اسحاق الوزير الاسحاقي الذي مرّ التعريف به (ص: ١١٢) وهذا أمر لا يمكن القطع به دون أن تسنده المصادر.

(٩) معبد والغريض من مشاهير المغنين في العصر الأموي (انظر الأغاني ١: ٤٧؛ ٢: ٣١٨).

(١٠) برشيه: وتدلت.

(١١) بتروف: أخرى.

(١٢) أساورها كذا وردت عند الجميع ولاأجد لها معنىً وأرجح: "أصاورها" من صوار وهو وعاء المسك أو الرائحة الطيبة وجمعها أصورة فتكون أصاورها جمع جمع إن صحّ التقدير.

(١٣) المجدد: هو أحد المباني الفخمة بقصر قرطبة الأكبر قال ابن بشكوال: ومن قصوره المشهورة وبساتينه المعروفة: الكامل والمجدد وقصر الحائر والروضة الزاهر والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والتاج والبديع (نفح الطيب ١: ٤٦٤).

(١٤) من أمثال هذه القناعة قول أحدهم:

ويقصر عني وهي نازحة ... ما لا يقصر بعين ذي الحلم

أني أرى وأظن أن سترى ... وضح النهار وعالي النجم

وقول الآخر:

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك بنا تداني

ترى وضح النهار كما أراه ... ويعلوها المساء كما علاني

وقول الثالث:

ألست أرى النجم الذي هو طالع ... عليها فهذا للمحبين نافع

عسى يلتقي في الأفق لحظي ولحظها ... فيجمعنا إذ ليس في الأرض جامع

ويعلّق ابن داود على مثل هذا بقوله انه ناقص عن حد التمام (الزهرة ٢ ١٠٢، ١٠٣) وكأني بابن حزم قد قرأ هذه الجملة وتأملها، فما يحاول أن يأتي به في أبياته التالية إنما هو نوع من بلوغ الغاية أو حدّ التمام.

(١٥) العبارة عند الصيرفي: وجميع الموجودات لا تنفصل منه ولا تتجزأ فيه ولا يشذ عنه منها شيء، وهي بعيدة كثيراً عن الأصل؛ وتابعه في ذلك مكي؛ وعند بتروف: لا تنتسب منه.

ـ٢٦ـ
باب الضنى

ولابد لكلّ محبٍّ صادقِ المودّة ممنوعِ الوصل ـ إما ببيْن وإما بهجر وإما بكتمانٍ واقع لمعنى ـ من أن يؤولَ إلى حدٍّ السقام والضنى والنُّحول، وربما أضجعه ذلك؛ وهذا الأمر كثير جداً موجودٌ أبداً. والأعراضُ الواقعة من المحبة غيرُ الأعراض[1] الواقعة من هجمات العلل، ويميزها الطبيبُ الحاذقُ والمتفرِّس الناقد؛ وفي ذلك أقول: (من الوافر).

يقولُ ليَ الطبيبُ بغيرِ علم
تَداوَ فأنت يا هذا عليلُ
ودائي ليس يَدريه سوائي
وربٍّ قادرٌ ملكٌ جليل
أأكتمُه ويكشفُهُ شَهيقٌ
يُلازمني وإطراقٌ طويل
ووجهٌ شاهداتُ الحزنِ فيه
وجسمٌ كالخيالِ ضنٍ نحيل
وأثبتُ ما يكونُ الأمر يوماً
بلاً شكٍّ إذا صحَّ الدليل
فقلتُ له: أبِنْ عني قليلاً
فلا والله تعرفُ ما تقول

فـــقـــال: أرى نـحُـــولاً زاد جـــداً
وعـلّـتُـكَ الـتـي تـشـكـو ذُبـول
فـــقـلـتُ لـه: الـذُّبـولُ تُـعَـلُّ مـنـه ال
ـجـوارحُ وهـي حُـمَّى تـسـتـحـيلُ
ومـــا أشـكـو لـعـمـرو الله حُـمَّـى
وإنّ الحـــرَّ فـي جـســمـي قـلـيـل
فـــقـــال: أرى الـتـفـــاتـاً وارتـقـــابـاً
وأفـكـاراً وصـمـتـاً لا يـزول
وأحـسـبُ أنـهـا الـسـوداءُ فـانـظرْ
لـنـفـسـكَ إنـهـا عَـرَضٌ ثـقـيـل
فـــقـلـت لـه: كـلامُـك ذا مُـحـالٌ
فـمـا للدمع من عـيـني يـسـيـل
فـأطـرقَ بـاهـتـاً مما رآه
ألا فـي مـثـل ذا بُـهِت الـنـبـيـل
فـــقـلـتُ لـه: دوائـي مـنـه دائـي
ألا فـي مـثـل ذا ضلّتْ عـقـول
وشـاهدُ مـا أقـولُ يُرَى عـيـانـاً
فُـروعُ الـنـبـتِ إن عُـكِـسَتْ أصـول
وتـريـاقُ الأفـاعـي لـيـس شـيءٌ
سـواه بـبُـرءِ مـا لَدَغَتْ كـفـيـل

وحدثني أبو بكر محمد بن بقيّ الحجري، وكان حكيم الطبع عاقلاً فهيماً، عن رجلٍ من شيوخنا لا يمكنُ ذكره، أنه كان ببغداد في خان من خاناتها فرأى ابنةً لوكيلة الخانِ فأحبَّها وتزوجها، فلما خلا بها نظرتْ إليه وكانت بِكراً، وهو قد تكشَّفَ لبعض حاجته، فراعها كبر إحليله، ففرَّتْ إلى أمها وتفادت منه، فرام بها كُلٌّ من حواليها أن تُرَدَّ إليه، فأبتْ وكادتْ أن تموتَ، ففارقها ثم ندم، ورام أن يُراجعها فلم يُمكنه، واستعان بالأبهري(٢) وغيره، فلم يقدر أحدٌ منهم على حيلةٍ في أمره، فاختلط عقلُهُ وأقام في المارستان يُعاني مدةً طويلة حتى نَقِهَ وسلا وما كاد، ولقد كان إذا ذكرها يتنفسُ الصُّعداء.

وقد تقدم في أشعاري المذكورة في هذه الرسالة: من صفة النحول مُفرَّقاً ما استغنيتُ به عن أن أذكر هنا من سواها شيئاً خوفَ الإطالة، والله المعين والمستعان.

وربما ترقَّت إلى أن يُغْلَبَ المرء على عقله ويحالَ بينه وبين ذهنه فيوسوس؛

خبر:

وإني لأعرف جاريةً من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القُوَّاد، وقد بلغ بها حُبُّ فتىً من إخواني من أبناء الكُتّاب مبلغَ هَيَجان المرار الأسود، وكادت تختلط، واشتهر الأمر وشاع جداً[٣] حتى علمه الأباعد، إلى أن تدُورِكتْ بالعلاج.

وهذا إنما يتولد عن إدمان الفكر، فإذا غلبت الفكرةُ وتمكن الخلط وتُرِكَ التداوي خرج الأمر عن حدِّ الحبِّ إلى حد الوَلَه والجنون، وإذا أُغْفِلَ التداوي في أوائل المُعاناة قويَ جداً ولم يوجد له دواء سوى الوصال، ومن بعض ما كتبتُ إليه قطعة منها: (من الخفيف)

قد سلبتَ الفؤادَ منها اختلاساً
أيُّ خلقٍ يعيشُ دون فؤادِ
فأغِثْها بالوَصْلِ تَحْيَ شريفاً
وتَفُزْ بالثوابِ يومَ المَعادِ
وأراها تعاضُ إنْ دام هذا
من خلاخيلها حُلى الأقيادِ[٤]
أنت حقاً مُتيِّمُ الشّمس حتى
عِشْقُها بين ذا الورى لكَ بادي

خبر:

وحدثني جعفر مولى أحمد بن محمد بن حدير، المعروف بالبليني[٥]: أن سببَ اختلاطِ مروان بن يحيى بن أحمد بن حُدير وذهاب عقله اعتلاقُهُ بجاريةٍ لأخيه، فمنعها وباعها لغيره، وما كان في إخوته مثله ولا أتم أدباً منه.

وأخبرني أبو العافية مولى محمد بن عباس بن أبي عبدة[٦]، أن سببَ جنون يحيى بن محمد بن عباس بن أبي عبدةَ بيعُ جاريةٍ له كان يَجدُ بها وجداً شديداً، كانت أمه أباعتها وذهبت إلى إنكاحه مِنْ بعضِ العامريّات.

فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقولهما واختلطا وصارا في القيود

والأغلال، فأما مروانُ فأصابته ضربةٌ مُخطئة يومَ دخول البربر قرطبة وانتهابهم لها[٧] ، فتوفي رحمه الله. وأما يحيى بن محمد فهو حيٌّ على حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتي هذه،وقد رأيته أنا مراراً وجالسته في القصر قبل أن يُمْتَحَنَ بهذه المحنة، وكان أستاذي وأستاذَه الفقيهُ أبو الخيارِ اللغوي[٨]، وكان يحيى لعمري حُلواً من الفتيان نبيلاً.

وأما مَنْ دونَ هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيراً، ولكن لم نسمِّهم لخفائهم، وهذه درجةٌ إذا بلغ المشغوفُ إليها فقد انبتَّ الرجاءُ وانصرم الطَّمَعُ، فلا دواءَ له بالوصل ولا بغيره، إذ قد استحكم الفسادُ في الدماغ، وتَلفت المعرفةُ وتغلَّبَتِ الآفة، أعاذنا الله من البلاءِ بطَوْله، وكفانا النقمَ بمَنِّه.

الهوامش

(١) جميع الطبعات: غير العلل.

(٢) هذه النسبة "الابهري" تنصرف إلى غير واحد من فقهاء المالكية، فإن كان المقصود الابهري الكبير فهو أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح، الذي سكن بغداد وانتشر عنه مذهب مالك بالعراق وجمع بين القرآن وعلو الأسناد والفقه الجيد، وقصده الطلبة من كل فج فممن أخذ العلم عليه من الاندلسيين: أبو عبيد الجيوني والأصيلي (الذي بقي في بغداد ثلاث عشرة سنة) وأبو محمد القلعي وأبو القاسم الزهري، وكانت وفاة الابهري سنة ٣٧٥ (ترتيب المدارك ٤: ٤٦٦) وذكر ابن بشكوال أن محمد بن يوسف بن أحمد التاجر كانت له رحلة إلى المشرق وأخذ عن الابهري شرحيه لمختصر ابن عبد الحكم وعن هذا التاجر يحدّث أبو بكر جماهر بن عبد الرحمن الحجري (الصلة: ٤٩٢) ولجماهر هذا ابن اسمه محمد توفي سنة ٤٢٤ (الصلة: ٤٨٨)، ومع ذلك تبقى كلمة "بقي" عقبة في سبيل القطع بشيء في هذا الصدد.

(٣) برشيه: وشاع حبها.

(٤) ايماء إلى أنها قد تجن، وتوضع السلاسل في رجليها بدلاً من الخلاخيل، كما كانوا يفعلون بالمجانين.

(٥) ان صحّت هذه اللفظة فهي نسبة الى "البلينه" (Ballena وتعني الحوت الكبير أو دابة البحر (انظر المغرب ١: ١٩٣ والجذوة: ٢١٤)، ومن أمثال بحارة الأندلس إذا ريت البلين أبشر بالرمشكل (انظر أمثال العوام ٢: ٦؛ والرمشكل هو ذكر البلينة).

(٦) لم أجد لمحمد بن عباس ترجمة، ولكنه من أسرة بني أبي عبدة إحدى الأسر الكبيرة في الأندلس، وقد كان عيسى بن أحمد بن أبي عبدة وزيراً أيام الأمير عبد الله الأموي، واحتل رجال من هذه الأسرة مناصب مهمة في الدولة (انظر الحلة السيراء ١: ١٢٠-١٢١ والحاشية) وكان أحمد بن محمد بن أبي عبدة أيام عبد الرحمن الناصر على القيادة (البيان المغرب: ٢: ١٥٨) ومحمد بن عبد الله بن أبي عبدة، على الخزانة (المصدر نفسه) وعيسى بن أحمد بن أبي عبدة على الشرطة العليا (٢: ١٥٩)؛ ويطول بنا القول لو أردنا تتبع أفراد هذه العائلة وتقلبهم في المناصب.

(٧) بتروف: وانتهائهم اليها.

(٨) هو مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني القرطبي، كان ظاهرياً لا يرى التقليد، متواضعاً توفي سنة ٤٢٦ (الصلة: ٥٨٣ والجذوة: ٣٢٨ والبغية رقم: ١٣٦١).

-٢٧- باب السلوّ

وقد علمنا أن كلَّ ما له أول فلا بُد له من آخر، حاشا نَعيم الله عزّ وجلّ بالجنة لأوليائه وعذابه بالنار لأعدائه؛ وأما أعراض الدنيا فنافدةٌ فانية وزائلة مضمحلّة، وعاقبة كلِّ حُبٍّ إلى أحد أمرين: إما اخترامُ منيةٍ، وإما سلوٌّ حادثٌ. وقد نجد النفسَ تغلب عليها بعضُ القوى المصرَّفة معها في الجسد، فكما نجد نَفساً ترفُض الراحات والملاذَّ للعمل في طاعة الله تعالى وللكره في الدنيا، حتى تشتهر بالزهد، فكذلك نجد نفساً تنصرفُ عن الرغبة في لقاء شكلها للأَنَفَة المستحكمة المنافرة للغدر، أو استمرار سوء المكافأة في الضمير، وهذا أصحُّ السلوّ. وما كان من غير هذين الشيئين فليس إلا مذموماً. والسلوُّ المتولِّدُ من الهجر وطوله إنما هو كاليأسِ يدخلُ على النفس من بُلوغها إلى أملها، فيفتُر نزاعها ولا تقوى رغبتَها؛ ولي في ذمِّ السلو قصيدة منها: (من الطويل).

إذا ما رَنت فالحيُّ مَيْتٌ بلحْظها
وإن نطَقتْ قلتَ السَّلامُ[1] رِطابُ
كأنّ الهوى ضيفٌ ألمَّ بمُهجتي
فلحمي طَعامٌ والنّجيعُ شَرابُ

ومنها:

صَبورٌ على الأزْمِ[2] الذي العزُّ خَلْقُهُ
ولو أمطرتْهُ بالحريق سَحابُ

جَـــزوعٌ من الراحـــات إن أنتـــجتْ له
خُـــمـــولاً وفي بعضِ النعـــيم عـــذابُ

والسلوّ في التجزئة الجُمْلِيّة ينقسم قسمين:

١ـ سلوٌّ طبيعيٌّ وهو المسمّى بالنسيان، يخلو به القلب ويفرّغ به البال، ويكونُ الإنسان كأنه لم يحبَّ قط؛ وهذا القسمُ ربما لحق صاحبَهُ الذمُّ لأنه حادثٌ عن أخلاق مذمومة، وعن أسباب غير مُوجبةٍ استحقاقَ النسيان، وستأتي مُبيَّنة إن شاء الله تعالى، وربما لم تَلحقه اللائمة لعذر صحيح.

٢ـ والثاني سلوّ تطبعي، قَهر النفس، وهو المسمى بالتصبّر، فترى المرء يُظهر التجلُّدَ وفي قلبه أشدُّ لدغاً من وَخْز الإشْفى(٣)، ولكنه يرى بعضَ الشرِّ أهونَ من بعض(٤)، أو يحاسبُ نفسه بحُجةٍ لا تُصرف ولا تُكسر؛ وهذا قسمٌ لا يُذَمُّ آتيه،ولايُلامُ فاعله لأنه لا يحدُثُ إلا عن عَظيمة، ولا يقعُ إلا عن فادحة، إما لسببٍ لا يصيرُ على مثله الأحرارُ، وإما لخطبٍ لا مردَّ له تجري به الأقدارُ، وكفاك من الموصوف به أنه ليس بناسٍ لكنه ذاكر، وذو حنينٍ واقفٌ على العهد، ومتجرِّعٌ مرارات الصبر.

والفرق العامي بين المتصبر والناسي، أنك ترى المتصبرَ وإن أبدَى غاية الجَلَد وأظهر سَبَّ مَحبوبه والتحمُّلَ عليه، لا يحتملُ ذلك من غيره؛ وفي ذلك أقول قطعة منها: (من الطويل)

دعُـــوني وسَـــبِّي للحَـــبـــيب فـــإنني
وإن كنت أُبدي الهـــجـــر لستُ مُـــعـــاديا
ولكنَّ ســـبي للحَـــبـــيـــب كـــقـــولهم
أجـــادَ فلـقَّـــاه الإلهُ الدَّواهيـــــا(٥)

والناسي ضدّ هذا. وكل هذا فعلى قدر طبيعة الإنسان وإجابتها وامتناعها وقوة تمكّنِ الحبِّ من القلب أو ضعفه، وفي ذلك أقول ـ وسميت السالي فيه المتصبر ـ قطعة منها: (من الكامل)

نـاسي الأحـــبـــةِ غـــيـــرُ من يَسلوهمُ
حُكمُ المقـــصِّـــر غـــيـــر حكم المُقـــصِـــرِ

مـا قـاهرٌ للنفس عـدلُ[٦] مُـجـيـبـهـا
مـا الصـابرُ المطبـوع كـالمتـصـبِّـرِ

والأسبابُ الموجبة للسلوّ المنقسم هذين القسمين كثيرة، وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يُعذر السالي ويذم:

١ـ فمنها الملل ـ وقد قدمنا الكلام عليه ـ وإن من كان سُلوه عن ملل فليس حُبُه حقيقةً، والمتوسِّمُ به صاحبُ دعوى زائفة، وإنما هو طالب لذة ومُبادر شهوة، والسالي من هذا الوجه ناسٍ مذموم.

٢ـ ومنها الاستبدال، وهو وإن كان يُشبه الملل ففيه معنىً زائدٌ، وهو بذلك المعنى أقبحُ من الأول، وصاحبُهُ أحقُّ بالذم.

٣ـ ومنها حياءُ مركَّب يكونُ في المُحبِّ يحول بينه وبين التعريض بما يجد، فيتطاول الأمرُ وتتراخى المدة، ويبلى جديدُ المودة ويحدثُ السلو؛ وهذا وجهٌ إن كان السالي عنه ناسياً فليس بمنصف، إذ منه جاء سببُ الحرمان، وإن كان متصبّراً فليس بملومٍ، إذ آثر الحياءَ على لذّة نفسه. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الحياءُ من الإيمان والبَذاءُ من النفاق"[٧] ... وحدثنا أحمد بن محمد[٨] عن أحمد بن مطرف[٩] عن عبيد الله بن يحيى[١٠] عن أبيه عن مالك عن سلمة بن صَفوان الزرقي عن زيد بن طلحة بن رُكانة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لكل دين خُلق وخلق الإسلام الحياء"[١١].

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المُحبّ وابتداؤها من قِبله، والذمُّ لاصقٌ به في نسيانه لمن يُحب.

ثم منها أسبابٌ اربعة هنّ من قِبَل المحبوبِ، وأصلها عنده،.

٤ـ فمنها: الهجر، وقد مرَّ تفسير وجوهه؛ ولابد لنا أن نورد منه شيئاً في هذا الباب يوافقه.

والهجر إذا تطاول وكثر العتاب واتصلت المفارقة يكونُ باباً إلى السلوّ وليس مَن وصلك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر في شيءٍ لأنه الغدرُ الصحيح، ولا مَن مَال إلى غيرك ـ دون أن تتقدم لك معه صلةٌ ـ من الهجر أيضاً في شيء، إنما ذاك هو النفار ـ وسيقع الكلامُ في هذين الفصلين بعد هذا إن شاء الله تعالى ـ لكن الهجر ممن وصَلك ثم قطعك لتنقيل واشٍ أو لذنب واقعٍ أو لشيءٍ قام في النفس،ولم يَملْ إلى سواك ولا أقام أحداً غيرَكَ مُقَامَكَ؛ والناسي في هذا الفصل من المُحبين ملومٌ دون

سائر الأسباب الواقعة من المحبوب: لأنه لا تقع حالة تقيم العذر في نسيانه، وإنما هو راغبٌ عن وصلك، وهوشيء لا يلزمه. وقد تقدم من أذمَّة الوصال وحقِّ أيامه، ما يلزم التذكّرَ ويوجبُ عهدَ الألفة، ولكن السالي على جهة التصبّر والتجلّد ها هنا معذور إذا رأى الهجر متمادياً ولم يرَ للوصال علامةً ولا للمراجعة دلالةً؛ وقد استجاز كثيرٌ من الناس أن يُسمُّوا هذا المعنى غدراً إذ ظاهرهما واحد، ولكن علتيهما مختلفتان، فلذلك فرّقنا بينهما في الحقيقة؛ وأقول في ذلك شعراً منه: (من الطويل).

فكونوا كمن لم أدرِ قطُّ فإنّني
كآخرَ لم تدروا ولم تصِلوهُ

أنا كالصدى ما قالَ كلُّ أجيبه
فما شئتموه اليوم فاعتمدوه

وأقول أيضاً قطعةً، ثلاثة أبياتٍ قلتها وأنا نائم واستيقظتُ فأضفتُ إليها البيتَ الرابع: (من الوافر)

ألا للهِ دَهرٌ كنتَ فيه
أعزَّ عليّ من روحي وأهلي

فما برحتْ يدُ الهجرانِ حتى
طَواكَ بنهانها طيَّ السجلِّ

سَقاني الصبرَ هجرُكم كما قد
سَقاني الحُبَّ وصلُكمُ بِسَجْلِ

وجدتُ الوصلَ أصلَ الوجد حقاً
وطُولَ الهجر أصلاً للتسلي

وأقول أيضاً قطعة: (من الكامل المجزوء)

لوقيل لي من قَبْلِ ذا
أن سوف تسْلو مَنْ تودْ

لحلفتُ ألف قَسامة[١٢]
لا كانَ ذا أبدَ الأبَد

وإذا طويلُ الهجرِ ما
مَعَهُ من السُّلوان بُدّ

لــلــه هــجـــــــــــــــرُك إنــه

ســـاعٍ لبُـــرئـي مُـــجـــتــهـــدْ

فـــــــالآن أعــــــجبُ لـلـسـلـ

ـوِّ وكـنـتُ أعـــــــــجبُ لـلـجَـلـدْ

وأرى هـواك كـــــجَــــمـــــرةٍ

تحت الـرَّمـــــادِ لـهـــا مَـــددَ

وأقول: (من الكامل)

كـــانت جـــهنم في الحـــشَـــا من حُـــبكم

فـلقـــــد أراهـا نـارَ إبـراهـيــــمــــا

ثم الاسبابُ الثلاثةُ الباقية التي هي من قِبَل المحبوب، فالمتصبِّر من الناسِ فيها غيرُ مذموم، لما سنورده إن شاء الله في كل فصل عنها:

٥ـ فمنها نفارٌ يكونُ في المحبوبِ وانزواءٌ قاطعٌ للأطماع؛

خبر:

وإني لأخبر عني أني ألفتُ في أيام صباي أُلفةَ المحبة جارية نشأت في دارنا وكانت في ذلك الوقت بنتَ ستةَ عشر عاماً؛ وكانت غايةً في حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخَفَرها ودماثتها، عديمةَ الهزل، منيعةَ البذل، بديعةَ البشْر، مُسْبَلَةَ السِّتر، فقيدة الذام، قليلة الكلام، مغضوضةَ البصر، شديدة الحذر، نقيةً من العيوب، دائمةَ القطوب، كثيرةَ الوقار، مُسْتَلَذَّةَ النفار، لا توجَّهُ الأراجي نحوها، ولا تقفُ المطامعُ عليها، ولا مُعَرَّسَ للأمل لديها، فوجهها جالبٌ كلَّ القلوب، وحالها طاردٌ مَنْ أمَّها.. تزدان في المنع والبخل، ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، موقوفةٌ على الجدّ في أمرها غير راغبة في اللهو، على أنها كانت تحسنُ العودَ إحساناً جيداً، فجنحتُ إليها وأحببتها حباً مفرطاً شديداً، فسعيتُ عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمةٍ وأسمعَ من فيها لفظةً، غيرَ ما يقعُ في الحديثِ الظاهر إلى كلِّ سامع، بأبلغِ السعي فما وصلتُ من ذلك إلى شيء البتة.

فلعهدي بمُصْطَنع(١٣) كان في دارنا لبعض ما يُصْطَنَعُ له في دور الرؤساء تجمَّعَتْ فيه دخلتنا ودخلةُ أخي، رحمه الله، من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خَدَمِنا، ممن يخفُّ موضعُهُ ويلطفُ محله، فلبثنَ صدراً من النهار ثم تنقَّلْنَ إلى

قَصَبَةٍ كانت في دارنا مشرفةٍ على بستانِ الدار وَيُطَّلَعُ منها على جميع قرطبةَ وفُحُوصها، مفتحةِ الأبواب؛ فصرنَ ينظرن من خلال الشراجيب[١٤] وأنا بينهنّ، فإن لأذكرُ أني كنتُ أقصدُ نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها متعرّضاً للدنو منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك البابَ وتقصد غيره في لطف الحركة، فأتعمدُ أنا القصدَ إلى الباب الذي صارت إليه فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره؛ وكانت قد علمتْ كَلَفي بها ولم يشعر سائرُ النسوانِ بما نحن فيه، لأنهنَّ كنَّ عدداً كثيراً، وإذ كلهن ينتقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لايُطَّلَعْ من غيرها عليها، واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مُدلجٍ[١٥] في الآثار، ثم نزلن إلى البستان فرغبَ عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها، فأمَرَتْها فأخذت العودَ وسوَّته بخَفَرٍ وخجلٍ لا عهدَ لي بمثله، وإن الشيءَ يتضاعف حسنُهُ في عين مستحسنه،ثم اندفعتْ تغني بأبياتِ العباسِ بن الأحنف، حيثُ يقول[١٦]: (من البسيط).

إني طربتُ إلى شمسٍ إذا غَربَت
كانت مغاربُها[١٧] جوفَ المقاصيرِ
شمْسٌ مُمَثَّلةٌ في خَلْقِ جاريةٍ
كأنّ أعطافَها[١٨] طيُّ الطَّواميرَ
ليست من الإنس إلا في مناسبةٍ
ولا من الجنِّ إلا في التصاوير
فالوجهُ جوهرةٌ، والجسم عبهرةٌ
والرِّيح عنبرةٌ، والكلُّ من نور[١٩]
كأنها حين تخطو في مجاسدها
تخطو على البَيْضِ أو حَدِّ[٢٠] القوارير

فلعمري لكأن المضرابَ إنما يقعُ على قلبي،وما نسيتُ ذلك اليومَ ولا أنساهُ إلى يوم مفارقتي الدنياَ، وهذا أكثرُ ما وصلت إليه من التمكّن من رؤيتها وسماع كلامها؛ وفي ذلك أقول: (من الخفيف)

لا تلمها على النفارِ ومَنعِ الـ
ـوَصلِ مَا ذاكمُ لها بنكيرِ

هل يكونُ الهـلالُ غـيـرَ بعـيـدٍ
أو يكونُ الغـزالُ غـيـرَ نفـورِ

وأقول: (من الوافر)

منعتِ جمـالَ وجـهك مُـقلتـيّـا
ولفظُكِ قـد ضننتِ به عليّـا
أراكِ نذرتِ للرحـمن صَـومـاً
فلستِ تكلّمين اليـوم حـيّـا
وقـد غنيّتِ للعـبّـاس شـعـراً
هنيـئـاً ذا لعـبّـاسٍ هنيّـا
فلو يلقـاك عـبّـاسٌ لأضـحى
لفـوزٍ قـاليـاوبكم شـجـيّـا

ثم انتقلَ أبي رحمه الله من دُورنا المحدَثَة بالجانب الشرقي من قرطبة في رَبَضِ الزاهرة إلى دورنا القديمة في الجانب الغربيّ من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيامِ أمير المؤمنين محمدٍ المهديّ بالخلافة. وانتقلت أنا بانتقاله، وذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة، ولم تنتقلْ هي بانتقالنا لأمورٍ أوجبتْ ذلك. ثم شُغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنَّكَبات وباعتداء أربابِ دولته، وامتُحنَّا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمتِ الفتنة وألقَتْ باعَها وعَمَّتِ الناسَ وخصتنا، إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة، واتصلت بنا تلك الحالُ بعده إلى أن كانت عندنا جنازةٌ لبعضِ أهلنا فرأيتها - وقد ارتفعت الواعية[٢١] - قائمةً في المأتم وَسْطَ النساء في جملة البواكي والنوادب، فلقد أثارت وجداً دفيناً وحرَّكَتْ ساكناً، وذكرتني عهداً قديماً، وحبّاً تليداً، ودهراً ماضياً، وزمناً عافياً، وشهوراً خوالي، وأخباراً تواليَ، ودهوراً فواني، وأياماً قد ذهبت، وآثاراً قد دُثِرَتْ، وجدَّدَتْ أحزاني، وهيَّجَتْ بلابلي، على أني كنتُ في ذلك النهار مُرزءاً مصاباً من وجوه، وما كنتُ نسيتُ، ولكن زاد الشجى وتوقَّدَت اللوعةُ وتأكَّدَ الحزنُ وتضاعفَ الأسف، واستجلب الوجدُ ما كان منه كامناً فلبَّاه مجيباً، فقلت قطعة منها: (من الطويل)

يبكّي لميتٍ مــــات وهو مُكرَّمٌ
ولَلْحَيُّ أولَى بالدمــــوع الذوارفِ
فيــا عــجبــاً من آسفٍ لامــرىءٍ ثوى
ومــا هو للمــقْتــول ظلمــاً بآسف

ثم ضرب الدهرُ ضَرَبَانَهُ وأُجْلينا عن منازلنا، وتغلَّب علينا جندُ البربر، فخرجتُ عن قرطبةَ أولَ المحرم سنة أربع وأربعمائة، وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستةَ أعوامٍ وأكثر، ثم دخلتُ قرطبة في شوال سنة تسعٍ وأربعمائة، فنزلتُ على بعضِ نسائنا فرأيتها هنالك، وما كدت أن أميزها حتى قيل لي هذه فلانة ـ وقد تغير أكثر محاسنها وذهبت نضارتها، وفنيتْ تلك البهجةُ وغاض ذلك الماءُ الذي كان يُرَى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية، وذبل ذلك النُّوار الذي كان البصرُ يقصدُ نحوه منبهراً ويرتاد فيه متخيراً وينصرف عنه متحيراً، فلم يبق إلا البعضُ المنبىءُ عن الكلِّ، والخبر المخبر عن الجميع، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها وعدمها الصيانة التي كانت غُذيَتْ بها أيامَ دولتنا وامتداد ظلنا ولتبذُّلها في الخروج فيما لابدَّ لها منه مما كانت تُصانُ وترفع عنه قبل ذلك؛ وإنما النساءُ رياحين متى لم تُتعاهدْ نقصت، وبَنِيَّةٌ متى لم يهْتَبَلْ بها استهدمت؛ ولذلك قال من قال: إن حسن الرجال أصدقُ صدقاً واثبتُ أصلاً وأعتقُ جَوْدَةً لصبره على ما لو لقي بعضَه وجوهُ النساء لتغيرتْ أشدَّ التغيير، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكنِّ ـ وإني لو نلتُ منها أقلَّ وصلٍ وأنستْ لي بعضَ الأنس لخولطتُ طرباً أو لمتُّ فرحاً، ولكن هذا النفار الذي صبَّرني وأسلاني.

وهذا الوجه من أسباب السلو صاحبه في كلا الوجهين معذور وغير ملوم؛ إذ لم يقع تثبّتٌ يوجبُ الوفاءَ،ولا عهدٌ يقتضي المحافظة، ولا سَلَفَ ذمامٌ، ولاقَرَط تصادقٌ يلام على تضييعه ونسيانه.

٦ـ ومنها جفاءُ يكونُ من المحبوب، فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المُحبّ نفساً لها بعضُ الأنفة والعزة تسلّى، وإذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً أو دائماً أوكبيراً منقطعاً احتمل وأغْضِيَ عليه، حتى إذا كثر ودام فلا وفاءَ عليه(٢٢)، ولا يلام الناسي لمن يُحبّ في مثل هذا.

٧ـ ومنها الغدر، وهو الذي لا يحتمله أحد ولا يُغضي عليه كريم(٢٣)، وهو

المَسْلاَةُ حقّاً ولا يلام السالي عنه على أيّ وجهٍ كان، ناسياً أو متصبّراً، بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه.ولولا أن القلوب بيد مقلّبها لا إله إلا هو ولا يُكَلَّفُ المرء صرْفَ قلبه ولا إجالةَ استحسانه ـ لولا ذاك ـ لقلت ان المتصبر في سلوّه مع الغدر يكاد أن يستحقُّ الملامةَ والتعنيف؛ ولا أدْعَى إلى السلو عند الحر النفس وذي الحفيظة والسريّ السجايا، من الغدر، فما يصبر عليه إلا دنيء المروءةِ خسيسُ الهمةِ ساقطُ الأنفَة، وفي ذلك أقول قطعة منها: (من الوافر).

هَواكِ فلستُ أقريه غُرور
وأنتِ لكلِّ من يأتي سرير

وما إن تصبرين على حَبيب
فحولك منهمُ عددٌ كثير

فلو كنتُ الأميرَ لما تعاطى
لقاءك خوفَ جمعهم الأمير

رأيتُك كالأماني ما على مَن
يُلمُّ بها ولو كثُروا غُرور

ولا عنها لمن يأتي دفاعُ
ولو حُشد الأنام لهم[٢٤] نفير

٨ـ ثم سببٌ ثامن: وهو لا من المحب ولَا من المحبوب ولكنه من الله تعالى وهو اليأس، وفروعه ثلاثة، إما موت وإما بين لا يرجى معه أوبَة، وإما عارضَ يدخل على المتحابين بعلّة الحبِّ التي من أجلها وثق المحبوب فيغيّرُهَا؛ وكلٌّ هذه الوجوه من أسباب السلوّ والتصبر.

وعلى المحبِّ الناسي في هذا الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة من الغضاضة والذمّ واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل، وإن لليأس لعملاً في النفوس عجيباً، وثلجاً لحرّ الأكباد كبيراً؛ وكل هذه الوجوه المذكورة أولاً وآخراً فالتأني فيها واجبٌ، والتربصُ على أهلها حسن، فيما يمكن فيه التأني ويصحُّ لديه التربص، فإذا انقطعت الأطماعُ وانحسمت الآمالُ فحينئذ يقوم العذر.

وللشعراء فنٌّ من الشعر يذمُّون فيه الباكيَ على الدمن، ويثنون على المثابر على اللذّات، وهذا يدخلُ في باب السلوّ؛ ولقد أكثر الحسنُ بن هانيء في هذا الباب وافتخر به، وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح في أشعاره، تحكماً بلسانه

واقتداراً على القول، وفي مثل هذا أقول شعراً منه: (من الخفيف)

خلِّ هذا وبادرِ الدهرَ وارحلْ
في رياض الربى مطيَّ العُقارِ

وَاحْدُها بالبديع من نَغَمات الـ
ـعُود كيما تُحَث بالمزمار

إن خيراً من الوقوف على الدا
ر وقوفُ البَنانِ بالأوتار

وبدا النرجسُ البديع كصبٍّ
حائر الطرف مائلاً كالمدار

لونُه لونُ عاشقٍ مُستهامٍ
وهو لا شكّ هائمٌ بالبهار

ومعاذ الله أن يكونَ نسيانُ ما درس لنا طبعاً، ومعصيةُ الله بشرب الرّاح لنا خلقاً، وكسادُ الهمة لنا صفة، ولكنْ حسبنا قول الله تعالى، ومن أصدقُ من الله قيلاً في الشعراء: {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم في كلِّ وادٍ يَهيمونَ. وأنَّهم يقولونَ ما لا يَفْعَلُون}. (الشعراء: ٢٢٤) فهذه شهادة الله العزيز الجبَّار لهم، ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ.

وكان سبب هذه الأبيات أن "ضنى" العامريه، إحدى كرائم المظفر عبد الملك بن أبي عامر، كلفتني صَنعتها فأجبتها، وكنت أجِلُّها؛ ولها فيها صنعة في طريقة النشيد والبسيط[٢٥] رائقة جداً، ولقد أنشدتها بعضَ إخواني من أهل الأدب فقال سروراً بها: يجبُ أن توضعَ هذه في جملةِ عجائب الدنيا.

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية: منها ثلاثةٌ هي من المحب، اثنان منها يُذَمّ السالي فيهما على كلِّ وجه، وهما الملل والاستبدال، وواحدٌ منها يذم السالي فيه ولا يُذَمُّ المتصبر، وهو الحياء كما قدمنا. وأربعة من المحبوب، منها واحدٌ يُذَمُّ الناسي فيه ولا يذم المتصبر، وهو الهجر الدائم، وثلاثة لا يذم السالي فيها على أي وجه كان ناسياً أو متصبراً، وهي النفار والجفاء والغدر، ووجه ثامن وهو من قبل الله عزّ وجلّ، وهو اليأس إما بموتٍ أو بينٍ أو آفة تزمن، والمتصبرُ في هذه معذور.

وعني أخبرك أني جُبلتُ على طبيعتين لا يهنأني معهما عيشٌ أبداً، وإني لأبرمُ بحياتي باجتماعهما وأودُّ التغيّبَ[٢٦] من نفسي أحياناً لأفقد ما أنا بسببه من النكد

من أجلهما وهما: وفاء لا يشوبه تلوُّن قد استوت فيه الحضرةُ والمغيب، والباطنُ والظاهر، تولّدهُ الألفةُ التي لم تَعزف[٢٧] بها نفسي عما دَرِبَتْهُ، ولا تتطلعُ إلى عَدَمِ من صحبته، وعزة نفسٍ لا تقرُّ على الضيم، مهتمّة لأقلِّ ما يرد عليها من تغيّر المعارف، مؤثرةٌ للموت عليه؛ فكلٌّ واحدةٍ من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها وإني لأُجْفَى فأحتملُ، وأستعملُ الأناةَ الطويلة، والتلوُّمَ الذي لا يكادُ يُطيقه أحد، فإذا أفرط الأمرُ وحَمِيَتْ نفسي تصبَّرتُ، وفي القلب ما فيه، وفي ذلك أقول قطعةً منها:
(من البسيط)

لي خلتان أذاقاني الأسَى جرُعَاً
ونَغَّصا عيشتي واستهلكا جَلَدي

كِلتاهما تطَّبيني نحو جِبْلَتِها
كالصَّيد يَنشبُ بين الذئب والأسدِ

وفاء صدْقٍ فما فارقتُ ذا مِقَةٍ
فزال حُزني عليه آخرَ الأبدِ

وعزةٌ لا يَحلُّ الضَّيمُ ساحتَها
صرافة[٢٨] فيه بالأموال والوَلَدِ

ومما يُشبه ما نحن فيه، وإن كان ليس منه، أنَّ رجلاً من إخواني كنتُ أحللته من نفسي محلَّها، وأسقطتُ المؤونةَ بيني وبينه، وأعددته ذخراً وكنزاً، وكان كثيرَ السمع من كلِّ قائل، فدبَّ ذوو النميمة بيني وبينه، فحاكوا له وأنجحَ سعيُهُمْ عنده، فانقبضَ عما كنت أعهده. فتربصتُ عليه مدةً في مثلها أوْبُ الغائبِ ورضى العاتب، فلم يزددْ إلا انقباضاً فتركتُهُ وحالَهُ.

الهوامش

(١) السلام: الحجارة.

(٢) الأزم: الشدة والقحط.

(٣) الاشفى: المخرز.

(٤) هو من قول أبي خراش الهذلي:

حمدت الهي بعد عروة إذ نجا

خراش، وبعض الشر أهون من بعض

(٥) هذا سبٌّ للاستحسان والتعظيم كقولهم: قاتله الله ما أسخاه أو قولهم: "هوت أمه" وما اشبه.

(٦) في معظم الطبعات: غير، وهو خطأ واضح؛ وعند برشيه: عدّ.

(٧) ورد الحديث في أكثر الصحاح (انظر مثلاً البخاري ايمان: ٥٩،٥٧) ومسند أحمد ٢: ٥٦، ١٤٧، ٣٩٢.

(٨) هو ابن الجسور، وقد تقدم التعريف به، ص: ١٧٤.

(٩) هو أبو عمر أحمد بن مطرف بن عبد الرحمن المعروف بابن المشاط (توفي سنة ٣٥٢) (الجذوة: ١٣٨ وابن الفرضي ١: ٥٧ وهو الذي سمع من عبيد الله بن يحيى (انظر التعليق التالي) وَوَهِمَ الدكتور الطاهر مكي فظنه أحمد بن مطرف الجهني (انظر ص١٨٨ حاشية ١٩)، ولا شأن لهذا برواية الحديث.

(١٠) هو عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي وهو آخر من حدث عن أبيه يحيى بن يحيى عن مالك، وله رحلة إلى العراق، توفي سنة ٢٩٧ (الجذوة: ٢٥٠).

(١١) ورد الحديث في ابن ماجه (زهد: ١٧) والموطأ (حسن الخلق: ٩).

(١٢) القسامة: إذا وقعت تدمية في موضع ما دون أن يعرف القاتل على التحقيق ووجه أولياء القتيل التهمة إلى جماعة أو قرية، فإن المفروض أن يحلف خمسون رجلاً من المتهمين ببراءتهم، فتسقط بذلك التهمة.

(١٣) المصطنع: الوليمة أو الحفل.

(١٤) الشراجيب: الشبابيك أو الطاقات؛ ويكون الشباك مشرجباً إذا كان من خشب بهيئة مربعات، ومن أمثالهم العامية زاد فـ المشرجب بيت، ويشير المعتمد في شعره (الحلة ٢: ١٣٣) إلى قصر الشراجيب. (انظر الأمثال العامية ٢: ٢٣٠ وتعليقات المحقق على المثل رقم ١٠١٠).

(١٥) مدلج: رجل من كنانة كان مشهوراً بالقيافة، أي قصّ الأثر.

(١٦) انظر ديوان العباس بن الأحنف: ١١٣.

(١٧) الديوان: مشارقها.

(١٨) في الديوان: كأنما كشحها.

(١٩) رواية هذا البيت في الديوان:

فالجسم من لؤلؤ والشعر من ظلم
والنشر من مسكة والوجه من نور

(٢٠) الديوان: أو خضر.

(٢١) الواعية: الصراخ على الميت.

(٢٢) بعض الطبعات: فلا بقاء عليه.

(٢٣) قارن بما جاء في الموشى (ص: ١١٨): ثم ان أجهل الجهالة وأضل الضلالة صبر الفتى الأديب على غدر الحبيب، فإن الصبر على الخيانة والغدر يضع من المروءة والقدر.

(٢٤) برشيه: لها.

(٢٥) هذان يمثلان ثلثي "النوبة" الموسيقية عند زرياب وغيره، والعنصر الثالث الأخير فيها هو "الهزج".

(٢٦) معظم الطبعات: التثبت.

(٢٧) برشيه: تصرف.

(٢٨) بتروف: صرامة.

٢٨. باب المَوْت

وربما تزايد الأمر ورقّ الطبع وعظم الإشفاق فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا، وقد جاء في الآثار: "من عَشِقَ فعفَّ فمات فهو شَهيد"(١). وفي ذلك أقول قطعة منها: (من الوافر)

فإن أهلِكْ هوىً أهلِك شَهيداً
وإن تَمنُنْ بقيتُ قريرَ عَين(٢)
روى هذا لنا قومٌ ثقاتٌ
نأوا بالصدق عن جَرْحٍ ومَين

ولقد حدّثني أبو السريّ عمار بن زياد صاحبنا عمن يثق به: أن الكاتب ابنَ قزمان(٣) امتُحن بمحبة أسلم (بن أحمد بن سعيد بن قاضي الجماعة أسلم) بن عبد العزيز(٤) أخي الحاجب هاشم بن عبد العزيز(٥). وكان أسلم غايةً في الجمال، حتى أضجره لما به وأوقعه في أسباب المنيّة. وكان أسلم كثيرَ الإلمام به والزيارة له ولا علم له بأنه أصل دائه إلى أن توفي أسفاً ودنفاً(٦).

قال المخبر: فأخبرتُ أسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال: هلاّ أعلمتني؟ فقلت: ولم؟ قال: كنت والله أزيد في صلته وما أكاد أفارقه، فما عليّ في ذلك ضرر.

وكان أسلم هذا من أهل الأدب البارع والتفنن، مع حظّ من الفقه وافر، وذا بصارة في الشعر، وله شعر جيد، وله معرفة بالأغاني وتصرفها، وهو صاحب تأليفٍ

في طرائق غناء زرياب وأخباره، وهو ديوان عجيب جداً. وكان أحسن الناس خَلْقاً وخُلُقاً، وهو والد أبي الجعد الذي كان ساكناً بالجانب الغربي من قرطبة.

وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشيء بلغه في جهتها لم يكن يوجب السخطَ، فباعها، فجزعت لذلك جزعاً شديداً، وما فارقها النُّحول والأسف،ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سُلَّتْ، وكان ذلك سببَ موتها؛ ولم تَعشْ بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة. ولقد أخبرتني عنها امرأة أثق بها أنها لقيتها وهي قد صارت كالخيال نحولاً ورقة فقالت لها: أحسب هذا الذي بك من محبّتك لفلان، فتنفست الصعداء وقالت:والله لا نسيتُه أبداً، وإن كان جفاني بلا سبب. وماعاشت بعد هذا القول إلا يسيراً.

وأنا أخبرك عن أبي بكر أخي رحمه الله، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند[٧]، صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبي عامر محمد بن عامر، وكانت التي لا مَرْمَى وراءها في جمالها وكريم خلالها، ولا تأتي الدنيا بمثلها في فضائلها، وكانا في حدِّ الصبا وتمكّن سلطانه تُغضب كلٌّ واحدٍ منهما الكلمةُ التي لا قدر لها، فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب مدةَ ثمانية أعوام، وكانت قد شفّها حبه وأضناها الوجد فيه وأنحلها شدةُ كَلَفها به، حتى صارت كالخيال المتوهَّم[٨] دنفاً، لا يُلهيها من الدنيا شيء، ولا تُسَرُّ من أموالها ـ على عَرْضها وتكاثرها ـ بقليل ولا كثير إذ فاتها اتفاقه معها وسلامته لها، إلى أن توفي أخي رحمه الله في الطاعون الواقع بقرطبة في شهر ذي القعدة سنة إحدى وأربعمائة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، فما انفكّتْ منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام في اليوم الذي أكمل هو فيه تحت الأرض عاماً؛ ولقد أخبرتني عنها أمها وجميعُ جواريها أنها كانت تقول بعده، ما يقوِّي صبري ويُمسك رَمَقي في الدنيا ساعةً واحدة بعد وفاته إلا سروري وتيقُّني أنه لا يضمُّهُ وامرأةً مضجعٌ أبداً، فقد أمنتُ هذا الذي ما كنتُ أتخوّف غيره، وأعظم آمالي اليوم اللَّحاقُ به. ولم يكن قبلها ولا معها امرأة غيرها، وهي كذلك لم يكن لها غيره، فكان كما قدَّرَتْ، غفر الله لها ورضي عنها.

وأما خبر صاحبنا أبي عبد الله محمد بن يحيى (بن محمد) ابن الحسين التميمي، المعروف بابن الطبني[٩] : فإنه كان رحمه الله كأنه قد خُلق الحُسن على مثاله أوخُلِقَ من نفس كل من رآه، لم أشهد له مثلاًحُسناً وجمالاً وخُلُقاً وعفةً وتصاوناً وأدَباً وفهماً وحلماً ووفاء وسؤدداً وطهارة وكرما ودماثة وحلاوة ولباقة

وصبراً وإغضاء وعقلاً ومروءةً وديناً ودراية وحفظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة، و(كان) شاعراً مفلقاً حسن الخط وبليغاً مفنناً، مع حظٍّ صالح من الكلام والجدل، وكان من غلمان أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي[١٠] أستاذي في هذا الشأن، وكان بينه وبين أبيه اثنا عشر عاماً في السنّ، وكنت أنا وهو متقاربين في الأسنان، وكنا أليفين لا نفترق، وخدنين لا يجري الماء بيننا إلا صفاءً، إلى أن ألقت الفتنة جرانَها، وأرخت عزاليها، ووقع انتهابُ جند البربر منازلَنا في الجانب الغربي بقرطبة ونزولهم فيها، وكان مسكنُ أبي عبد الله في الجانب الشرقي ببلاط مُغيث، وتقلبتْ بي الأمور إلى الخروج عن قرطبة وسُكنى مدينة المريّة، فكنا نتهادى النظم والنثر كثيراً، وآخر ما خاطبني به رسالة في دَرْجها هذه الأبيات[١١]: (من الخفيف)

ليتَ شعري عن حَبْلِ ودِّك هل يُمـ
ـسي جديداً لديَّ غيرَ رَثيثِ
وأراني أرى مُحيَّاكَ يوماً
وأناجيكَ في بلاط مُغيث
فلو أن الديارَ يُنهضها الشو
قُ أتاك البلاطُ كالمستغيث[١٢]
ولو أن القلوبَ تستطيعُ سَيْراً
سار قلبي إليك سَيْرَ الحثيث
كن كما شِئت لي فإني مُحبٌّ
ليس لي غيرُ ذِكركم من حديث
لك عندي وإن تناسيتَ عَهدٌ
في صميم الفؤاد غيرُ نكيث

فكنا على ذلك إلى أن انقطعت دولة بني مروان وقُتل سليمان الظافر أمير المؤمنين، وظهرت دولة الطالبية[١٣] وبويع علي بن حمود الحسني المسمى بالناصر[١٤] بالخلافة، وتغلّب على قرطبة وتملّكها واستمدّ في قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار في أقطار الأندلس.

وفي إثر ذلك نكبني خيران صاحبُ المريّة، إذ نَقَلَ إليه مَن لم يتّق الله عزّ وجلّ من الباغين، وقد انتقم الله منهم،عني وعن محمد بن إسحاق صاحبي أنا نسعى في القيام بدعوة الدولة الأموية، فاعتقَلَنا عند نفسه أشهراً ثم أخرجنا على جهة التغريب

فصرنا إلى حصن القصر[١٥]، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبي، المعروف بابن المقفّل، فأقمنا عنده شهوراً في خير دارِ إقامة، وبين خير أهل وجيران، وعند أجلِّ الناسِ همةً وأكملهم معروفاً وأتمهم سيادة. ثم ركبنا البحر قاصدين بَلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد، وساكناه بها، فوجدت ببلنسية أبا شاكر عبد الواحد بن محمد بن موهب القبري[١٦] صديقنا، فنعى إليّ أبا عبد الله بن الطبني وأخبرني بموته رحمه الله، ثم أخبرني بعد ذلك بمُديدة القاضي أبو الوليد يونس بن عبد الله المُرادي[١٧] وأبو عمرو أحمد بن محرز أن أبا بكر المُصعب بن عبد الله الأزدي المعروف بابن الفَرضي[١٨] حدثهما ـ وكان والد المصعب هذا قاضيَ بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدي[١٩] وكان المُصعب لنا صديقاً وأخاً وأليفاً أيام طلبنا الحديث على والده وسائر شيوخ المحدّثين بقرطبة ـ قالا ،قال لنا المصعب: سألت أبا عبد الله بن الطبني عن سبب علته، وهو قد نحل وخفيت محاسنُ وجهه بالضنى فلم يبقَ إلا عين جوهرها المخبر عن صفاتها السالفة، وصار يكاد أن يُطيره النَّفَس، وقَرُب من الانحناء والشجا بادٍ على وجهه، ونحن منفردان. فقال لي: نعم، أخبرك أني كنت في باب داري بغدير ابن الشماس[٢٠] في حين دخول عليّ ابن حَمود قرطبة[٢١]، والجيوشُ واردةٌ عليها من الجهات تتسارب، فرأيت في جملتهم فتىً لم أقدّر أن للحُسن صورة قائمة حتى رأيته، فغلب على عقلي وهام به لُبي، فسألت عنه فقيل لي: هذا فلان ابن فلان، من سكان جهة كذا، ناحيةٍ قاصيةعن قرطبة بعيدة المأخذ، فيئست من رؤيته بعد ذلك، ولعمري يا أبا بكر لا فارقني حبه أو يوردَني رمسي، فكان ذلك.

وأنا أعرف ذلك الفتى وأدريه، وقد رأيته لكني أضربت عن اسمه لأنه قد مات، والتقى كلاهما عند الله عزّ وجلّ، عفا الله عن الجميع. هذا على أن عبد الله، أكرم الله نزله، ممن لم يكن له ولّهٌ قط، ولا فارق الطريقةَ المُثلى، ولا وطىء حراماً قط، ولا قارف منكراً، ولا أتى منهيّاً عنه يُخلّ بدينه ومروءته؛ ولا قارض من جفا عليه، وما كان في طبقتنا مثله.

ثم دخلت أنا قرطبة في خلافة القاسم بن حمود المأمون[٢٢] فلم أقدِّمْ شيئاً على قصد أبي عمر القاسم ابن يحيى التميمي أخي (أبي) عبد الله رحمه الله، فسألته عن حاله وعزّيته عن أخيه، وما كان أولى بالتعزية عنه مني، ثم سألته عن أشعاره ورسائله إذ كان الذي عندي منه قد ذهب بالنهب في السبب الذي ذكرته في صدر

هذه الحكاية، فأخبرني عنه أنه لمّا قَرُبَتْ وفاته وأيقن بحضور المنية ولم يشكّ في الموت دعا بجميع شعره وبكتبي التي كنت خاطبتُهُ أنا بها، فقطّعها كلها ثم أمر بدفنها. قال أبو عمر، فقلت له: يا أخي دعها تبقى. فقال: إني أقطعها وأنا أدري أني أقطع فيها أدباً كثيراً، ولكن لو كان أبو محمد ـ يعنيني ـ حاضراً لدفعتُها إليه تكونُ عنده تذكرةً لمودتي، ولكن لا أعلم أيَّ البلاد اضمرتْهُ ولا أحيٌّ هو أم ميت؛ وكانت نكبتي اتصلت به ولم يعلم مستقري ولا إلى ما آل إليه أمري؛ فمن مراثيَّ له قصيدة منها: (من المتقارب).

لئن ستـرتْك بُطونُ اللُّحود ... فوَجدي بعدَك لا يستترْ

قصدتُ ديارَكَ قَصْدَ المَشوق ... وللدهر فينا كرورٌ ومَرّ

فألفيتُها منك قفراً خَلاءً ... فأسكبتُ عيني عليكَ العِبَر

وحدثني أبو القاسم الهمذاني(٢٣) رحمه الله قال: كان معنا ببغداد أخٌ لعبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحُّون الفقيه(٢٤)، الذي عليه مدارُ الفتيا بقرطبة، وكان أعلمَ من أخيه وأجلَّ مقداراً، ما كان في أصحابنا ببغداد مثله، وأنه اجتاز يوماً بدرب قطنة(٢٥) ، في زقاق لا ينفذ، فدخل فيه فرأى في أقصاه جاريةً واقفة مكشوفةَ الوجه، فقالت له: يا هذا إن الدرب لا ينفذ، قال: فنظر إليها فهام بها. قال: وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها، وخشِيَ الفتنةَ فخرج إلى البصرة فمات عشقاً رحمه الله، وكان فيما ذكر من الصالحين.

حكاية لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر: أن رجلاً أندلسياً باع جاريةً كان يجدُ بها وجداً شديداً، لفاقة أصابته، من رجلٍ من أهل ذلك البلد، ولم يظنّ بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التتبعَ؛ فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسي تخرج، فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكّمه في ماله أجمع وفي نفسه، فأبى عليه، فتحمل عليه بأهل البلد فلم يُسْعِفْ منهم أحد، فكاد عقله أن يذهب، ورأى أن يتصدى إلى الملك، فتعرَّض له وصاح، فسمعه فأمر بإدخاله، والملك قاعدٌ في عليّة له مشرفة عالية، فوصل إليه، فلما مثل بين يديه أخبره بقصته واسترحمه وتضرع إليه، فرقّ له الملك، فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر، فقال له: هذا رجلٌ غريب وهو كما تراه،

وأنا شفيعه إليك، فأبى المبتاع وقال: أنا أشد حباً لها منه، وأخشى إن صرفتها إليه أن استغيثَ بك غداً وأنا في أسوأ من حالته، فأذم[٢٦] له الملك ومن حواليه من أموالهم، فأبى ولجّ واعتذر بمحبته لها، فلما طال المجلسُ ولم يروا منه البتة جُنوحاً إلى الاسعاف قال للأندلسي: يا هذا، مالك بيدي أكثر مما ترى، وقد جهدتُ لك بأبلغ سعي، وهو (ذا) تراه يعتذر بأنه فيها أحبُّ منك وأنه يخشى على نفسه شراً أنت فيه، فاصبر لما قضى الله عليك. فقال الأندلسي: فما لي بيدك حيلة؟ قال له: وهل ها هنا غير الرغبة والبذل؟ ما أستطيع لك أكثر. فلما يئس الأندلسيُّ منها جمع يديه ورجليه وانصبَّ من أعلى العلية إلى الأرض، فارتاع الملك وصرخ، فابتدر الغلمان من أسفل، فقضي أنه لم يتأذَّ في ذلك الوقوع كبيرَ أذى، فَصُعِدَ به إلى الملك، فقال: ماذا أردت بهذا؟ قال: أيها الملك، لا سبيلَ لي إلى الحياة بعدها، ثم همَّ أن يرمي نفسه ثانية، فمُنِعَ، فقال الملك: الله أكبر، قد ظهر وجه الحُكم في هذه المسألة، ثم التفت إلى المشتري فقال: يا هذا، إنك ذكرت أنك أودُّ لها منه وتخافُ أن تصيرَ في مثل حاله، فقال: نعم، قال: فإن صاحبك هذا أبدى عُنوانَ محبته وقَذَفَ بنفسه يُريد الموت لولا أنَّ الله عزّ وجلّ وقاه، فأنت قُمْ فصحِّحْ حبك،وترامَ من أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك، فإن متَّ فبأجلك وإن عشتَ كنتَ أولى بالجارية، إذ هي في يدك ويمضي صاحبك عنك وإن أبيتَ نزعتُ الجاريةَ منك رغماً ودفعتها إليه، فتمنّع ثم قال: أترامَى، فلما قرب من الباب ونظر إلى الهويّ تحته رجع القهقرى، فقال له الملك، هو والله ما قلت، فهمَّ ثم نكل، فلما لم يقدم قال له الملك: لا تتلاعبْ بنا، يا غلمان، خذوا بيديه وارموا به إلى الأرض، فلما رأى العزيمة قال: أيها الملك، قد طابت نفسي بالجارية، فقال له: جزاك الله خيراً، فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها، وانصرفا.

الهوامش

(١) يروى: "من عشق فعفّ فكتم فمات، مات شهيداً" ويروى "من عشق فعف ثم مات مات شهيداً" ويروى "فهو شهيد". وقد روي من طريق سويد بن سعيد مرفوعاً وأنكره ابن معين، ورواه غيره، وأخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور، والخطيب في تاريخ بغداد وابن عساكر في تاريخ دمشق، ووهنه ابن القيم في زاد المعاد (٣: ٣٢٤ والجواب الكافي: ١٧٤) وقول ابن حزم "في الآثار" دليل على أنه لا يصححه (انظر كشف الخفاء ٢: ٣٤٥ والاخبار الموضوعة: ٣٥٢) ومع ذلك نجد ابن الجوزي (ذم الهوى: ٣٢٦) يعتبره مصحجاً؛ وورد في الموشي: ٧٥ "من تعشق فعفّ فهو شهيد" (ولا ذكر فيه للموت) وانظر تزيين الأسواق ١: ٦ .

(٢) اقتبس هذين البيتين العجلوني في كشف الخفاء ٢: ٣٤٥ وملاّ علي القاري فى الأخبار الموضوعة: ٣٥٣ .

(٣) ابن قزمان الكاتب: لعله أحمد بن كليب النحوي (انظر الجذوة: ١٣٤ والبغية رقم: ٤٦٢ وانباه الرواة ١: ٩٦ ومعجم الأدباء ٤: ١٠٨ والمنتظم: ٨: ٨٣ (وجعل وفاته سنة ٤٢٦) وبغية الوعاة ١: ٣٥٤ وتزيين الأسواق ٢: ٦، ومصارع العشاق ١: ٢٩٧ والنجوم الزاهرة ٤: ٢٨١ وتاريخ ابن كثير ١٢: ٣٨ وذم الهوى: ٥٥٧) وقصة أحمد بن كليب وأسلم كما رواها الحميدي عن ابن حزم عن محمد بن الحسن المذحجي وردت في الجذوة والبغية والمنتظم ومصارع العشاق وذم الهوى ومعجم الأدباء وتزيين الأسواق؛ وديوان الصبابة: ٢٤٤؛ وسأوردها ملحقة بالكتاب (انظر الملحق: ٢).

(٤) هو أسلم بن أحمد بن سعيد بن أسلم بن عبد العزيز: (وجده أسلم بن عبد العزيز كان قاضى الجماعة بالأندلس أيام عبد الرحمن الناصر وتوفي سنة ٣١٩ وهذا الجد هو أخو هاشم الحاجب) كان له أدب وشعر، وشهر بتأليفه في أغاني زرياب الذي سيذكره ابن حزم في مايلي (انظر الجذوة: ١٦٢ والبغية رقم: ٥٧٠)؛ والزيادة بين معقفين ضرورية وإلا ذهب الظن بأن ابن كليب النحوي عشق قاضي الجماعة، كما وهم بعض المحققين في ذلك، وإنما هو عشق أسلم الحفيد، الذي كان معاصراً لمحمد بن حسن المذحجي، ويدرس على محمد بن خطاب النحوي المتوفى سنة ٣٩٨ وقد فرق الحميدي بين الاسلمين بوضوح وجعل قصة الحب متعلقة بالحفيد منهما نصاً، وهو ادزى برواية ابن حزم.

(٥) هاشم بن عبد العزيز: كان خاصاً بالأمير محمد بن عبد الرحمن يؤثره بالوزارة ويرشحه مع بنيه ومفرداً للقيادة والامارة، وكان ذا خلال نبيلة من بأس وجود وفروسية وكتابة وشعر ونكبه المنذر بعد ذلك (الحلة السيراء ١: ١٣٧ والمغرب ٢: ٩٤).

(٦) هذه الرواية هنا غريبة: مع أن ابن حزم نفسه في روايته عن محمد بن الحسن المذحجي يذكر أن أشعار ابن كليب في أسلم تنوشدت في الأعراس، وانقطع اسلم عن جميع مجالس الطلب، ثم يروي حكايات عن تحيل ابن كليب للقائه... الخ (انظر الملحق: ٢).

(٧) انظر ليفي بروفنسال: (Histoire de l'Espagne Musulmane, .(Vol II, p. 64, n3.

وقند هذا (ويكتبه بروفنسال Kandوأحسبه خطأ) هو الذي استرد مدينة سالم في أيام الناصر (سنة ٩٤٧/٣٣٦) ويقول بروفنسال في تعليقه: "علينا ألا نخلط بين قند هذا وبين شخص آخر اسمه "قند الأكبر" وكان أيضاً مولى لعبد الرحمن الناصر".

(٨) بتروف: المتوسم؛ وتابعه على ذلك آخرون.

(٩) بنو الطبني أصلهم من منطقة الزاب في المغرب (الجزائر حالياً)، أول من بنى بيت شرفهم بالاندلس أبو مضر زيادة الله بن علي الطبني إذ كان نديم محمد بن أبي عامر، وقدترجم ابن بسام لعدد منهم (انظر ١/١: ٥٣٥-٥٤٧) وهناك فرع آخر من الطبنيين وهم: محمد بن حسين الطبني وعقبه (الصلة: ٥٦٢ والجذوة: ٤٧) وقد كان لمحمد ابن هو يحيى، فأعقب يحيى ثلاثة من الأولاد وهم: أبو بكر ابراهيم (الجذوة: ١٤٩) وأبو عبد الله محمد، وهو هذا الذي كان صديقاً لابن حزم (الجذوة: ٩٢) وأبو عمر القاسم وكان أيضاً أديباً شاعراً (الجذوة: ٣١٣ وسيذكره ابن حزم في مايلي: ٢٦٣).

(١٠) قد مر التعريف به ص: ١٩٦ .

(١١) أورد الحميدي هذه الأبيات في الجذوة: ٩٢ (وانظر البغية رقم: ٣١٦).

(١٢) وقع هذا البيت بعد الذي يليه في الجذوة.

(١٣) دولة الطالبية يعني دولة بني حمود لأنهم ينتسبون إلى علي بن أبي طالب.
(١٤) انظر أخبار علي بن حمود (قتل سنة ٤٠٨) في الجذوة: ٢١ وأعمال الاعلام: ١٢٨ والبيان المغرب ٣: ١١٩.
(١٥) حصن القصر (Aznalcazar) يقع إلى الجنوب الغربي من اشبيلية (ترجمة الروض: ٧٣ التعليق: ١).
(١٦) القبري نسبة إلى مدينة قبرة (Cabra) بالأندلس، وقد مر التعريف به ص: ١١٩.
(١٧) هو ابن الصفار، وقد مر التعريف به ص: ٢١٤
(١٨) أبو بكر المصعب بن عبد الله بن محمد الأزدي (ولد القاضي أبي الوليد المعروف بابن الفرضي مؤلف تاريخ العلماء والرواة بالأندلس) وصفه الحميدي بأنه محدث إخباري شاعر ولي الحكم بالجزيرة (الجذوة: ٣٣٠ والبغية رقم: ١٣٧٦ والصلة: ٥٩٣).
(١٩) قام محمد بن هشام الملقب بالمهدي على هشام المؤيد في جمادى الآخرة سنة ٣٩٩، فإذا كانت ولاية ابن الفرضي القضاء له على بلنسية صحيحة فلا بد انها كانت فترةقصيرة، لأن المهدي لبث منذ قيامه إلى أن قتل ستة عشر شهراً، وقد ذكر ابن بشكوال أيضاً أن المهدي استقضى ابن الفرضي بكورة بلنسية (الصلة: ٢٤٨).
(٢٠) بغدير ابن الشماس: القراءة مضطربة في مختلف الطبعات، وما اثبته هو قراءة بروفنسال، انظر الأندلس: ٣٥٦ (التعليق رقم: ٣) ويقول: ان غدير ابن الشماس حي من أحياء قرطبة، ويحيل القارىء على التكملة لابن الأبار تحقيق ابن أبى شنب (الجزائر ١٩٢٠) رقم: ٥١٣، ص: ٢٣٣ (ص: ١٩٣ من طبعة القاهرة).
(٢١) دخلها في الثاني والعشرين من المحرم سنة ٤٠٧.
(٢٢) حكم القاسم بن حمود قرطبة بعد مقتل أخيه (٤٠٨) وبقي حتى شهر ربيع الأول سنة ٤١٢ حين ثار عليه ابن أخيه (يحيى بن علي) فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال.
(٢٣) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمذاني (أو الهمداني) الوهراني المعروف بابن الخراز، رحل إلى المشرق ولقي الأبهري أبا بكر وغيره، وكان رجلاً صالحاً منقبضاً، داره ببجانة، وكان معاشه من ثياب يبتاعها ببجانة ويقصرها ويحملها إلى قرطبة فتباع له ويبتاع بثمنها ما يصلح لبجانة، ويجلب معه كتبه فتقرأ عليه في خلال ذلك، وكان يرد قرطبة كل عام إلى ان وقعت الفتنة، وتوفي سنة ٤١١، روى عنه ابن حزم وابن عبد البر وغيرهما (الصلة: ٣٠٥ والجذوة ٢٥٦ والبغية رقم: ١٠٢٢) قلت: وقد ورد "الهمذاني" بالذال المعجمة بضبط ابن بشكوال، وفي الجذوة بالمهملة، والأول أرجح، رغم أنه وهراني.
(٢٤) هو أبو محمد عبد الله بن يحيى بن أحمد المعروف بابن دحون (ـ ٤٣١هـ). كان من جلة الفقهاء وكبارهم عارفاً بالفتوى حافظاً للرأي على مذهب مالك وأصحابه عارفاً بالشروط وعللها، عمر وأسنّ وانتفع الناس به (الصلة: ٢٦٠).
(٢٥) لم يذكر لسترانج في كتابه:
(Baghdad During the Abbasid Caliphate).
درباً بهذا الاسم؛ وأقرب ما وجدته هنالك "دار القطنية" (أي قصر سوق القطن) فلعل هناك درباً مجاورة له كانت تسمى "درب القطنية" (٢٦٥) ويلي هذا من حيث شكل الكلمة "درب قحطبة" (١٤٠، ١٤١).
(٢٦) أذموا له: أي تكفلوا له بشيء من أموالهم؛ وعند بتروف: فرام؛ وقرأها برشيه حسب المعنى: فرغبه.

ـ٢٩ـ
باب قُبحِ المَعْصيةِ

قال المصنِّف رحمه الله تعالى: وكثير من الناس يُطيعون أنفسهم ويعصونَ عقولهم، ويتّبعون أهواءهم، ويرفضون أديانهم، ويتجنّبون ما حضَّ الله تعالى عليه ورتّبه في الألباب السليمة من العفّة وترك المعاصي ومقارعة(١) الهوى، ويخالفون الله ربهم ويوافقون إبليس فيما يُحبه من الشهوة المُعطبة، فيواقعون المعصيةَ في حبهم.

وقد علمنا أن الله عزّ وجلّ ركّب في الإنسان طبيعتين متضادتين: إحداهما لا تشير إلاّ بخير ولا تحضّ إلاّ على حَسَن، ولا يتصور فيها إلاّ كلّ أمر مرضيّ، وهي العقل، وقائده العدل؛ والثانية ضدٌّ لها، لا تشيرُ إلاّ إلى الشهوات، ولا تقُودُ إلاّ إلى الردى، وهي النفس، وقائدها الشهوة، والله تعالى يقول: {إن النفسَ لأمَّارةٌ بالسُّوء} (يوسف: ٥٣) وكنى بالقلب عن العقل فقال: {إنّ في ذلك لَذكْرَى لمنْ كان له قلبٌ أو ألقى السَّمعَ وهو شهيد} (ق: ٣٧) وقال تعالى: {وحَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيَّنَهُ في قُلوبِكُمْ} (الحجرات: ٧). وخاطب أولي الألباب.

فهاتان الطبيعتان قُطبان في الإنسان، وهما قوّتان من قوى الجسد الفعّال بهما، وَمَطْرَحانِ من مَطَارحِ شُعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العلويين(٢)، ففي كلِّ جسدٍ منهما حظُّه على قَدر مقابلته لهما في تقدير الواحد الصَّمَد، تقدَّست أسماؤه، حين خلقه وهيأه؛ فهما يتقابلان أبداً ويتنازعان دأباً، فإذا غلَب العقلُ النفسَ ارتدع الانسانُ وقمع عوارِضَهُ المدخولةَ واستضاءَ بنورِ الله واتَّبع العدلَ، وإذا

غلبت النفسُ العقلَ عميتْ البصيرة، ولم يَضِحِ الفرقُ بين الحَسَنِ والقبيح، وعظُم الالتباس وتردّى في هُوة الردى ومهواة الهلكة، وبهذا حَسُنَ الأمر والنهي، ووجب الامتثالُ[٣] ، وصحَّ الثوابُ والعقاب، واستحق الجزاء. والروحُ واصلٌ بين هاتين الطبيعتين، وموصلٌ ما بينهما، ومحلٌ[٤] الالتقاء بهما، وإن الوقوف عند حد الطاعة لمعدومٌ إلا بطول الرياضة وصحة المعرفة ونفاذ التمييز، ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن ومدخلة الناس جملةً والجلوسُ في البيوت، وبالحرى أن تقع السلامةُ المضمونة أو يكونَ الرجل حَصوراً لا أربَ له في النساء ولا جارحةً له تعينه عليهنّ. وقديماً ورد: "من وُقِيَ شرَّ لقْلقه وقَبْقَبه وذَبْذَبه فقد وُقيَ شَرَّ الدنيا بحذافيرها"[٥]؛ واللقلق: اللسان، والقبقب: البطن، والذَبذب: الفرج.

ولقد أخبرني أبو حفص الكاتب[٦]، وهو من ولد رَوح بن زنباع الجذامي[٧]، أنه سمع بعض المتسمِّيْن باسم الفقه من أهل الرواية المشاهير، وقد سئل عن هذا الحديث فقال: القبقب: البطيخ.

وحدثنا أحمد بن محمد بن أحمد[٨] ثنا وهب بن مَسرة[٩] ومحمد بن أبي دليم[١٠] عن محمد بن وضّاح[١١] عن يحيى بن يحيى[١٢] عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث طويل: "من وقاه الله شر اثنتين دخل الجنة" فسئل عن ذلك فقال: "ما بين لحْييه وما بين رجليه"[١٣].

وإني لأسمع كثيراً ممن يقول: الوفاءُ في قمع الشهوات في الرجال دون النساء، فأُطيلُ العَجَبَ من ذلك، وإن لي قولاً لا أحول عنه: الرجالُ والنساء في الجنوح إلى هذين الشيئين سواء، وما رجلٌ عَرَّضَتْ له امرأةٌ جميلةٌ بالحبِّ وطال ذلك، ولم يكن ثمَّ من مانعٍ، إلا وقع في شَرَك الشيطان، واستهوتْهُ المعاصي، واستفزَّه الحرص وتَغوَّلَهُ الطمع، وما امرأةٌ دعاها رَجلٌ بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته، حتماً مَقضيّاً وحكماً نافذاً لا محيدَ عنه البتة[١٤].

ولقد أخبرني ثقةٌ صَدْقٌ من إخواني من أهل التمام في الفقه والكلام والمعرفة وذو صلابة في دينه، أنه أحبَّ جاريةً نبيلة أديبة ذات جمال بارع، قال: فعرَّضتُ لها فنفرتْ، ثم عرَّضْتُ فأبت، فلم يزل الأمر يطول وحبُّها يزيد، وهي لا تطيع البتة، إلى أن حملني فرط حبي لها مع عَمى الصِّبا على أن نذرتُ أني متى نلتُ منها مرادي أتوب إلى الله توبةً صادقة؛ قال: فما مرَّت الأيامُ والليالي حتى أذعنت بعد شِماسٍ ونِفار؛ فقلت له: أبا فلانٍ، وفيتَ بعهدك؟ فقال: أي والله، فضحكت.

وذكرت بهذه الفعلة ما لم يزلْ يُتَدَاوَلُ في أسماعنا من أن في بلاد البربر التي تجاورُ أندلسنا يتعهد[٢٥] الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد أن يتوبَ إلى الله، فلا يُمْنَعُ من ذلك، وينكرون على من تعرَّضَ له بكلمةٍ ويقولون له: أتَحْرِمُ رجلاً مسلماً التوبة.

قال: ولعهدي بها تبكي وتقول: والله لقد بلَّغتني مبلغاً ما خَطَر قطّ لي ببال، ولا قدرتُ أن أجيبَ إليه أحداً.

ولستُ أُبعدُ أنْ يكونَ الصلاحُ في الرجال والنساء موجوداً، وأعوذ بالله أن أظنَّ غير هذا، وإني رأيت الناس يَغلطون في معنى هذه الكلمة، أعني "الصلاح" غلطاً بعيداً. الصحيحُ في حقيقة تفسيرها أن الصالحةَ من النساء هي التي إذا ضُبطَت انضبطت، وإذا قُطعَتْ عنها الذرائعُ أمسكت، والفاسدة هيَ التي إذا ضُبطتْ لم تنضبط، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهِّل الفواحشَ تحيَّلت في أن تتوصَّل إليها بضروب من الحيَل؛ والصالح من الرجال من لا يُداخلُ أهل الفسوق ولا يتعرَّضُ إلى المناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفعُ طرفه إلى الصور البديعة التركيب؛ والفاسقُ من يعاشرُ أهلَ النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة، ويتصدّى للمشاهد المؤذية، ويحبُّ الخلوات المهلكات[١٦]؛ والصّالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تُحرّك، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرقُ كلَّ شيء.

وأما امرأة مُهْمَلَةٌ ورجل متعرِّضٌ فقد هلكا وتلفا؛ ولهذا حُرِّمَ على المسلم الالتذاذُ بسماع نغمة امرأةٍ أجنبية، وقد جُعلَت النظرةُ الاولى لك والأخرى عليك، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَن تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر"[١٧]. وإن فيما ورد من النهي عن الهوى بنصٍّ التنزيل لشيئاً مقنعا؛ وفي إيقاع هذه الكلمة، أعني "الهوى" اسماً على معان، وفي اشتقاقها عند العرب دليل على ميل النفوس وهويّها إلى هذه المقامات. وإن المتمسّك عنها مُقارعٌ لنفسه مُحاربٌ لها.

وشيء أصفه لك تراه عياناً: وهو أني ما رأيتُ قط امرأةً في مكانٍ تحسُّ أن رجلاً يراها أو يسمعُ حسَّها إلا وأحْدَثَتْ حركةً فاضلةً كانت بمعزل، وأتتْ بكلامٍ زائدٍ كانت عنه في غُنْيَةٍ، مخالفَيْن لكلامها وحركتها قبل ذلك؛ ورأيتُ التَّهَمُّم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيها ظاهراً عليها لا خفاءَ به؛ والرجالُ كذلك إذا أحسوا

بالنسـاء. وأما إظهارُ الزينة وترتيبُ المشي واصطناع المرح عند خُطور المرأة بالرجل واجتيـاز الرجل بالمرأة فهذا أشهرُ من الشمس في كل مكانٍ. والله عزّ وجلّ يقول: {قلْ للمؤمنينَ يَغُضُّوا من أبصارهمْ ويحفظوا فُروجَهُمْ} وقال تقدَّست أسماؤه: {ولا يَضْرِبْنَ بأَرْجُلهنَّ ليُعْلَمَ ما يُخفين من زينتهنَّ} (النور: ٣٠ ـ ٣١). فلولا علم الله عزّ وجلّ بدقة[١٨] إغماضهن في السعي لإيصالِ حُبِّهنَّ إلى القلوب، ولطف كيدهنّ في التحيّل لاستجلاب الهوى، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيدِ الغامضِ الذي ليس وراءه مرمى، وهذا حدُّ التعرض فكيف بما دونه.

ولقد اطلعت من سرِّ مُعْتَقَدِ الرجالِ والنساء في هذا على أمر عظيم، وأَصْلُ ذلك أني لم أُحْسِنْ قطُّ بأحدٍ ظناً في هذا الشأن، مع غَيرة شديدةٍ رُكِّبَتْ فيَّ.

وحدَّثنا أبو عمر أحمد بن محمد بن أحمد، ثنا أحمد، ثنا محمد بن عيسى بن رفاعة، حدّثنا علي بن عبد العزيز، حدّثنا أبو عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الغَـيْـرَةُ من الإيمان"[١٩] فلم أزل باحثاً عن أخبارهنَّ كاشفاً عن أسرارهنَّ،وكن قد أنسن مني بكتمان، فكنَّ يطلعنني على غوامض أمورهن. ولولا أن أكونَ منبِّهاً على عوراتٍ يُستعاذ بالله منها لأوردتُ من تنبههن في الشرِّ ومكرهن فيه عجائبَ تُذْهِلُ الألباب.

وإني لأعرفُ هذا وأتيقَّنه، ومع هذا يعلم الله ـ وكفى به عليماً ـ أني بريء الساحة، سليم الأديم، صحيحُ البشرة، نقي الحُجْزَة، وإني أقسم بالله أجلَّ الأقسام إني ما حللتُ مِئزري على فرجٍ حرامٍ قط، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلتُ إلى يومي هذا، والله المحمود على ذلك، والمشكورُ فيما مضى، والمستعصَمُ فيما بقي.

حدثنا القاضي أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري[٢٠] ـ وإنه لأفضل قاضٍ رأيته ـ عن محمد بن إبراهيم الطليطلي[٢١]، عن القاضي بمصر بكر بن العلاء[٢٢]، في قول الله عزّ وجلّ: {وأمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} (الضحى: ١١) أن لبعض المتقدمين فيه قولاً، وهو أن المسلم يكون مخبراً عن نفسه بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه التي هي من أعظم النعم، ولاسيما في المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه.

وكان السبب فيما ذكرته أني كنت وقتَ تأجُّج نارِ الصِّبا وشرَّة الحداثة وتمكّن غرارةِ الفتوة مقصوراً محظراً عليَّ بين رقباء ورقائب؛ فلما ملكتُ نفسي وعقلتُ

صحبتُ أبا علي الحسين بن علي الفاسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي[٢٣] شيخنا وأستاذي رضي الله عنه، وكان أبو علي المذكور عاقلاً عاملاً، ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح وفي الزهد في الدنيا والاجتهاد للآخرة،وأحسبه كان حَصُوراً لأنه لم تكنْ له امرأةٌ قط، وما رأيتُ مثله جملةً علماً وعملاً وديناً وورعاً، فنفعني الله به كثيراً وعلمت موقعَ الإساءةِ وقبح المعاصي. ومات أبو عليّ رحمه الله في طريق الحج.

ولقد ضمّني المبيتُ ليلةً في بعض الأزمان عندِ امرأة من بعض معارفي مشهورةٍ بالصلاح والخير والحزم، ومعها جاريةٌ من بعض قراباتها من اللاتي قد ضمتها معي النشأةُ في الصبا، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة، وكنت تركتها حين أُعْصَرَتْ ووجدتها قد جرى على وجهها ماءُ الشباب ففاض وانساب، وتفجّرت عليها ينابيعُ الملاحة فتردَّدَتْ وتحيَّرَتْ، وطلعتْ في سماء وجهها نجومُ الحُسن فأشرقتْ وتوقَّدتْ، وانبعثت في خديها أزاهيرُ الجمال فتمَّتْ واعتمَّتْ، فأتت كما أقول: (من البسيط).

خريدةٌ صاغها الرحمنُ من نور
جلَّتْ ملاحتُها عن كلِّ تقدير
لو جاءني عَملي في حُسن صورتها
يومَ الحساب ويومَ النفخ في الصُّور
لكنتُ أحظى عباد اللهَ كلِّهم
بالجنَّتين وقُرْب الخُرَّد الحُور

وكانت من أهل بيت صباحة، وقد ظهرت منها[٢٤] صورةٌ تُعْجِزُ الوصّافَ،وقد طَبَّقَ وصفُ شبابها قرطبة، فبتُّ عندها ثلاثَ ليال متوالية، ولم تُحْجَبْ عنّي على جاري العادة في التربية؛ فلعمري لقد كاد قلبي أن يصبو ويثوبَ إليه مرفوضُ الهوى، ويعاوده منسيُّ الغزل. ولقد امتنعتُ بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لبي أن يزدهيهُ الاستحسانُ؛ ولقد كانت هي وجميع أهلها ممن لا تتعدّى الأطماعُ إليهن، ولكنَ الشيطان غير مأمونِ الغوائل، وفي ذلك أقول: (من الكامل المجزوء)

لا تُتبعِ النفسَ الهوى
وَدَعِ التعرُّضَ للمِحَنْ
إبليسُ حيٌّ لم يُمتْ
والعَينُ بابُ للفِتَنْ

وأقول: (من المجتثّ).

وقائلٍ لِيَ: هذا
ظنٌّ يزيدك غيّا
فقلت: دَع عنك لومي
أليس إبليسُ حيّا

وأقول: (من المجتثّ).

وقائلٍ لِيَ: هذا
ظنٌّ يزيدك غيّا
فقلت: دَع عنك لومي
أليس إبليسُ حيّا

وما أورد الله تعالى علينا من قصة يوسف بن يعقوب وداود بن يَشّي(٢٥) رُسل الله عليهم السلام إلاّ ليعلمنا نُقصانَنا وفاقتنا إلى عصمته، وأن بنيتنا مدخولةٌ ضعيفة، فإذا كانا صلّى الله عليهما وهما نبيان رسولان ابنا أنبياء رُسلٍ ومن أهل بيت نبوة ورسالة، مكرَّمين(٢٦) في الحفظ،مغموسين في الولاية، محفوفَيْن بالكلاءة، مؤيَّدين بالعصمة، لا يُجعلُ للشيطان عليهما سبيل، ولا فتح لوسواسه نحوهما طريق، وبلغا حيثَ نصَّ الله عزَّ وجل علينا في قرآنه المنزَّل بالجبلة المؤصَّلة، والطبع البشري والخلقة الأصيلة، لا بتعمد الخطيئة ولا القصد إليها - إذ النبيُّون مبرؤون من كلِّ ما خالف طاعةَ الله عزَّ وجل، لكنه استحسان طبيعي في النفس للصور - فمن ذا الذي يَصف نفسه بملكها ويتعاطى ضَبطها إلا بحول الله وقوته؟ وأول دمٍ سُفك في الأرض فدمُ أحد ابني آدم على سبب المنافسة في النساء(٢٧)؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "باعدوا بين أنفاسِ الرجالِ والنساء"(٢٨) وهذه امرأةٌ من العرب تقول، وقد حَبلَتْ من ذي قرابةٍ لها، حين سُئلت: ما ببطنك يا هند؟ فقالت: قربَ الوِسادِ وطول السواد(٢٩)؛ وفي ذلك أقول شعراً منه: (من الرمل).

لا تَلُم مَن عرَّض النفسَ لما
ليس يُرضي غيرَهَ عند المِحَنْ
لا تُقرِّبْ عَرفجاً من لَهَبٍ
ومتى قرَّبتَه قامتْ دُخَن

لا تُصرِّفْ ثقةً في أحد
فسدَ الناسُ جميعاً والزمن
خُلِقَ النسوانُ للفَحْل كما
خُلِقَ الفحلُ بلا شكٍ لهُن
كُلُّ شكلٍ يتَشهَّى شكلَه
لا تكُنْ عن أحد تنفي الظن
صِفةُ الصالح مَن إن صُنتَه
عن قبيحٍ أظهر الطوعَ الحَسن
وسواه من إذا ثقَّفتَه
أعمل الحيلة في خَلْعِ الرّسن

وإني لأعلمُ فتىً من أهل الصيانة قد أولعَ بهوى له، فاجتاز بعضُ إخوانه فوجده قاعداً مع من كان يُحبّ، فاستجلبه إلى منزله، فأجابه إلى منزله بامتثال المسير بعده، فمضى داعيه إلى منزله وانتظره حتى طال عليه التربُّص فلم يأته، فلما كان بعد ذلك اجتمعَ به داعيه فعدَّد عليه وأطال لومَهُ على إخلافه موعدَهُ، فاعتذر وورَّى، فقلت أنا للذي دعاه: أنا أكشفُ عذرَهُ صحيحاً من كتاب الله عزَّ وجل إذ يقول: (ما أَخْلَفْنَا مَوْعدكَ بملكنا ولكنَّا حُمِّلْنَا أوزاراً من زينة القَوْمِ) (طه: ٨٧) فضحك من حضر، وكلِّفتُ أن أقولَ في ذلك شيئاً فقلت: (من الطويل).

وجَرْحُك لي جُرْحٌ جَبارٌ فلا تَلُمْ
ولكنَّ جرح الحُبِّ غير جبار
وقد صارت الخيلانُ وسط بَياضه
كنيلوفر حفَّته روضُ بَهار
وكم قال لي مَن متُّ وجداً بحُبِّه
مقالةَ مُّحْلول المقالة زاري
وقد كثرتُ مِني إليه مطالبٌ
ألحُّ عليه تارةً وأُداري:
أمَا في التداني ما يبرِّدُ غُلَّةً
ويُذهبُ شوقاً في ضلوعك سَاري؟

فـــــقلتُ له: لـو كـــــان ذلك لم تكُنْ

عـــــداوةُ جـــــارٍ في الأنـام لجـــــار

وقـــد يتـــراءى العَـــسكَرانِ لدى الوغى

وبينهـــمـــا للمـــوت سُـــبْلُ بَوار

ولي كلمتان قلتُهما مُعرضاً ـ بل مُصرِّحاً ـ برجل من أصحابنا كُنا نعرفُهُ من أهل الطلب والعناية والوَرَع وقيام الليل واقتفاء آثار النسَّاك وسلوك مذاهب المتصوِّفين القدماء، باحثاً مجتهداً، وقد كنَّا نتجنَّبُ المزاح بحضرته، فلم يمضِ الزمنُ حتى مكَّنَ الشيطانَ من نفسه، وفتكَ بعد لباس النساك، وملَّكَ إبليسَ من خطامه فسوَّلَ له الغرور، وزيَّنَ له الويلَ والثبور،وأجرَّه رَسَنه بعد إباء، وأعطاه ناصيتَهُ بعد شماسٍ،فخبَّ في طاعته وأوضعَ، واشتهر بعد ما ذكرته في بعض المعاصي القبيحة الوَضِرَة. ولقد أطلتُ ملامه وتشدَّدْتُ في عَذله إذ أعلن بالمعصية بعد استتار، إلى أن أفسَدَ ذلك ضميره عليَّ، وخبثتْ نيْتُهُ لي، وتربَّصَ بيَ دوائرَ السوء،وكان بعضُ أصحابنا يُساعده بالكلام استجراراً إليه، فيأنَسُ به ويظهرُ له عداوتي، إلى أن أظهر الله سريرتَهُ، فَعلمَها البادي والحاضر، وسقط من عيون الناس كلِّهم بعد أن كان مقصداً للعلماء ومُنتاباً للفضلاء، ورَذُلَ عند إخوانه جملةً، أعاذنا الله من البلاء، وسترنا في كفايته، ولا سلبنا ما بنا من نعمته.

فيا سوءتاه لمن بدأ بالاستقامة ولم يعلم أن الخذلانَ يحلُّ به، وأن العصمة ستفارقه!! لا إله إلاَّ الله، ما أشنعَ هذا وأفظعه لقد دهمته إحدى بنات الحَرْسِ، وألقت عصاها به أمُّ طَبَق(٣٠) من كان لله أولاً ثم صار للشيطان آخراً، ومن إحدى الكلمتين: (من البسيط).

أمَّا الغلام فقد حَانتْ فضيحتُه

وأنه كان مستوراً وقد هُتِكَا

مازال يضحك من أهل الهوى عجباً

فالآن كلُّ جهولٍ منه قد ضحكا

إليك لا تلحَ صبًّا هائماً كلفاً

يرى التهتُّكَ في دين الهوى نُسكا

قد كان دهراً يعاني النسكَ مجتهداً

يُعَدُّ(٣١) في نسكه كلّ امرىء مُسُكا(٣٢)

ذو مِـــحـــبـــرٍ وكـــتـــاب لا يُفـــارقُـــهُ
نحـو المحـدِّث يسـعى حـيثُ مـا سلكا
فـاعـتـاض من سُـمـر أقـلام بنانَ فـتىً
كـأنه من لُجَـيْنٍ صـيغَ أو سُـبِكا
يا لائمي سَـفـهـاً في ذاك قَـدْكَ فَلَمْ
تشـهـد حَبـيـبين يوم الملتـقى اشـتـبكا
دَعـني وورْدِيَ في الآبـار أطـلُـبُـه
إليك عني كـذا لا أبتـغي البِـركـا[٢٣]
إذا تـعـفَّـفـتَ عَفَّ الحبُّ عنـك وإن
تَركْتَ يومـاً فـإنَّ الحُبَّ قـد تَركـا
ولا تَحُلُّ من الهـجـران مُنعـقـداً
إلاَّ اذا مـا حللتَ الأُزْرَ والتِّككا
ولا تُصَحِّحُ للسلطان مملكةٌ
أو تَدْخُل البُـرْدُ عن إنفـاذهِ السِّكَكا
ولا بغـيـرِ كـثـيـر المسحِ يَذهُب مـا
يَعلو الحـديدَ من الأصـداء ان سُـبِكا

وكان هذا المذكور من أصحابنا قد أحكم القراءات إحكاماً جيداً، واختصر كتاب الأنباري في الوقف والابتداء[٢٤] اختصاراً حسناً أُعجب به من رآه من المقرئين، وكان دائباً على طلب الحديث وتقييده، والمتولّي لقراءة ما يسمعه على الشيوخ المحدِّثين، مثابراً على النسخ مجتهداً به، فلما امتحن بهذه البَليَّة مع بعض الغلمان رفض ما كان معتنياً به وباع أكثر كتبه واستحال استحالةً كليةً، نعوذ بالله من الخِذلان. وقلت فيه كلمةً وهي التالية للكلمة التي ذكرت منها في أول خبره ثم تركتها.

وقد ذكر أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي[٢٥] في كتاب "اللفظ والإصلاح" أن إبراهيم ابن سيَّار النظّام رأس المعتزلة، مع علوّ طبقته في الكلام وتمكُّنه وتحكمه في المعرفة، تسبَّب إلى ما حرَّم الله عليه من فتى نصراني عشقه بأن وضع له كتاباً في تفضيل التثليث على التوحيد؛ فيا غوثاه!! عياذَكَ يا ربِّ من تولُّج الشيطان ووقوع الخذلان.

وقد يعظم البلاءُ وتكلَبُ الشهوةُ،ويهونُ القبيحُ، ويرقّ الدينُ حتى يرضى الإنسانُ في جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح، كمثلِ ما دَهَمَ عبيد الله بن يحيى الأزدي المعروفَ بابن الجزيري[٣٦] ، فإنه رضي بإهمال داره وإباحة حريمه والتعريض بأهله طمعاً في الحصول على بغيته من فتىً كان علقه ـ نعوذ بالله من الضلال ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا وإطابة أخبارنا ـ حتى لقد صار المسكين حديثاً تُعْمَرُ به المحافل، وتصاغ فيه الأشعار، وهو الذي تسميه العرب الدَّيوث ـ وهو مشتق من التدييث، وهو التسهيل، وما بعد تسهيل من تسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل، ومنه بعيرٌ مديَّثٌ، أي مذلل. ولعمري إن الغيرة لتوجد في الحيوان بالخلقة[٣٧]، فكيف وقد أكَّدتها عندنا الشريعة، وما بعد هذا مصاب.

ولقد كنت أعرف هذا المذكورَ مستوراً إلى أن استهواه الشيطانُ، ونعوذ بالله من الخِذلان، وفيه يقول عيسى بن محمد بن مجمل[٣٨] الخولاني: (من الكامل).

يا جاعلاً إخراجَ حُرِّ نسائه
شَركاً لصيدِ جآذر الغِزْلانِ
إني أرى شَركاً يُمزِّقُ ثم لا
تحظى بغير مذلَّةِ الحرمان

وأقول أنا أيضاً: (من الطويل)

أباحَ أبو مروانَ حُرَّ نسائه
ليبلغَ ما يهوى من الرشأِ الفردِ
فعاتبته الديُوثَ في قُبح فعله
فأنشدني إنشادَ مستبصرٍ جَلْدِ[٣٩]
"لقد كنتُ أدركتُ المنى غيرَ أنني
يُعيِّرني قومي بإدراكها وحدي"[٤٠]

وأقول أيضاً: (من المتقارب).

رأيت الجزيريَّ فيما يُعاني
قليلَ الرشادِ كثيرَ السَّفاهِ
يبيعُ ويبتاع عِرْضاً بعرضٍ
أمورٌ وَجَدِّك ذاتُ اشتباه

ويأخـــذ مـــيـــســمــــاً بإعطاء هاء[٤١]
ألا هــكــذا فــلــيــكــنْ ذو الــنــواهــي
وَيُبْـــدِلُ أرضــــاً تُغــــذّي النبــــاتَ
بأرضٍ تُـحفُّ بـشــــوكِ العــــضـــــاه
لقـــد خـــاب في تَجْـــرِهِ ذو ابتـــيـــاع
مـــــهبِّ الـرياحِ بمجــــرى الميــــاه

ولقد سمعته في المسجد الجامع يستعيذ بالله من العصمة كما يستعاذ به من الخذلان.

ومما يُشبه هذا أني أذكر أني كنت في مجلس فيه إخوان لنا عند بعض مياسير أهل بلدنا، فرأيتُ بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة أيضاً من أهل صاحب المجلس أمراً أنكرته وغمزاً استبشعته، وخلوات الحينَ بعد الحين، وصاحبُ المجلس كالغائب أو النائم، فنبهته بالتعريض فلم ينتبهْ، وحرّكْتُهُ بالتصريح فلم يتحرّكْ، فجعلت أُكَرِّرُ عليه بيتين قديمين لعله يفطن، وهما هذان: (من الخفيف).

إن إخـــوانـه المقـــيـــمين بالأمـ
ـس أتَــوا لــلــزنــاء لا لــلــغــنــاء
قطعـــوا أمـــرهم وأنت حِـــمــــارُ
مُـــوقَـــرٌ من بلادةٍ وغـــبـــاء

وأكثرت من إنشادهما حتى قال لي صاحبُ المجلس: قد أمللتنا من سماعهما فتفضَّلْ بتركهما أو إنشاد غيرهما، فأمسكت وأنا لا أدري أغافلٌ هو أم متغافل؛ وما أذكر أني عدت إلى ذلك المجلس بعدها، فقلت فيه قطعة منها: (من الخفيف).

أنـت لا شكَّ أحـــــسنُ الـنـاس ظنّاً
ويقـــيناً ونيـــةً وضـــمـــيـــرا[٤٢]
فـــانتـــبـــهْ إنَّ بعضَ من كـــان بالأمـ
ـس جليـــســاً لنا يُعـــاني كـبـيـــرا
ليس كل الرُكـــوع فـــاعْلمْ صـــلاةً
لا ولا كـلُّ ذي لحـــاظٍ بصـــيـــرا

وحدّثني ثعلب بن موسى الكلاذاني[٤٣] قال، حدثني سليمان بن أحمد الشاعر قال، حدثتني امرأة اسمها هند كنتُ رأيتها في المشرق، وكانت قد حجّتْ خمسَ

حجات، وهي من المتعبدات المجتهدات، قال سليمان: فقالت لي: يا بنَ أخي، لا تحسن الظنَّ بامرأةقط فإني أخبرك عن نفسي بما يعلمه الله عزَّ وجلَّ: ركبتُ البحرَ منصرفةً من الحجّ وقد رفضتُ الدنيا وأنا خامسةُ خمس نسوةٍ، كلهن قد حججن، وصرنا في مركب في بحر القلزُم[٤٤]، وفي بعض ملاحي السفينة رجلٌ مضمَرُ الخَلْق مديدُ القامة واسع الأكتاف حسن التركيب، فرأيته أول ليلةٍ قد أتى إلى إحدى صواحبي فوضع إحليلَهُ في يدها، وكان ضخماً جداً، فأمكنته في الوقتِ من نفسها، ثم مرَّ عليهنَّ كلهن في ليالٍ متواليات، فلم يبقَ له غيرها، تعني نفسها، قالت: فقلتُ في نفسي: لأنتقمنَّ منك؛ فأخذت موسى وأمسكتها بيدي، فأتى في الليل على جاري عادته، فلما فعل كفعله في سائر الليالي سَقطَت الموسى عليه فارتاع وقام لينهض، قالت: فأشفقتُ عليه وقلت له وقد أمسكته: لازلت أو آخذَ نصيبي منك، قالت العجوز: فقضى وطره وأستغفرُ الله.

وإن للشعراء من لُطْفِ التعريضِ عن الكناية لعجباً؛ ومن بعض ذلك قولي حيث أقول: (من الطويل).

أتاني وماء المُزنِ في الجوِّ يُسفَكُ
كمَحضِ لجين إذ يمدُّ ويُسْبَكُ
هلالُ الدَّياجي انحطَّ من جوِّ أُفقه
فقلْ في محبّ نال ما ليس يُدْرَكُ
وكان الذي إن كنتَ لي عنه سائلاً
فمالي جوابٌ غيرَ أنيَ أضحك
لفرطِ سروري خِلتُني عنه نائماً
فيا عجبا من مُوقنٍ يتشكَّكُ

وأقول أيضاً قطعة منها: (من البسيط).

أتيتَني وهلالُ الجوِّ مُطَّلعٌ
قُبيلَ قَرْعِ النصارى للنواقيسِ
كحاجب الشيخ عمَّ الشَيبُ أكثَرهُ
واخمصِ الرِّجل في لُطْفٍ وتقويس
ولاح في الأُفقِ قَوْسُ الله مكتسياً
من كل لون كأذناب الطواويس[٤٥]

وإن فيما يبدو إلينا من تعادي المتواصلين في غير ذات الله تعالى بعد الألفة، وتدابرهم بعد الوصال، وتقاطُعِهمْ بعد المودة، وتباغضهم بعد المحبة، واستحكام الضغائن، وتأكُّد[٤٦] السخائم في صدورهم، لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولاً سليمة، وآراء نافذة وعزائمَ صحيحة. فكيف بما أعدَّ الله لمن عصاه من النكال الشديد يوم الحساب وفي دار الجزاء، ومن الكشف على رؤوس الخلائق {يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عمَّا أَرْضَعَتْ وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهاَ وترى الناسَ سُكارَى وما هُمْ بسُكارَى ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ} (الحج: ٢) جعلنا الله ممن يفوزُ برضاه ويستحقُّ رحمته.

ولقد رأيتُ امرأةً كانت مودتها في غير ذات الله عزَّ وجلّ، فعهدتُها أصفى من الماء[٤٧]، وألطفَ من الهواء[٤٨]، وأثبتَ من الجبال، وأقوى من الحديد[٤٩] وأشدَّ امتزاجاً من اللون في الملون، وأنفذ استحكاماً من الأعراض في الأجسام، وأضوأ من الشمس، وأصحَّ من العيان،وأثقبَ من النجم، وأصدقَ من كُدر القطا[٥٠]، وأعجبَ من الدهر، وأحسنَ من البرِّ، وأجملَ من وجه أبي عامر، وألذَّ من العافية، وأحلى من المنى، وأدنى من النفس، وأقربَ من النسب، وأرسخَ من النقش في الحجر، ثم لم ألبثْ أنْ رأيتُ تلك المودةَ قد استحالتْ عداوةً أفظع من الموت، وأنفذَ من السهم[٥١]، وأمرَّ من السقم، وأوحشَ من زوال النعم، وأقبحَ من حلول النقم، وأمضى من عُقْمِ الرياح[٥٢]، وأضرَّ من الحمق، وأدهى من غلبة العدو، وأشدَّ من الأسر، وأقسى من الصخر[٥٣]، وأبغضَ من كشف الأستار، وأنأى من الجوزاء[٥٤]، وأصعبَ من معاناة السماء، وأكبر من رؤية المصاب، وأشنع من خَرْقِ العادات، وأقطعَ من فجأ البلاء، وأبشعَ من السمِّ الزّعاف[٥٥]، وما لا يتولد مثله عن الذحول والترات وقتل الآباء وسبي الأمهات. وتلك عادة الله في أهل الفسق القاصدين سواه، الأَمِّين غيره؛ وذلك قوله عزَّ وجلّ {يا لَيْتَني لم أتَّخذْ فلاناً خليلاً لقد أضَلَّني عن الذِّكْر بعد إذ جاءني} (الفرقان: ٢٨). فيجب على اللبيب الاستجارةُ بالله مما يورط فيه الهوى: فهذا خَلَف مَولى يوسف بن قمقام القائد المشهور كان أحدَ القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر[٥٦]، فلما أسر هشام وقُتل وهرب الذين وازروه، فَرَّ خَلَفُ في جملتهم ونجا، فلما أتى القسطلات[٥٧] لم يُطق الصبر عن جاريةٍ كانت له بقرطبة فكرّ راجعاً، فظفر به أمير المؤمنين المهديّ، فأمر بصلبه، فلعهدي به مصلوباً في المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل.

ولقد أخبرني أبو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث رحمه الله أن سبب

هروبه إلى محلة البرابر أيامَ تحولهم مع سليمان الظافر إنما كان لجارية يكلّف بها تصيَّرتْ عند بعضٍ من كان في تلك الناحية، ولقد كاد أن يتلف في تلك السفرة.

وهذان الفصلان وإن لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على ما يقودُ إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر، الذي يستوي في فهمه العالم والجاهل، فكيف من العصمة التي لا يفهمها من ضَعُفَتْ بصيرته.

ولا يقولنَّ امرؤ: خلوت، فهو وإن انفرد فبمرأى ومسمع من علاَّم الغيوب. {الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخْفِي الصدور} . (غافر: ١٩) {ويعلم السرَّ وأخْفَى} (طه: ٧) و{ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعُهُمْ ولا خمسةٍ إلا وهو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أينما كانوا} (المجادلة: ٧) و{هو عليمٌ بذات الصّدور} وهو {عالمُ الغَيْب والشهَادَة} و{ويَسْتَخْفُونَ منَ الناس ولا يَسْتَخْفُونَ من الله وهو معهم} (النساء: ١٠٨) وقال: {لقد خَلَقْنَا الانسانَ ونعلمُ ما تُوَسْوِسُ به نفسُهُ ونحن أقربُ إليه من حَبْلِ الوريد. إذ يَتَلَقَّى المتلقِّيانِ عن اليمينِ وعن الشمالِ قَعيد. ما يلفظُ من قولٍ إلا لديه رَقيبٌ عتيدٌ} (ق: ١٦ـ١٨).

وليعلمِ المستخفُّ بالمعاصي، المتّكلُ على التسويف، المعرضُ عن طاعة ربه أن إبليسَ كان في الجنة مع الملائكة المقربين فلمعصيةٍ واحدةٍ وقعتْ منه استحقَّ لعنةَ الأبد وعذاب الخلد، وصُيِّر شيطاناً رجيماً، وأُبْعِدَ عن رفيع المقام، وهذا آدم (بذنبٍ واحدٍ أُخْرِجَ من الجنة الى شقاء الدنيا ونكدها؛ ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين[٥٨] . افترى هذا المغترُّ بالله ربه وبإملائه ليزداد إثماً يظنُّ أنه أكرمُ على خالقه من أبيه آدم الذي خلقه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكتَهُ[٥٩] الذين هم أفضلُ خلقه عنده؟ أو عقابُهُ أعزُّ عليه من عقوبته إياه؟ كلا، ولكنَّ استعذاب التمني، واستيطاء مَركبِ العجز، وسخف الرأي، قائدةُ أصحابَها إلى الوبالِ والخزي.ولو لم يكنْ عند ركوب المعصية زاجرٌ من نهي الله تعالى ولا حامٍ من غليظ عقابه لكان في قبيح الأحدوثة عن صاحبه وعظيم الظلم الواقع في نفس فاعله أعظمُ مانعٍ وأشدُّ رادعٍ لمن نظر بعينِ الحقيقة، واتبع سبيل الرشد، فكيف والله عزّ وجلّ يقول: {ولا يقتلونَ النفسَ التي حرَّمَ الله إلا بالحقِّ ولا يَزْنُونَ ومن يفعلْ ذلك يلقَ أثاماً، يُضاعفْ له العذابُ يومَ القيامة ويخلُدْ فيه مهاناً} (الفرقان: ٦٨ـ٦٩).

حدثنا الهمذاني[٦٠] في مسجد العمري[٦١] بالجانب الغربي من قرطبة سنة إحدى وأربعمائة، حدثنا ابن شَبُّويه وأبو إسحاق البلخي بخراسان سنة خمسٍ وسبعين

وثلاثمائة، قالا ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد ابن إسماعيل[٦٢] ثنا قتيبة بن سعيد ثنا جرير عن الأعمش عن أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل قال: قال عبد الله وهو ابن مسعود، قال رجل: يا رسولَ الله، أيُّ الذنب أكبرُ عند الله؟ قال: أن تدعو لله نداً وهو خَلَقَك، قال: ثم أيّ؟ قال: أنَ تقتل ولدك أن يطعمَ معك. قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلَة جارك. فانزل الله تصديقها: {والذينَ لا يَدْعُوْنَ م الله إلهاً آخرَ ولا يَقْتُلونَ النفسَ التي حرَّم الله إلا بالحقِّ ولا يَزْنُون} (الفرقان: ٦٨)[٦٣] وقال عزّ وجلّ: {الزانيةُ والزاني فاجْلدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ، ولا تأْخُذْكُمْ بهما رأفةٌ في دينِ الله إن كُنْتُمْ تؤمنون بالله} (النور: ٢).

حدثنا الهمذاني عن أبي إسحاق البلخيّ وابن شَبُّويَهْ عن محمد بن يوسف عن محمد بن اسماعيل عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسعيد بن المسيب المخزوميين وأبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"[٦٤].

وبالسند المذكور إلى محمد بن إسماعيل عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: "أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فقال يا رسول الله، إني زنيت، فأعرض عنه،ثم ردَّ عليه أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع شهاداتٍ دعاه النبي (فقال: أبكَ جنون؟ قال: لا، قال: فهل أُحْصَنْتَ؟ قال: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم اذهبوا به فارجموه"[٦٥]. قال ابن شهاب: فاخبرني من سمع جابر بن عبد الله قال: كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلّى، فلما أذلقته الحجارة هرب فأدركناه بالحرَّة فرجمناه.

حدثنا أبو سعيد مولى الحاجب جعفر في المسجد الجامع عن أبي بكر المقرىء عن أبي جعفر بن النحاس عن سعيد بن بشر عن عمرو بن رافع عن منصور عن الحسن عن حطّان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خُذُوا عنّي، خذوا عني، قد جعل الله لهنّ سبيلاً: البكرُ بالبكر جلدُ وتغريبُ سنة، والثيِّبُ بالثيب جلدُ مائةٍ والرجم[٦٦]". فيا لشنعة ذنب أُنزل الله وحيه مُبيناً بالتشهير بصَاحبه، والعنف بفاعله، والتشديد لمقترفه، وَتشدّد في عقوبة رجمه الا يُرْجَمَ إلا بحضرة أوليائه. وقد أجمع المسلمون إجماعاً لا يَنقضه إلا مُلحدُ أن الزانيَ المُحصَن عليه الرَجمُ حتى يموتَ. فيا لها قتلة ما أهولها، وعقوبةٌ ما أفظعها، وأشدّ عذابها وأبعدها من الإراحة وسرعة الموت.

وطوائف من أهل العلم منهم الحسن بن أبي الحسن وابن راهويه وداود(٦٧) وأصحابه يرون عليه مع الرجم جلد مائة، ويحتجُّون عليه بنصِّ القرآن وثابت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل عليٍّ رضي الله عنه بأنه رجم امرأة مُحْصَنَةً في الزنا بعد أن جلدها مائة. وقال: جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله(٦٨)؛ والقول بذلك لازم لأصحاب الشافعي، لأن زيادة العدل في الحديث مقبولة.

وقد صح في إجماع الأمة المنقول بالكافة الذي يصحبه العمل عند كلِّ فرقة وفي أهل كلِّ نحلة من نحل أهل القبلة ـ حاشا طائفةً يسيرةً من الخوارج لا يعتدّ بهم ـ أنه لا يحلّ دم امرىء مسلم إلا بكفر بعد إيمان، أو نفس بنفس، أو بمحاربة لله ورسوله يُشْهِرُ فيها سَيْفَهُ ويسعى في الأرض فسادا مقبلاً غيرَ مدبر، وبالزنا بعد الإحصان(٦٩) فإن حدَّ ما جعل الله مع الكفر بالله عزّ وجلّ ومحاربته وقَطْعِ حُجَّته في الأرض ومنابذته دينَهُ لجُرْمٌ كبير ومعصية شنعاء. والله تعالى يقول: {إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عنه نُكَفِّرْ عنكمْ سيِّئاتِكُمْ} (النساء: ٣١) {والذين يَجتنبون كبائِر الإثم والفواحشَ إلا اللَّمَم. إن ربَّك واسعُ المغفرة} (النجم: ٣٢) وإن كان أهلُ العلم اختلفوا في تسميتها فكلهم مُجمعٌ ـ مهما اختلفوا فيه منها ـ أن الزنا يقدَّمُ فيها، لا اختلاف بينهم في ذلك، ولم يُوعد الله عزّ وجلّ في كتابه بالنار بعد الشرك الا في سبعة ذنوب، وهي الكبائر: الزنا أحدها، وقذف المحصنات أيضاً منها، منصوصاً ذلك كله في كتاب الله عزّ وجلّ.

وقد ذكرنا أنه لا يجبُ القتلُ على أحدٍ من وَلَدِ آدمَ إلا في الذنوب الأربعة التي تقدم ذكرها: فأما الكفر منها فإنْ عاد صاحبه إلى الاسلام أو بالذّمة إن لم يكن مرتداً قُبِلَ منه ودُرِىء عنه الموت، وأما القتل فإن قبل الوليُّ الديةَ في قول بعض الفقهاء أو عفا في قول جميعهم سَقط عن القاتل القتل بالقصاص، وأما الفساد في الأرض فإن تاب صاحبه قبل أن يُقْدَرَ عليه هُدر عنه القتل، ولا سبيل في قول أحد مؤالف أو مخالف في ترك رَجم المحصَنِ ولا وجهَ لرفع الموت عنه البتة.

ومما يدلُّ على شُنعة الزنا ما حدّثنا القاضي أبو عبد الرحمن(٧٠): ثنا القاضي أبو عيسى(٧١) عن عبيد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى عن الليث عن الزهري عن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن عبيد بن عمير: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصاب في زمانه ناساً من هُذيل، فخرجت جارية منهم فاتبعها رجل يُريدها عن نفسها فرمتْه بحجر فقضت كبده. فقال عمر: هذا قتيلُ الله والله لا يودَى أبداً.

وما جعل الله عزّ وجلّ فيه أربعةَ شهود، وفي كلِّ حكمٍ شاهدين، إلا حياطةً منه ألاّ تشيعَ الفاحشةُ في عباده، لعظمها وشُنعتها وقبحها، وكيف لا تكونُ شنيعةً ومن قذف بها أخاه المسلمَ أو أختـه المسلمةَ دون صحة علم أو تيقن معرفة فقد أتى كبيرةً من الكبائر استحقَّ عليها النار غداً، ووجب عليه بنصِّ التنزيل أن تُضرب بَشَرَتُهُ ثمانين سوطاً. ومالك رضي الله عنه يرى ألا يُؤخذ في شيءٍ من الأشياء حدٌّ بالتعريض دون التصريح إلا في قذف(٧٢).

وبالسند المذكور عن الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عبد الرحمن عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أمر أن يُجلد رجلٌ قال لآخر: ما أبي بزانٍ ولا أمي بزانية(٧٣). في حديث طويل. وبإجماعٍ من الأمة كلّها دون خلاف من أحد نعلمه أنه إذا قال رجلٌ لآخر: يا كافر، أويا قاتلَ النفس التي حرم الله، لما وجب عليه حدٌّ احتياطاً من الله عزّ وجلّ ألا تثبت هذه العظيمة في مسلم ولا مسلمة.

ومن قول مالك رحمه الله أيضاً أنه لا حدَّ في الإسلام إلا والقتل يغني عنه وينسخه إلاّ حدّ القذف، فإنه إن وجب على من قد وجب عليه القتلُ حُدَّ ثم قتل(٧٤). قال الله تعالى: {والذينَ يَرمُونَ المُحْصَنات ثم لم يأتوا بأربعة شُهَدَاءَ فاجْلدوهم ثمانينَ جلدةً ولا تَقْبَلوا لهمْ شهادةً أبداً وأولئك همُ الفاسقون إلاّ الّذينَ تابوا} (النور: ٤، ٥).وقال تعالى: {إن الذين يرمُونَ المُحْصنَات الغَافلات المؤمنات لُعنوا في الدنيا والآخرةِ ولهم عذابٌ عظيمٌ} (النور: ٢٣) وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في الغضب واللعنة المذكورين في اللعان: إنهما موجبتان(٧٥).

حدثنا الهمذاني عن أبي إسحاق عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله، قال: ثنا سليمان عن ثور بن يزيد عن أبي الغيث عن أبي هُريرة عن النبي (أنه قال: اجتنبوا السبع المُوبقات، قالوا: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل بالربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمنات"(٧٦).

وإن في الزنا من إباحة الحريم، وإفساد النسل، والتفريق بين الأزواج الذي عظّم الله أمره، ما لا يهونُ على ذي عقل أو من له أقل خلاق. ولولا مكانُ هذا العنصر من الإنسان وأنه غيرُ مأمونِ الغلبة لما خفّف الله عن البكْرين وشدَّد على المُحْصَنَيْن. وهذا عندنا وفي جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عزّ وجلّ حُكماً باقياً لم

يُنسخ ولا أُزيل، فتبارك الناظر لعباده الذي لم يَشغله عظيمُ ما في خَلقه ولا يحيف قدرتَهَ كبيرُ ما في عوالمه عن النظر لحقير ما فيها، فهو كما قال عزّ وجلّ: {الحَيّ القيُّوم لا تأخُذه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ} (البقرة: ٢٥٥) وقال: {يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يخْرُجُ منها وما يَنْزِلُ من السماء وما يَعْرُجُ فيها} (سبأ: ٢) وقال: {عالمُ الغيبِ لا يَعزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السموات ولا في الأرض} (سبأ: ٣).

وإن أعظمَ ما يأتي به العبدُ هَتكُ سِتْرِ الله عزّ وجلّ في عباده؛ وقد جاء في حكم أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ضَربه الرجلَ الذي ضَمَّ صبياً حتى أمنى ضرباً كان سبباً للمنية.وفي إعجاب مالك رحمه الله باجتهاد الأمير الذي ضرب صبياً مكَّنَ رجلاً من تقبيله حتى أمنى الرجل، ضربه إلى أن مات، ما يُنسي شدةَ دواعي هذا الشأنِ وأسبابه. والتزيُّدُ في الاجتهاد، وإن كنا لا نراه، فهو قولُ كثيرٍ من العلماء يتبعه على ذلك عالم من[٧٧] الناس.

وأما الذي نذهب اليه فالذي حدثناه الهمذاني عن البلخي عن الفربري عن البخاري قال ثنا يحيى بن سليمان ثنا ابن وهْب قال: أخبرني عمرو أن بكيراً حدثه عن سليمان بن يسار عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه عن أبي بردة الأنصاري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يُجْلَدُ فوقَ عشرةِ أسواطٍ إلا في حدٍّ من حدود الله عزّ وجلّ"[٧٨]. وبه يقول أبو جعفر محمد بن علي النسائي الشافعي رحمه الله.

وأما فعلُ قومِ لوطٍ فشنيعٌ بشيعٌ قال الله تعالى: {أتَأتُون الفاحشةَ ما سَبَقَكُمْ بها مِن أحَدٍ من العَالَمين} (الأعراف: ٨٠) وقد قذف الله فاعليه بحجارةٍ من طين مسوَّمة. ومالك رحمه الله يرى على الفاعل والمفعول به الرَّجم، أُحْصنا أم لم يُحْصَنا؛ واحتجَّ بعض المالكيين في ذلك بأن الله عزّ وجلّ يقول في رجمه فاعليه بالحجارة {وما هِيَ منَ الظَّالمين ببعيد} (هود: ٨٣) فوجب بهذا أنه من ظلم الآن بمثل فعلهم قربت منه. والخلاف في هذه المسألة ليس هذا موضعه. وقد ذكر أبو اسحاق إبراهيم بن السري[٧٩] أن أبا بكر رضي الله عنه أحرق فيه بالنار[٨٠]، وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى اسم المحرِّق فقال: هو شجاع بن ورقاء الأسدي[٨١]، أحرقه بالنار أبو بكر الصديق لأنه يؤتى في دبره كما تؤتى المرأة.

وإنَّ عن المعاصي لمذاهبَ للعاقل واسعة، فما حرَّم الله شيئاً إلا وقد عوَّضَ عباده من الحلالِ ما هو أحسَنُ من المحرَّمِ وأفضلُ لا إله إلا هو؛

واقول في النهي عن اتّباع الهوى على سبيل الوعظ: (من الطويل).

أقــولُ لنفــسي مــا مُــبينٌ كــحــالك
"ومـــا النـاسُ إلاّ هـالكٌ وابـنُ هالـك"[٨٢]

صُن النفس عـمَّـا عـابهـا وارفُض الهــوى
فــإن الهــوى مــفْــتَـاحُ باب المهــالك

رأيتُ الهَــوى سَــهْل المبــادي لذيذَها
وعُــقــبــاه مُــرُّ الطعم ضَنكُ المَســالك

فــمــا لذّةُ الإنســان والموتُ بَعــدَها
ولو عــاش ضــعــفي عُــمــر نوح بن لامك

فــلا تَتَّــبعْ داراً قليــلاً لبــاثُهــا
فــقــد أنذرتنا بالفناء المُواشك

ومـــا تركُـــهـــا إلا إذا هي أمكنت
وكم تارك إضــمــارُهُ غــيــرُ تَارك

فـمـا تاركُ الآمـالِ عُـجْـيـاً[٨٣] جـآذراً
كـتـاركـهـا ذاتَ الضّروع الحَـواشك[٨٤]

ومن قــابَل الأمــرَ الذي كــان راغــبــاً
بشــهــوة مُــشــتــاقٍ وعــقل مــتــارك

لأحــرى[٨٥] عــبــادِ الله بالفــوز عنده
لدى جنة الفــردوس فــوق الأرائك

ومن عَــرفَ الأمــرَ الذي هـو طالبٌ
رأى سَـفَــهــاً[٨٦] مـا في يدي كُلِّ مــالك

ومن عَــرف الرحــمَن لم يَغْض أمــرَهُ
ولو أنه يُعطى جــمــيــعَ المَمــالك

ســبــيل التُّـقى والنسك خــيــرُ المســالك
وســالكُهـا مُـسـتـبـصـراً خـيـرُ سـالك

فــمـا فــقــد التنغــيصَ من عــاج دونهــا
ولا طاب عــيشٌ لامــرىء غــيــر ناسك[٨٧]

وطُوبى لأقـــوامٍ يَؤمُّـــونَ نحـــوَها[88]
بخِـــفّـــةِ أرواحٍ ولينِ عـــرائكِ
لقـــد فـــقـــدوا غل النفـــوس وفُـــضِّلوا
بعـــزِّ ســـلاطين وأمن صَـــعـــالكِ
فعـاشوا كـما شاءوا وماتوا كـما اشْتَهَوْا
وفـــازوا بدار الخُلدِ رحب المَبـــارك
عَـصـوا طاعـةَ الأجـســاد في كلِّ لذّة
بنُورٍ مُـــجَلٍّ ظُلمـــةَ الغيِّ هاتك
فلولا اغـتـذاءُ[89] الجـسم أيقنتُ أنهم
يعـيـشـون عَـيـشـاً مثلَ عـيش الملائكِ
فـيـا ربِّ قـدِّمـهم وزدْ في صـلاحـهم
وَصـلِّ عليـــهم حـــيثُ حَلُّوا وبارِكِ
ويا نفسُ جـــدِّي لا تملّي وشـــمِّـــري
لنَيلِ سُـرورِ الدهر فـيـمـا هُنالكِ
وأنت متى دَمَّـرْتِ سـعـيَكِ في الهـوى
علـمتِ بأنَ الحقَّ ليـس كـــذلـك
فـقـــد بيَّن الله الشـــريعـةَ للورَى
بأبْيَنَ من زُهْرِ النُّجـــومِ الشـــوابكِ
فـيـا نفسُ جـدّي في خـلاصك وانفـذي
نفـاذَ السـيـوفَ المُرهفـات البـواتكِ
فلو أعـــملَ الناسُ التـــفكُّرَ في الذي
لهُ خُلقـــوا مـــا كـــان حيٌّ بضـــاحكِ

الهوامش

(١) قراءة مقبولة، ولكن برشيه يقرؤها: ومفارقة.

(٢) إذا كانت النفس لا تشير إلا إلى الشهوات ولا تقود إلا إلى الردى ـ كما يقول ابن حزم فكيف تكون جوهراً عجيباً رفيعاً علوياً! هنا يبدو الخلط الشديد بين النفس "الامارة بالسوء" والنفس التي "هبطت إليك من المحل الأرفع".

(٣) في بعض الطبعات: الاكتمال.

(٤) بتروف والصيرفي ومكي: وحامل.
(٥) انظر اللسان (لقق) وعدّه حديثاً، وانظر الجامع الصغير ٢: ١٨٣).
(٦) أرجح أنه أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد الكاتب، وقد كان يتردد على ابن حزم بالمرية (الجذوة: ١٠٧).
(٧) روح بن زنباع الجذامي: أحد رجالات العصر الأموي شجاعة وخطابة وقدرة قيادية (توفي ٨٤/٧٠٣) انظر: تهذيب ابن عساكر ٥: ٣٣٧ وتاريخ ابن كثير ٩: ٥٤؛ وقد كانت دار حذام بالأندلس: شذونة والجزيرة وتدمير واشبيلية (جمهرة ابن حزم: ٤٢١).
(٨) هو ابن الجسور كما تقدم (ص: ١٧٤) ووهم الدكتور الطاهر مكي فظنه ابن برد الذي مرَّ آنفاً، وابن برد لم يكن محدثاً (انظر طوق الحمامة تحقيق د. مكي: ١٦٢ الحاشية رقم: ٤).
(٩) وهب بن مسرة الحجازي التميمي أبو الحزم (ـ ٣٤٦) حضر إلى قرطبة وأخرجت إليه أصول محمد بن وضاح التي سمع فيها (ابن الفرضي ٢: ١٦١).
(١٠) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم (ـ ٣٧٢) قرطبي يكنى أبا عبد الله، وكان ضابطاً لكتبه ثقة مأموناً مجتهداً عابداً عاش صرورة (ابن الفرضي ٢: ٨٥ وترتيب المدارك ٤: ٤٤١) ووهم الدكتور الطاهر مكي فترجم لأخيه عبد الله بن محمد في موضعه.
(١١) محمد بن وضاح (٢٠٠ـ٢٨٧) قرطبي، رحل إلى المشرق مرتين وسمع كثيراً وكان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه ورعاً متعففاً (ابن الفرضي ٢: ١٧ والجذوة: ٨٧).
(١٢) يحيى بن يحيى الليثي (ـ ٢٣٤) تلميذ مالك، وناشر مذهبه في الأندلس، سمع منه مشايخ الأندلس في وقته ونال حظوة وجلالة ذكر (ابن الفرضي ٢: ١٧٦ والجذوة، ٣٥٩).
(١٣) ورد هذا الحديث في الموطأ (كلام: ١١) والترمذي (زهد: ٦١) ومسند أحمد ٥: ٣٦٢ وانظر البخاري (رقاق: ٢٣، حدود: ١٩) ومسند أحمد ٥: ٣٣٣.
(١٤) يتجاوز ابن حزم هنا موقف الجاحظ الذي جعل سهولة الانقياد من نصيب المرأة وحدها، وكأنه يردّ عليه (الحيوان ١: ١٦٩ـ١٧٠).
(١٥) برشيه: يتوب.
(١٦) برشيه: المهلكة.
(١٧) لم أجده نصاً، ومما هو بسبيله ما جاء في مصنف عبد الرزاق: (٤: ١٩٣): من تأمل خلق امرأة وهو صائم بطل صومه.
(١٨) جميع الطبعات: برقة.
(١٩) ورد الحديث في صحيح مسلم (توبة: ٣٨) ومسند أحمد ٢: ٢٣٥، ٤٣٨، ٣٠١.
(٢٠) توفي القاضي أبو عبد الرحمن (سنة ٤١٧، أو ٤١٨)؛ وقد اثنى عليه ابن حزم ـ حسب رواية الحميدي بقوله: هو أفضل قاض رأيته ديناً وعقلاً وتصاوناً مع حظه الوافر من العلم (الجذوة: ٢٢٥ والصلة: ٢٤٤).
(٢١) هو دون ريب محمد بن ابراهيم بن اسماعيل الطليطلي ويعرف بابن المشكيالي، وقد رحل إلى المشرق، وسمع بمصر بكر بن العلاء القشيري، سمع منه كتابه في أحكام القرآن، وكان ورعاً متقللاً من الدنيا، توفي سنة ٤٠٠ (الصلة: ٤٦١).
(٢٢) انظر التعليق السابق.
(٢٣) قد مرّ التعريف بهما، ص: ١٩٦، ١٩٧.
(٢٤) بعض الطبعات: على.
(٢٥) أثبت هذه الصورة من الاسم لأنها تطابق (Jesse) مع ابدال السين شيناً في التعريب.

انظر: (The Legends of the Jews, Vol. 4, p. 81).

وهو "يسي" - بالسين المهملة - في العهد القديم.

(٢٦) بتروف: متكررين؛ برشيه: متبحرين.

(٢٧) انظر قصة قابيل وهابيل في عرائس المجالس للثعالبي: ٤٣-٤٧.

(٢٨) باعدوا بين أنفاس الرجال وأنفاس النساء: ذكره ابن الحاج في "المدخل" في صلاة العيدين، وذكره ابن جماعة في "منسكه" في طواف النساء، ولم يورد له سنداً؛ وقال ملا علي القاري: انه غير ثابت (الأخبار الموضوعة: ١٤٥) غير ان ابن حزم لا يورده هكذا إلا وهو يصححه من وجه ما.

(٢٩) ذكر هذا عن ابنة الخسّ، وذلك أنه قيل لها: لم زنيت بعبدك ولم تزني بحرٍّ، وما أغراك به، قالت: طول السواد وقرب الوساد (الحيوان ١: ١٦٩ ولمح الملح للحظيري، الورقة: ٤٩/أ).

(٣٠) الحرس: الدهر، وبناته مصائبه؛ وأم طبق أو بنات طبق: الشدة، أو الداهية، وأصله للحية، إذ يقال لها أم طبق.

(٣١) بتروف: يعدل.

(٣٢) المسك: البخيل (أي ان كل امرىء إذا قيس إلى نسكه عدّ مقصراً)؛ وعند بتروف: نسكا، وقرأها برشيه: نهكا. شاكر: حسكا.

(٣٣) يستعمل ابن حزم فى هذا البيت وما يليه من أبيات نوعاً من التعريض الجارح.

(٣٤) المقصود هنا محمد بن القاسم بن محمد أبو بكر الانباري (٢٧١-٣٢٨) وهو شارح المفضليات والسبع الطوال (انظر ترجمته في الفهرست: ٨٢ وانباه الرواة ٣: ٢٠١ وتاريخ بغداد ٣: ١٨١ وابن خلكان ٤: ٣٤١ وغاية النهاية ٢: ٢٣٠ ومعجم الأدباء ١٨: ٣٠٦) وقد طبع كتابه المشار إليه بعنوان "ايضاح الوقف والابتداء" في جزءين، تحقيق محيي عبد الرحمن رمضان، بعناية مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١ وقد دخل الأندلس بعدة روايات منها رواية شريح بن محمد عن أبي جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز اليحصبي بمصر عن ابن الشعيري عن المؤلف (ابن خير: ٤٤-٤٥ والصلة: ٢١٥ الترجمة رقم ٤٩٨).

(٣٥) الراوندي أو الريوندي أو الروندي (- ٢٤٥): متكلم من أهل مرو الروذ، خرج على المعتزلة وأعلن إلحاده في كتب مختلفة، انظر الفهرست ٢١٦ وابن خلكان ١: ٩٤ والمنتظم ٦: ٩٩ وكتاب الانتصار للخياط ورسالة الغفران: ٤٦١ وانظر عنه مقالة للدكتور يوسف فان إس في مجلة الأبحاث (السنة: ٢٧)؛ ولم يذكر ابن النديم "اللفظ والاصلاح" بين كتبه.

(٣٦) مرَّ ذكره من قبل: ١٧٨.

(٣٧) يقول ابن حزم في الغيرة (رسائل: ١٤١): الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل؛ ويقول: إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة

(٣٨) ترجم له الحميدي (الجذوة: ٢٨١ والبغية رقم: ١١٥٥) باسم عيسى بن مجمل؛ وقال: كان أديباً تاجراً شاعراً من أهل قرطبة مشهوراً، وأورد له قطعتين في التذمر من قوم زاروه فقعدوا في دكانه ومنعوه من معيشته.

(٣٩) قراءة برشيه: مستهتر صلد.

(٤٠) هو مضمن، وقد ورد في الذخيرة ١/١: ١٥٦ دون نسبة.

(٤١) لعله باعطاء "صاد"، انظر كنايات الجرجاني: ٢٩ والثعالبي: ٢٦.

(٤٢) في أمثال العوام (٦٣ رقم: ٢٥٦) أول ما يعطى للقرآن (أي القرنان) حسن الظن (يعنى بزوجته) ومثل أندلسي آخر: كثرة الأطمني تولّد القرون. وابن حزم يلمح إلى ذلك.

(٤٣) لعل صواب هذه النسبة "الكلواذاني" أو "الكلاباذي".

(٤٤) هو ما يعرف اليوم باسم البحر الأحمر.

(٤٥) اعتقد أن التعريض في هذه القطعة قد ضاع مع أبيات سقطت منها.
(٤٦) برشيه: وتحكم.
(٤٧) يقال في المثل: أصفى من الماء، أرق من الماء (الدرة الفاخرة ٢٦٣، ٢٠٩)، وبعض هذه الأمثال مما صاغه ابن حزم وبعضها مما درج في الاستعمال.
(٤٨) يقال في المثل: أرق من الهواء (الدرة الفاخرة: ٢٠٩).
(٤٩) يقال: اصلب من الحديد، أشد من الحديد (الدرة: ٢٦٣، ٢٣٦).
(٥٠) يقال: أصدق من قطاة (الدرة: ٢٦٥).
(٥١) يقال: انفذ من ابرة... أنفذ من سنان (الدرة ٣٩١).
(٥٢) يقال: أسرع من الريح (الدرة: ٢١٧، ٤٤١).
(٥٣) يقال: أقسى من حجر، أقسى من صخرة (الدرة: ٣٥١).
(٥٤) يقال: أنأى من الكواكب، أبعد من النجم، من السماء، من الثريا... الخ (الدرة: ٣٩١، ٧٥).
(٥٥) الزعاف والذعاف: كلاهما صحيح.
(٥٦) هشام بن سليمان بن الناصر الملقب بالرشيد ثار على محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي، فكان مصيره أن قتل (سنة ٣٩٩) انظر أعمال الاعلام: ١١٣ .
(٥٧) ورد عند العذري "قسطلة" (دون إضافة)، فلعل ما هنا صورة من صور النطق بهذا الاسم، ويؤخذ من كلام العذري أنها في جهة شنتمرية الغرب (نصوص: ١٠٧) ويستفاد من كلام بروفنسال (الاندلس: ٣٥٨ الحاشية) انه أعياه العثور عليها.
(٥٨) انظر الآية ٣٧ من سورة البقرة.
(٥٩) في سجود الملائكة لآدم انظر: البقرة: ٣٤، الاعراف: ١١، الإسراء: ٦١، الكهف: ٥٠ .
(٦٠) قد مرّ التعريف به في ما تقدم ص: ٢٦٤ .
(٦١) في أصل: القمري؛ وتساءل غومس: أيمكن أن يكون صوابها العمري (حاشية ص: ٢٨٣) ونص بروفنسال على أن تغييرها ضروري (الاندلس: ٣٥٨).
(٦٢) محمد بن اسماعيل هو البخاري صاحب الصحيح، ومحمد بن يوسف هو الفربري (ـ ٣٨٩) راوية الصحيح عنه. وعنه رواه ابن شَبُّويَهْ (وفي الطبعات ابن سبويه بالسين المهملة) المعروف بالشبوبي وهو محمد بن عمر بن شبويه المروزي (تبصير المنتبه ٨٠٤ وعبر الذهبي ٣: ٢٤١) وسماه ابن الأثير أحمد بن عمر (اللباب ٢: ١٨٣ ط. صادر) وجاء في الصلة مضطرب الاسم والكنية: أبو محمد عمر بن شبوبة (الباء الثانية بنقطة واحدة) المروزي وعنه روى الهمذاني الذي تقدم التعريف به ص٢٦٤؛ وأما أبو اسحاق البلخي فهو ابراهيم بن أحمد المستملي الحافظ، حدث بصحيح البخاري مرات عن الفربري، وتوفي سنة ٣٧٦ (عبر الذهبي ٣: ١).
(٦٣) هذا الحديث في صحيح البخاري (تفسير ٢: ٣٠، ٢٥، ٢؛ أدب: ٢٠، حدود: ٢٠، انظر إرشاد الساري: ١٠: ٧) وعند مسلم (توحيد: ٤٠، ٤٦؛ إيمان: ١٤١، ١٤٢) وانظر مسند أحمد ١: ٣٨٠، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٦٢).
(٦٤) ورد عند البخاري في باب الحدود (انظر ارشاد الساري ١٠: ٦، ٧) وابن ماجه (فتن: ٣).
(٦٥) الحديث في البخاري (طلاق: ١١؛ أحكام: ١٩) وعند مسلم (حدود: ١٦) ومسند أحمد ٢: ٤٥٣؛ ٥: ٨٦، ٨٧ وانظر المحلى ١١: ١٧٧ وما بعدها.
(٦٦) الحديث فى مسلم (حدود: ١٣) وأبى داود (حدود: ٢٣) والترمذي (حدود: ٨) وابن ماجه (حدود: ٧) وانظر مصنف عبد الرزاق ٧: ٤١٥-٤١٧ والمحلى ١١: ١١٨ .
(٦٧) هو الحسن البصري (ـ ١١٠) وابن راهويه فهو اسحاق بن ابراهيم الفقيه الشافعي (ـ ٢٣٨)؛ انظر ابن خلكان

١: ١٩٩ وداود بن علي بن خلف الاصبهاني صاحب المذهب الظاهري (-٢٧٠)؛ انظر ابن خلكان ٢: ٢٥٥.
(٦٨) ارشاد الساري ١٠: ٧-٦، حيث يذكر ما فعله عليّ.
(٦٩) حديث لا يحل دم امرىء مسلم... الخ ورد في عدة مواطن من الصحاح، وانظر مسند أحمد ١: ٣٨٢.
(٧٠) القاضي أبو عبد الرحمن هو عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري قاضي بلنسية الملقب بحيدرة وقد مرَّ التعريف به ص: ٢٧٢، وهو يروي عن أبي عيسى الليثي، انظر التعليق التالي.
(٧١) القاضي أبو عيسى هو يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثي (-٣٦٧) سمع من عم أبيه عبيد الله بن يحيى الليثي، وكان قاضياً ببجانة والبيرة وولي أحكام الردّ بقرطبة ورحل الناس إليه من جميع كور الاندلس (ابن الفرضي ٢: ١٨٩ والجذوة: ٣٥٤ وترتيب المدارك ٤: ٤١٢).
(٧٢) انظر المحلى ١١: ٢٧٧ والمدونة ٦: ٢٢٤.
(٧٣) المحلى ١١: ٢٧٦-٢٨١، وهذا للاستشهاد على عظم حد القذف ولو كان تعريضاً، إلا أن ابن حزم يرفضه ولا يرى فيه حداً.
(٧٤) قال مالك: كل حد اجتمع مع القتل لله أو قصاص لأحد من الناس فإنه لا يقام مع القتل والقتل يأتي على جميع ذلك إلا الفرية (يعني القذف) فإن الفرية تقام ثم يقتل (المدونة ٦: ٢١٢).
(٧٥) يقول من يلاعن زوجته أربع مرات "بالله اني لمن الصادقين" ثم يأمر الحاكم من يضع يده على فيه ويقول "انها موجبة" فإن أبى فإنه يضيف "وعلي لعنة الله ان كنت من الكاذبين" وتوقف المرأة عند القولة الخامسة ويقال لها: "انها موجبة" (المحلى ١٠: ١٤٣-١٤٤).
(٧٦) الحديث في البخاري (وصايا: ٢٣؛ طب: ٤٨؛ حدود: ٤٤) ومسلم (ايمان: ١٤٤) وأبي داود (وصايا: ١٠) والنسائي (وصايا: ١٢).
(٧٧) برشيه: غالب الناس.
(٧٨) انظر ابن ماجه حدود: ٣٢.
(٧٩) هو أبو اسحاق الزجاج النحوي (توفي ٣١١ أو ٣١٦) انظر ترجمته في انباه الرواة ١: ١٥٩ وفي الحاشية ثبت بمصادر أخرى.
(٨٠) انظر المحلى ١١: ٣٨٠-٣٨١ (وابن حزم لا يرى ذلك وإنما يرى التعزير فقط) وانظر أيضاً ذم الهوى: ٢٠٢.
(٨١) وقيل كان اسمه الفجاءة (المحلى ١١: ٣٨١).
(٨٢) مأخوذ من قول الشاعر:

ومـــــــا النـــاس إلا هـــالـــك وابـــنّ هـــالـــك
وذو نـــســـب فـــي الـهـــــالـكـين عـــــريـق

(٨٣) بتروف: عجباً؛ برشيه: عجلاً؛ والعجيّ بتشديد الياء: ولد الدابة؛ وجمعه عجايا وأحسب الشاعر تصرف به فجمع "فعيل" على "فُعْلى".
(٨٤) الضروع الحواشك: الممتلئة.
(٨٥) لأحرى: جواب "ومن" في البيت السابق.
(٨٦) بتروف والصيرفي ومكي: سبباً.
(٨٧) معظم الطبعات: ماسك (بالميم).
(٨٨) الضمير في "نحوها" يعود إلى سبيل التقى والنسك.
(٨٩) في بعض الطبعات: اعتداد (بمعنى حسبان أو عدّ).

٣٠.
باب فَضْل التعفُّفُ

ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حُبه التعففُ، وتركُ ركوب المعصية والفاحشة، وألاّ يرغبَ عن مُجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة، وألاّ يَعْصِي مولاهُ المتفضلَ عليه الذي جعله مكاناً وأهلاً لأمره ونهيه، وأرسل إليه رسله، وجعل كلامه ثابتاً لديه، عنايةً منه بنا وإحساناً إلينا.

وإن من هام قلبُه، وشُغِلَ باله، واشتدَّ شوقه، وعظم وجدُه، ثم ظفر فرامَ هواه ان يغلب عقله، وشهوته أن تَقهرَ دينه، ثم أقام العدلَ لنفسه حصناً، وعلم أنها النفسُ الأمارةُ بالسوء، وذكّرها بعقابِ الله تعالى وفكّر في اجترائه على خالقه وهو يراه، وحذَّرها من يوم المعَاد والوقوفِ بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذي لا يحتاجُ إلى بينة، ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كلِّ مدافع بحضرة علاّم الغيوب {يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا مَنْ أتى الله بقَلْب سَليم} (الشعراء: ٨٨، ٨٩) {يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات} (الحجر: ٤٨) {يوم تَجد كُلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ من خير مُحْضراً وما عَمِلَتْ من سُوء تودّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً} (آل عمران: ٣٠) يوم {وعَنَت الوجوهُ للحيِّ القيّوم وقد خابَ من حَمَلَ ظلماً} (طه: ١١١) يوم {ووَجدوا ما عَمِلُوا حاضراً ولا يظلمُ ربُّكَ أحداً} (الكهف: ٤٩) {يوم الطامّة الكبرى}، {يوم يتذكّرُ الإنسان ما سَعى، وبُرِّزَت الجحيمُ لمن يَرى فأما مَنْ طَغَى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خافَ مَقامَ ربِّه ونَهَى النَّفْسَ عن الهوى فإن الجنةَ هي المأوى} (النازعات: ٣٥ـ٤١) واليوم الذي قال الله تعالى فيه: {وكلَّ إنسانٍ ألزَمْناه طائِرَهُ في عُنُقِهِ ونُخْرِجُ له يومَ القيامة كتاباً يَلقاهُ مَنشوراً. اقرأ كتابَكَ

كَفَى بنفسكَ اليومَ عليك حسيباً} (الإسراء: ١٣، ١٤) عندها يقول العاصي: {يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يُغَادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحْصَاها} (الكهف: ٤٩) فكيف بمن طُويَ قلبُه على أحرّ من جَمر الغضا، وطُوي كشحه على أحدّ من السيف، وتجرع غصصاً أمرَّ من الحنظل، وصَرَفَ نفسه كَرْهاً عما طمعت فيه وتَيَقَّنَتْ ببلوغه وتهيّأت له ولم يحلْ دونها حائل ـ لحريٌ[1] أن يُسببرٌ غداً يومَ البعث، ويكون من المُقربين في دار الجزاء وعالم الخلود، وأن يأمنَ روعاتِ القيامةِ وهَولَ المطلع، وأن يُعوِّضه الله من هذه القرحة الأمنَ يومَ الحشر.

حدثني أبو موسى هارون بن موسى الطبيب قال: رأيت شاباً حَسَنَ الوجه من أهل قُرطبةَ قد تعبدَ ورفض الدنيا، وكان له أخ في الله قد سقطتْ بينهما مؤنة التحفظ، فزاره ذاتَ ليلة وعزم على المبيت عنده، فعرضتْ لصاحب المنزل حاجةٌ إلى بعض معارفه بالبُعد عن منزله، فنهض لها على أن ينصرفَ مسرعاً، ونزل الشابُّ في داره مع امرأته، وكانت غايةً في الحسن وترباً للضيف في الصبا، فأطال ربُّ المنزل المقام إلى أن مشى العَسَسُ ولم يُمكنْهُ الانصرافُ إلى منزله، فلما علمتْ المرأةُ بفوات الوقت وأنَّ زوجها لا يمكنه المجيء تلك الليلة تاقتْ نفسُها إلى ذلك الفتى فبرزت إليه ودعته إلى نفسها، ولا ثالثَ لهما إلا الله عزّ وجلّ، فهمَّ بها ثم ثاب إليه عقلُه وفكَّرَ في الله عزّ وجلّ فوضعَ إصبعهُ على السراج فتفقّع ثم قال: يا نفس، ذوقي هذا وأين هذا من نار جهنَّم. فهال المرأة ما رأت ثم عاودته، فعاودته الشهوةُ المركّبة في الإنسان فعاد إلى الفعلة الأولى، فانبلج الصباح وسبّابته قد اصطلمتها النار[2].

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه؟ أو ترى أن الله تعالى يضيع له هذا المقام؟ كلا إنه لأكرم من ذلك وأعلم.

ولقد حدثتني امرأةٌ أثق بها أنها عَلقَها فتىً مثلُها في الحُسن وعلقته وشاع القول عليهما، فاجتمعا يوماً خاليين فقال: هلّمي نحققْ ما يقال فينا. فقالت: لا والله لا كان هذا أبداً، وأنا أقرأ قول الله: {الأخلاءُ يومئذٍ بعضُهُمْ لبعضٍ عدوٌ إلا المتقين} (الزخرف: ٦٧) قالت: فما مَضى قليل حتى اجتمعا في حلال[3].

ولقد حدثني ثقةٌ من إخواني أنهُ خلا يوماً بجارية كانت له مفاركاً[4] في الصبا، فتعرضَتْ لبعض تلك المعاني، فقال لها: لا، إن من شُكْر نعمة الله فيما مَنحنى من وصالك الذي كان أقصى آمالي أن أجتنبَ هواي لأمره، ولعمري إن هذا لغريبٌ فيما خلا من الأزمان، فكيف في مثل هذا الزمان الذي قد ذهب خيره وأتى شره.

وما أُقدِّرُ في هذه الأخبار - وهي صحيحة - إلا أحدَ وجهين لا شك فيهما: إما طبع قد مال إلى غير هذا الشأن واستحكمتْ معرفتُهُ بفضلٍ سواه عليه فهو لا يُجيب دواعي الغَـزَلِ في كلمة ولا كلمتين ولا في يومٍ ولا يومين، ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لَحُلَّتْ[٥] طباعُهم وأجابوا هاتف الفتنة، لكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرِّك نظراً لهم وعلماً بما في ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح، واستدعاء الرشد، لا إله إلا هو؛ وإما بصيرةٌ حضرتْ في ذلك الوقت، وخاطرُ تجرَّدَ انقمعت به طوالعُ الشهوة في ذلك الحين، لخيرٍ أراد الله عزَّ وجلَّ لصاحبه، جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه، آمين.

وحدثني أبو عبد الله محمد بن عمر بن مضا[٦] عن رجال من بني مروان ثقات يُسْنِدُونَ الحديثَ إلى أبي العباس الوليد بن غانم[٧] أنه ذكر أن الإمام عبد الرحمن بن الحكَم غاب في بعض غزواته شهوراً وثقَّف القصرَ بابنه محمد[٨] الذي وليَ الخلافةَ بعده ورتَّبه في السطح، وجعل مبيته ليلاً وقعوده نهاراً فيه، ولم يأذنْ له في الخروج البتة، ورتَّبَ معه في كلِّ ليلةٍ وزيراً من الوزراء وفتىً من أكابر الفتيان يبيتان معه في السطح؛ قال أبو العباس: فأقام على ذلك مدة طويلة وبَعُدَ عهدُهُ بأهله، وهو في سنِّ العشرين أو نحوها إلى أن وافق مبيتي في ليلتي نوبةَ فتىً من أكابر الفتيان، وكان صغيراً في سنّه وغايةً في حسن وجهه. قال أبو العباس: فقلتُ في نفسي: إني أخشى الليلةَ على محمد بن عبد الرحمن الهلاكَ بمُواقعة المعصيةوتزيين إبليسَ وأتباعه له، قال: ثم أخذت مضجعي في السطح الخارج ومحمد في السطح الداخل المطلِّ على حُرَم أمير المؤمنين، والفتى في الطرف الثاني القريب من المطلع فظللْتُ أرقبه ولا أغفلُ وهو يظنُّ أني قد نمْتُ ولا يشعرُ باطلاّعي عليه، قال: فلما مضى هزيع من الليل رأيتُهُ قد قام واستوى قاعداً ساعةً لطيفة، ثم تعوَّذَ من الشيطان ورجع إلى منامه، ثم قام الثالثةَ ولبس قميصهُ ودلَّى رجليه من السرير،وبقيَ كذلك ساعةً ثم نادى الفتى باسمه فأجابه، فقال له: انزلْ عن السطح وابقَ في الفصيل[٩] الذي تحته، فقام الفتى مؤتمراً له. فلما نزل قام محمدٌ وأغلق البابَ من داخله وعاد إلى سريره، قال أبو العباس: فعلمتُ من ذلك الوقت أن لله فيه مُرَادَ خيرٍ.

حدثنا أحمد بن محمّد بن الجسور عن أحمد بن مطرِّف عن عبيد الله بن يحيى[١٠] عن أبيه عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن الأنصاري عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سبعة يُظلّهم الله في ظلّه

يومَ لا ظلَّ إلا ظله: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ، ورجلٌ قلبُهُ معلقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضتْ عيناه،ورجلٌ دعته امرأة ذات حسب وجمال، فقال إني أخاف الله،ورجلٌ تصدَّقَ صدقةً فأخفى حتى لا تعلمَ شمالُهُ ما تنفقُ يمينهُ"[11].

وإني أذكر أني دعيتُ إلى مجلس فيه بعضُ من تستحسن الأبصارُ صورته، وتألف القلوبُ أخلاقه، للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه، فسارعتُ إليه وكان هذا سَحَراً، فبعد أن صليتُ الصبح وأخذتُ زيّي طَرقني فكرٌ فسنحتْ لي أبياتٌ،ومعي رجل من إخواني فقال لي: ما هذا الإطراقُ؟ فلم أجبْهُ حتى أكملتها، ثم كتبتها ودفعتها إليه، وأمسكت عن المسير حيث كنتُ/نويت، ومن الأبيات: (من الطويل).

أراقكَ حُسنٌ غيبُهُ لك تأريقُ
وتبريدُ وَصْل سرُّهُ فيك تَحْريقُ
وقربُ مَزارٍ يَقتضي لك فرقةً
وشكّاً ولولا القربُ لم يكُ تفريق
ولذّةُ طعمٍ مُعقبٍ لك عَلقماً
وصاباً وفَسْحٌ في تضاعيفه ضيقُ

ولو لم يكن جزاءٌ ولا عقابٌ ولا ثواب لوجب علينا إفناءُ الأعمارِ، وإتعابُ الأبدان، وإجهاد الطاقة، واستنفادُ الوسع، واستفراغ القوة، في شكر الخالق الذي ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها، وامتنَّ علينا بالعقل الذي به عرفناه، ووهبنا الحواسَّ والعلمَ والمعرفةَ ودقائقَ الصناعات، وصرف لنا السموات جاريةً بمنافعها، ودبرنا التدبيرَ الذي لو ملكنا خلقنا لم نهتد إليه، ولا نظرنا لأنفسنا نَظَرَهُ لنا، وفضَّلنا على أكثر المخلوقات، وجعلنا مستودَع كلامه ومستقرَّ دينه، وخلَقَ لنا الجنةَ دونَ أن نستحقَّها، ثم لم يرَ لعباده أن يدخلوها إلاّ بأعمالهم لتكونَ واجبةً لهم، قال الله تعالى: {جزاء بما كانوا يَعْمَلُونَ} (السجدة: ١٧) وَرَشَدَنا إلى سبيلها، وبصَّرنا وجْه طلبها[12]، وجعل غاية إحسانه إلينا وامتنانه علينا حقاً من حقوقنا قِبَلَهُ، وَدَيْناً لازماً له، وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التي رزقنا قواها، وأثابنا بفضله على تفضُّله ـ هذا كرم لا تهتدي إليه العقولُ، ولا يمكن أن تكيِّفه[13] الألباب. وأن عرف ربه ومقدارَ رضاه وسخطه هانتْ عنده اللذاتُ الذاهبة والحطامُ الفاني، فكيف وقد أتى

من وعيده ما تقشعرّ لسماعه الأجساد، وتذوبُ له النفوس، وأورد علينا من عذابه ما لم يَنتهِ إليه أملٌ؛ فأين المذهبُ عن طاعة هذا الملك الكريم، وما الرغبةُ في لذة ذاهبة لا تذهبُ الندامةُ عنها، ولا تفنى التباعةُ منها، ولا يزولُ الخزيُ عن راكبها، وإلى كم هذا التمادي وقد أسمعنا المنادي، وكأنْ قد حدا بنا الحادي إلى دار القرار، فإما إلى جنّة وإما إلى نار. ألاَ إن التثبط في هذا المكان لهو الضلال المبين، وفي ذلك أقول[١٤]: (من المنسرح).

أقصرَ عن لهوه وعن طرَبه
وعفَّ في حُبِّه وفي غَرِبه

فليس شُرْبُ المدام همَّته
ولا اقتناصُ الظباء من أربه

قد آنَ للقلب أن يُفيقَ وأن
يُزيلَ ما قد عَلاه من حُجبه

ألهاهُ عمّا عهدتُ يُعجبُهُ
خيفةُ يومٍ تُبلَى السرائر به[١٥]

يا نفسُ جِدّي وشمّري ودعي
عنكِ اتباعَ الهوى على لغبه

وسارعي في النجاةِ واجتهدي
ساعيةً في الخلاصِ من كُرَبه

علّيَ أحظَى بالفوز فيه وأن
أنجوَ من ضيقه ومن لهبه

يا أيها اللاعبُ المُجدُّ به الـ
دهرُ أما تتقي شَبَا نُكَبِه

كفاك من كلِّ ما وُعظتَ به
ما قد أراك الزّمانُ من عَجبه

دعْ عنكَ داراً تفنى غضارتُها
ومَكسباً لاعباً بمُكتسبه

لم يَضطربْ في مَحلِّها أحدٌ
إلا نبا حدّها بمُضْطَربه

من عَـــرَفَ الله حقَّ مـــعـــرفـــةٍ
لـوى وحَلّ الـفـــؤاد فـي رَهبـــــه
مـــا مُنـقـــضـي الملكِ مـــثـل خـــالده
ولا صـحـيحُ التـقى كـمُـؤتَشـبـه[١٦]
ولا تقـيُّ الورى كـــفـــاســـقـــهم
ولـيس صــــدْقُ الكلامِ من كـــذبه
فلو أمِنّا من العـــقـــاب ولم
تَخْشَ من الله مُـــتـــقي غَـــضـــبـه
ولـم نَـخـفْ نـارَه الـتـي خُـلـقَـتْ
لكل جـانِي الكلام مُـحـتـقـبـه
لكـان فـــرضـــاً لُزومُ طاعـــتـــه
وَرَدُّ وَفْـــدِ الهـــوى على عَـــقِـــبـه
وصـــحّـــةُ الزهد في البَـــقـــاء وأن
يَلحقَ تَفنيـــدنا بمُرتقـــبـــه
فـــقـــد رأينا فـــعلَ الزمـــان بأهـ
ليـه كـــفـــعل الشّـــواظِ في حَطَبـه
كم مُـتْـعِبٍ في الإله[١٧] مُـهْـجَـتَـه
راحـــتـــهُ في الكريم[١٨] من تَعـــبـه
وطالب باجـــتـــهـــاده زَهرَ الـ
دنيـــا عَـــداه المَنونُ عن طَلبـــه
ومُـــدرِكٍ مـــا ابتـــغـــاه ذي جَـــذَلٍ
حلَّ به مـــا يَخـــاف من سَـــبـــبـه
وباحثٍ جـــاهدٍ لبُـــغـــيـــتـــه
فـــإنما بحـــثُـــه على عَطبـــه
بينا تَرى المرءَ ســـامـــيـــاً ملكاً
صـــار إلى السُّـــفـل من ذُرَى رتبـــه

كــــالزَّرع للرّجل فــــوقــــه عــــملٌ
إن يَنمُ حُـسْنَ النُّمـو في قَــصـبـه
كم قــاطع بنفــسَــه أسىً وشــجــاً
فـي إثـر جـــــدٍّ يجـــــدُّ فـي هَربـه
ألـيس مـن ذاكَ زاجــــرٌ عَـــجَبُ
يـزيــدُ ذا الـلُّـبِّ فـي حُـلَـى أدبــه
فـكـيـف والـنـار لـلمُـــسـيء إذا
عــاج عـن المُسـتـقـيم من عَـقـبـه
ويوم عـرْضِ الحـســاب يفْـضـحُـه الـ
لّـه ويُبـــدي الخـــفيَّ مـن ريَبــه
من قـــد حـــبــاه الإلهُ رحـــمـتَــه
مـــوصـــولةً بالمزيد من نَشــبــه
فـــصـــار من جـــهله يصــرِّفــهــا
فـــيـــمـــا نهى الله عنه في كـتـبـه
أليس هذا أحـــرى العــبـــاد غـــداً
بـالـوقْـع فـي ويـلـه وفـي حَـــــربـه
شـكـراً لـربٍّ لـطـيـفٌ قــــــدرتـه
فـــينا كــحــبلِ الوَريد في كَــثَـبــه
رازقِ أهلِ الـزمـــانِ أجـــمـــعـــهم
مَنْ كـــان مِن عُـــجـــمـــه ومن عَــربه
والحـــمـــدُ لله في تفـــضُّـله
وقــــمــــعــــه للزَّمـــانِ في نُـوبـه
أخــــدمنا الأرضَ والســـمـــاءَ ومن
في الجـــوِّ مِن مـــائه ومن شُــهـبــه
فـــاســمع ودَعْ مَن عــصـــاه نـاحـيــةً
لا يحـمل الحـملَ غـيـرُ مـحـتطبـه

وأقول أيضاً: (من الطويل).

أعـــارَتْكَ دنيـــا مُـــسْـــتَـــرَدٌ مُـــعـــارُهَا
غَـضــارَةَ عـيشٍ سـوف يذوي اخـضــرارُها

وهل تمنَّى المُحكَمُ الرأي عـــيـــشـــةً
وقــــد حــــان من دُهْمِ المنايا مَــــزَارها

وكـــيف تلذُّ العينُ هجــعــةَ ســاعــةٍ
وقـد طالَ فـيـمـا عـايَنَتْـهُ اعـتـبـارُها

وكـــــيف تَقَـــــرُّ النفسُ في دارِ نُقلةٍ
قـد إستـيـقَنتْ أنْ ليسَ فـيـهـا قَـرارها

وأنّى لهــــا في الأرضِ خــــاطرُ فكرةٍ
ولم تَدْرِ بعــــد الموت أين مَــــحــــارها

أليس لهـــا في السـعي للفـوز شـاغلٌ
أمـــا في توقّـــيـــهـــا العـــذابَ ازدجـارها

فـــخـــابتْ نفـــوسٌ قـــادها لهـــوُ ســاعـــةٍ
إلى حــــــرِّ نـــارٍ لـيس يُـطْفَـى أوارها

لهـــا ســـائقٌ حـــادٍ حـــثـيـثٌ مُـــبـــادرٌ
إلى غـيـــر مـــا أضـــحى إليـــه مـــدارُها

تُرادُ لأمــــرٍ وهـي تَطلبُ غـــيـــرَهُ
وتقْـصِـدُ وجـهـاً في سـواهُ سِـفـارُها

أمُـسْرعَـةٌ فـيـمـا يَسـوءُ قَـيـامَـهـا
وقــد أيقنتْ أنّ العـــذابَ قُـــصـــارُها

تُعطِّلَ مَــفْــرُوضــاً وتَغنَى بفـــضلةٍ
لقـد شـقّـهـا طُغـيـانهـا واغـتـرارُها

إلى مـــا لـهـــا منه البــلاءُ سكونهـــا
وعـــمّـــا لـهـــا منه النجـــاحُ نِفَـــارُها

وتُعْـــرِضُ عن ربٍّ دعــــاها لرُشْـــدها
وتَتـــبع دُنيـــا جـــدَّ عنهـــا فِـــرارها

فيا أيها المغرورُ بادرْ برجعةٍ
فللّه دارٌ ليس تخْمَدُ نارها
ولا تتخيَّرْ فانياً دون خالدٍ
دليلٌ على محضِ العُقولِ اختيارُها
أتعلمُ أنَّ الحقَّ فيما تركتَهُ
وتسلكُ سبلاً ليس يخفى عوارُهَا
وتتركُ بيضاءَ المناهج ضلَّةً
لبهماءَ يُؤذي الرِّجْلَ فيها عِثارها
تُسَرُّ بلهوٍ مُعْقَبٍ بندامةٍ
إذا ما انقضى لا ينقضي مستشارها
وتفنَى الليالي والمسَّرَّاتُ كلُّها
وتبقى تباعاتُ الذُّنوبِ وعارها
فهل أنت يا مَغبونُ مُستيقظٌ فقدْ
تبيَّنَ من سِرِّ الخطوبَ استتارُها
فعجِّلْ إلى رضوانِ ربِّك واجتنبْ
نواهيَهُ إذ قد تجلَّى منارُها
يَجدُّ مُرورُ الدهر عنكَ بلاعبٍ
وتغرى بدُنيا ساء فيك سِرارها
فكَم أمةٍ قد غَرَّها الدهرُ قبلنا
وهاتيك منها مُقفراتٌ ديارها
تذكَّرْ على ما قد مضى واعتبِرْ به
فإن المُذكّي للعقولِ اعتبارها
تَحامَى ذراها كلُّ باغٍ وطالبٍ
وكان ضماناً في الأعادي انتصارُها
توافتْ ببطنِ الأرضِ وانْشَتَّ شملها
وعادَ إلى ذي ملكِه مستعارها

وكم راقدٍ في غفلةٍ عن منيَّةٍ
مشمِّرةٍ في القصْدِ وهو شعارُها

ومَظْلمةٍ قد نالها متسلِّطٌ
مُدِلٌّ بأيدٍ عند ذي العرش ثارُها

أراكَ إذا حاولتَ دُنياك ساعياً
على أنها بادٍ إليك ازْورارها

وفي طاعةِ الرحمن يُقْعِدكَ الونَى
وتبدي أناةً لا يصحُّ اعتذارها

تُحاذرُ أحزاناً ستفنى وتنقضي
وتنسى التي فرضٌ عليك حِذارها

كأني أرى منك التبرُّمَ ظاهراً
مُبيناً إذا الأقدارُ حَلَّ اضطرارها

هناك يقولُ المرءُ من لي بأعصر
مضتْ كان مِلْكاً في يديَّ خيارها

تنبَّهْ ليومٍ قد أظلَّكَ وِرْدُهُ
عصيبٍ يوافي النفسَ فيه احتضارها

تبرأ فيه منكَ كلُّ مخالطٍ
وآنَ من الآمالِ فيه انهيارها

فأُودِعْتُ في ظلماءَ ضَنْكٍ مقرُّها
يلوح عليها للعيون اغبرارها

تنادى فلا تدري المنادي مفرداً
وقد حُطَّ عن وجه الحياةِ خِمارُها

تُنادى إلى يومٍ شديدٍ مُفزِّعٍ
وساعة حشر ليس يخفى اشتهارها

إذا حُشرتْ فيه الوُحوشُ وَجُمِّعَتْ
صحائفُنا وانثالَ فينا انتشارها(١٩)

وزُيِّنَتِ الجنَّاتُ فـــيـــه وأُزْلِفتْ[٢٠]
وأُذكي من نار الجـحـيم استـعـارها
وكُـوِّرتِ الشـمسُ المنيـرةُ بالضُّـحى[٢١]
وأسْـرَعَ من زُهر النجـوم انكدارُها[٢٢]
لقـد جلَّ أمـرٌ كـان منه انتظامُـهـا
وقـد حل أمـرٌ كـان منه انتـشـارها
وسُـيِّـرتِ الأجـبـالُ والأرضُ بُدِّلَت[٢٣]
وقـد عُطِّلَتْ من مـالكيـهـا عِـشـارها[٢٤]
فـإمـا لدارٍ ليس يَفْنَى نعـيـمُـهـا
وإمـــا لـدارٍ لا يُـفَـكُّ إســـارهـا
بحـضـرةِ جـبّـارٍ رفـيقٍ مُـعـاقب
فَـتُـحْـصَى المعـاصي كُـبْـرُهَا وصـغـارُها
ويندمُ يومَ البـعـثِ جـاني صـغـارها
وتُهْلكُ أهليـهـا هناك كـبـارها
سَـتُـغْـبَطُ أجـسـادٌ وتحـيـا نفـوسـهـا
إذا مـا اسـتـوى إسـرارُها وجـهـارُها
إذا حَـفَّـهـم عـفـوُ الإلهِ وفـضلُهُ
وأسكنهـم داراً حـلالاً عُـقـارُها
سـيلحـقـهم أهلُ الفـسـوق إذا استـوى
بحلبـةِ سَـبْقٍ طِرْفُـهـا وحـمـارُها[٢٥]
يغـرّ بنو الدنيـا بدُنيـاهمُ التي
يُظَنُّ على أهل الحظوظِ اقـتـصـارُها
هي الأمُّ خـيـرُ البـرِّ فـيـهـا عـقـوقُـهـا
وليس بغـيـر البـذلِ يُحـمَى ذمـارُها
فـمـا نال منهـا الحظَّ إلا مُـهـينهـا
ومـا الهُلْكُ إلا قُـربهـا واعـتـمـارها

تهــافتَ فــيــهــا طامعٌ بعــد طامعٍ
وقــد بان للُّبِّ الذكيِّ اخـتـبـارها
تطامنْ لغـمْـر الحـادثاتِ ولا تكنْ
لهـا ذا اعـتـمار يَجتنبك(٢٦) غـمـارها
وإياك أن تَـغـتـر منهـا بما ترى
فـقـد صَحَّ في العـقلِ الجليِّ عـيـارها
رأيتُ مُلوكَ الأرضِ يبـغـون عُـدَّةً
ولذَّةَ نفس يُسـتـطابُ اجـتـرارها
وخَلَّوا طريقَ القـصد في مُبـتـغـاهُم
لمعـقـبـة الصّـغـار جَمٌّ صَـغَـارها
وإن التي يَبـغـون نهْجُ لغـيَّـةٍ
مكين لطُلاب الخـلاص اختـصـارها
هل العـزُّ إلا همـةٌ صحَّ صَـونُهـا
إذا صـان همّـاتِ الرجـالِ انكسـارها
وهل رابحٌ إلا امـرؤٌ مـتـوكِّل
قنوعٌ غنيُّ النفسِ بادٍ وَقـارها
ويلقى ولاةُ الملكِ خـوفـاً وفكرة
تضـيقُ بهـا ذَرعـاً ويَفنى اصطبـارها
عـيـانـاً نرى هذا ولكنَّ سكرةً
أحـاطت بنا مـا إن يُفـيقُ خُـمـارها
تدبّرْ من البـاني على الأرضِ سَـقْـفَـهـا
وفي علمه مـعـمـورها وقـفـارها(٢٧)
ومن يمسكُ الأجـرامَ والأرضَ أمـرُهُ
بلا عَـمَـدٍ يُبنى عليـه قـرارها
ومن قـدَّر التـدبيـرَ فـيـهـا بحكمـة
فـصحَّ لديهـا ليلُهـا ونهـارها

ومن فَتق الأمواهَ في صَفْحِ وجهها
فمنها تغذّى حَبُّها وثمارها
ومن صيَّرَ الألوانَ في نوْرِ نبْتها
فأشرق فيها وَرْدها وبَهارُها
فمنهنّ مخضرٌ يَرُوقُ بَصيصُهُ
ومنهنّ ما يَغشى اللحاظَ احمرارها
ومَنْ حَفّرَ الأنهارَ دونَ تكلف
فثار من الصمٍّ الصِّلاب انفجارُها
ومن رتَّب الشمسَ المنيرَ ابيضاضُها
غدواً ويبدو بالعشيٍّ اصفرارُها
ومن خلق الأفلاك فامتدّ جَريَها
وأحكمها حتى استقامَ مَدارها
ومَن إن ألّمتْ بالعُقولِ رزيّةٌ
فليس إلى حيٍّ سواهُ افتقارها
تجدْ كل هذا راجعاً نحو خالقٍ
له مُلكها مُنقادةً وائتمارُها
أبانَ لنا الآياتِ في أنبيائه
فأمكن بعد العَجْز فيها اقتدارُها
فأنطق أفواهاً بألفاظ حكمةٍ
وما خَلّها إثغارُها واثّغارُها[٢٨]
وأبرزَ من صُمٍّ الحِجارةِ ناقةً
وأسمعهم في الحين منها خُوارُها
ليوقنَ أقوامٌ وتكفُرَ عُصبةٌ
أتاها بأسباب الهلاك قُدارها[٢٩]
وشقّ لُموسى البحرَ دون تكلّفٍ
وبان من الأمواجِ فيه انحسارُها

وسـلّـمَ مـن نـار الأتـون خـلـيـلَـهُ
فلم يُؤذِه إحـراقُـهـا واحـتـرارها(٣٠)

ونجّى من الطوفـان نوحـاً وقـد هدى
به أمـةً أبْدَى الفـسـوقَ شِـرارُها

ومـكّـن داوداً بـأيْـدٍ وإبـنـهُ
فـتـعـشـيـرها مُلقىً له وبِذارُها(٣١)

وذلّلَ جـبّـارَ الـبـلاد لأمـره
وعُلِّم مِن طيـر السـمـاء حِـوارها

وفـضل بالقـرآنِ أمـةَ أحـمـدٍ
ومكّن في أقـصى البـلاد مـغـارها

وشَقَّ له بدرَ السـمـاء وخَـصَّـه
بآياتِ حقٍّ لا يُحلُّ مُـغـارها(٣٢)

وأنقـذنا من كُـفـرٍ أربابنا به
وكـان على قطب الهـلاك مـدارها(٣٣)

فـمـا بالنا لا نتـرُك الجـهلَ ويْحَنا
لنسلمَ من نارٍ ترامَى شَـرارُها

الهوامش

(١) لحري: جواب "إنّ" قبل سطور كثيرة، حيث بدأ قوله في "الفقرة: وإن من هام قلبه... الخ.".

(٢) قارن ـ مع تذكر الفرق ـ بين هذا وبين ما جاء في "ذم الهوى": ٢٧٦ وروضة المحبين: ٤٦٠ وهي رواية اسرائيلية انظر كذلك ص ٤٦٥ ,

(٣) انظر تزيين الأسواق ١: ٩ حيث نقلت الحكاية عن طوق الحمامة، واشار إلى ذلك الدكتور الطاهر مكي، وكذلك وردت في ديوان الصبابة: ٢٠٨ وصرّح هنالك باسم المصدر فقال: قال الحافظ أبو محمد الأموي؛ وانظر روضة المحبين: ٣٤٦ ,

(٤) مفاركاً: هاجرة؛ وعند برشيه: معادلة.

(٥) في الطبعات: لجادت.

(٦) محمد بن عمر (وكتب عمرو في بعض الطبعات) بن مضا، كان من أهل الأدب مشهوراً بالفضل (الجذوة: ٧٢ والبغية رقم: ٢٢٥).

(٧) وليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم: ذكره ابن الأبار (الحلة ١: ١٦٢) في ترجمة ابنه عبد الرحمن فقال "وولى وليد للأمير محمد بن عبد الرحمن خطتي الوزارة والمدينة وقاد جيش الصائفة الذي قدم عليه ابنه عبد الرحمن وكان عدده عظيماً" ثم ترجم له مستقلاً (٢: ٣٧٤) فأضاف: "وكان كاتباً أديباً مرسلاً بليغاً... وتوفي

سنة ٢٧٢" وأخباره في المقتبس (تحقيق الدكتور محمود مكي ط.بيروت) وللمحقق عليقات ضافية عنه وعن أسرته ص: ٤٤٩، ٥٤١ إلا أن ابن حيان جعل وفاته سنة ٢٩٢ (والخطأ بين الرقمين سبعة وتسعة قديم).

(٨) الأمير عبد الرحمن بن حكم (٢٠٦ - ٨٢١/٢٣٨ - ٨٥٢) وابنه محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٨٥٢/٢٧٣ - ٨٨٦) وانظر ص: ٩١ فيما تقدم.

(٩) الفصيل في فن المعمار عند الاندلسيين يقابل (Vestibulum) في المباني الرومانية ويجمع على فصلان؛ ويتردد ذكره كثيراً في المصادر الأندلسية، وفي المقتبس (نشر أنطونية): ٧٤ وأصعد غلمانه وغلمان الولد على سقف الفصيل؛ وانظر ملحق دوزي ٢: ٢٧٢ .

(١٠) قد مرَّ التعريف بالأندلسيين من رجال هذا السند.

(١١) الحديث في البخاري (أذان: ٣٦؛ زكاة: ١٦؛ رقاق: ٢٤؛ حدود: ١٩) ومسلم (زكاة: ٩١) والترمذي (زهد: ٥٣) والنسائي (قضاة: ٢) ومسند أحمد ٢: ٤٣٦ وذم الهوى: ٢٤٣ .

(١٢) لعل الصواب "نيلها".

(١٣) لعل الصواب "تكتنفه" أو "تكهتنهه".

(١٤) يعارض ابن حزم بهذه القصيدة (على سبيل التمحيص) قصيدة لأبي تمام، انظر ديوانه ١: ٢٦٩ .

(١٥) من الآية الكريمة (يوم تبلى السرائر) الطارق: ٩ .

(١٦) المؤتشب: المختلط غير الصريح؛ وقارن به قول fd أبي تأبي تمام:

ما سجسج الشوق مثل جاحمه

ولا صريح الهوى كمؤتشبه

(١٧) برشيه: للاله..

(١٨) بعض الطبعات: الكريه.

(١٩) مشيراً إلى الآية الكريمة (وإذا الصحف نشرت) التكوير: ١٠؛ وفي بعض الطبعات: انتشارها؛ وقافية "انتشارها" ستأتي بعد بيتين.

(٢٠) وإذا الجنة أزلفت (التكوير: ١٣).

(٢١) إذا الشمس كورت (التكوير: ١).

(٢٢) وإذا النجوم انكدرت (التكوير: ٢)

(٢٣) وإذا الجبال سيرت (التكوير: ٣).

(٢٤) وإذا العشار عطلت (التكوير: ٤).

(٢٥) أي أن أهل الفسوق لن يلحقوهم، لأن الحمار لا يدرك الجواد في حلبة السباق.

(٢٦) برشيه: يجتبيك، وهو خطأ.

(٢٧) في هذا البيت وأبيات تليه ينظر إلى الآيات ٢-٤ من سورة الرعد، كما فعل من قبل في آيات سورة التكوير.

(٢٨) أخذ في هذا البيت والذي يليه يعدد المعجزات التي جاء بها الأنبياء ككلام عيسى في المهد وناقة صالح وشق البحر لموسى ونار ابراهيم وطوفان نوح والتمكين لداود وسليمان، والقرآن لمحمد صلى الله عليه وسلم وشق البدر.. الخ.

(٢٩) يعني قدار بن سالف عاقر الناقة.

(٣٠) احترارها: التهابها؛ وفي بعض الطبعات: واعترارها، ولا معنى له.

(٣١) تعشيرها: أخذ العشر منها، والبذار: الحب الذي يبذر، أي له زرع الأرض وجني حصادها؛ وفي قراءة: فتعسيرها - بالسين المهملة - ولذلك قرأ برشيه "ويسارها" ليتطابق اليسر مع العسر.

(٣٢) المغار: الحبل المفتول، أي أنها آيات كلماتها لا تنقض، وفي بعض الطبعات "معارها" بالعين المهملة وهو خطأ.

(٣٣) في بعض الطبعات منارها؛ ولا معنى له.

خاتمة

هنا أعزّك الله انتهى ما تذكرته ايجاباً لك، وتقمُّناً[١] لمسرتك، ووقوفاً عند أمرك، ولم أمتنع أن أوردَ لك في هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراءُ ويكثرون القولَ فيها، موفَيات على وجوهها، ومفردات في أبوابها، ومنعمات التفسير، مثل الإفراط في صفة النحول وتشبيه الدموع بالأمطار وأنها تروي السّفّار، وعدم النوم البتة، وانقطاع الغذاء جملة إلا أنها أشياءُ لا حقيقة لها[٢]، وكذبٌ لا وجه له، ولكلِّ شيءٍ حدّ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

والنحولُ قد يعظم ولو صار حيث يصفونه لكان في قَوامِ الذرَّةِ أو دونها، ولخرج عن حدِّ المعقول.

والسهرُ قد يتصل لياليَ، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك، وإنما قلنا ان الصبرَ عن النوم أقلُّ من الصبر عن الطعام لأن النوم غذاءُ الروح، والطعامَ غذاء الجسد، وإن كانا يشتركان في كليهما ولكنّا حكينا على الأغلب. وأما الماء فقد رأيتُ أن ميسوراً البنّاءَ جارنا بقرطبة يصبرُ عن الماء أسبوعين في حمارَّة القيظ ويكتفي بما في غذائه من رطوبة. وحدثني القاضي أبو عبد الرحمن بن جحافَ[٣] أنهَ كان يعرفُ من كان لا يشربُ الماء شهراً. وإنما اقتصرتُ في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلاً، وعلى أني قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفى بها لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم.

وسيرى كثير من إخواننا أخباراً لهم في هذه الرسالة مكنيّاً فيها عن اسمائهم على ما شرطنا في ابتدائها.

وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتبه المَلَكَانِ ويحصيه الرقيبان من هذا وشبهه، استغفارَ مَنْ يعلم أن كلامه مْن عمله؛ ولكنه إنْ لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخَذُ به المرءُ فهو إن شاء الله من اللَّمَم المعفو، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يُتَوَقَّعُ عليها العذاب، وعلى كل حال فليس من الكبائر التي ورد النصُّ فيها.

وأنا أعلم أنه سينكر عليَّ بعضُ المتعصبين عليَّ تأليفي لمثل هذا ويقول: إنه خالفَ طريقته، وتجافَى عن وجهته. وما أحل لأحدٍ أن يظنَّ فيَّ غيرَ ما قصدته، قال الله عزّ وجلّ: {يا أيّها الذينَ آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظّنّ إنّ بَعْضَ الظّنِّ إثم} (الحجرات: ١٢). وحدثني أحمد بن محمد بن الجسور، ثنا ابن أبي دليم، ثنا ابن وضاح عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس عن أبي الزبير المكي عن أبي شريح الكعبي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إياكم والظّن فإنه أكذب الكذب"(٤). وبه إلى مالك عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن الأعرج عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"(٥). وحدثني صاحبي أبو بكر محمد بن إسحاق ثنا عبد الله بن يوسف الأزدي ثنا يحيى بن عائذ ثنا أبو عدي عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحاق بن الفرج الإمام بمصر ثنا أبو علي الحسن بن قاسم بن دحيم المصري ثنا محمد بن زكريا الغلابي ثنا أبو العباس ثنا أبو بكر عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال: وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثماني عشرة كلمة من الحكمة منها: ضَعْ أمرَ أخيك على أحسنه حتى يأتيَكَ على ما يغلبك عليه. ولا تظنّ بكلمة خرجت من في امرىء مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً(٦). فهذا أعزك الله أدبُ الله وأدبُ رسوله صلى الله عليه وسلم وأدبُ أمير المؤمنين.

وبالجملة فإني لا أقولُ بالمراياة ولا أنسكُ نُسْكاً أعجمياً(٧). ومن أدَّى الفرائضَ المأمورَ بها، واجتنب المحارمَ المنهيَّ عنها، ولم ينسَ الفضلَ فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسمُ الإحسان، ودعني مما سوى ذلك وحسبي الله.

والكلام في مثل هذا إنما هو مع خَلاَء الذَّرْعِ وفراغِ القلب، وإنَّ حفظَ شيء وبقاء رسم وتذكُّرَ فائتٍ لمثل خاطري لعجبٌ على ما مضى ودهمني؛ فأنت تعلمُ أن ذهني متقلّب وبالي مهصر بما نحن فيه من نبوّ الديار، والجلاء عن الأوطان، وتغيّر الزمان، ونَكَبات السلطان، وتغيّر الإخوان، وفساد الأحوال، وتبدّل الأيام، وذهاب الوفر، والخروج عن الطارف والتالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغربة في البلاد،

وذهاب المال والجاه، والفكر في صيانة الأهل والولد، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل، ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا.

وإن الذي أبقى لأكثرُ مما أخذ، والذي ترك أعظمُ من الذي تحيَّف، ومواهبه المحيطةُ بنا ونعمه التي غمرتنا لا تُحَدُّ، ولا يؤدى شكرها، والكلُّ منَحُهُ وعطاياهُ، ولا حُكْمَ لنا في أنفسنا ونحن منه، وإليه منقلبنا، وكلُّ عاريةٍ فراجعةٌ إلى مُعيرها، وله الحمد أولاً وآخراً وعوداً وبدءاً وأنا أقول: (من الوافر).

جعلتُ اليأسَ لي حصناً ودرْعاً
فلم ألبسْ ثيابَ المُسْتضامِ
وأكثرُ من جميع الناس عِندي
يَسيرٌ صانني دون الأنامِ
إذا ما صَحَّ لي ديني وعِرْضي
فلستُ لما تولّى ذا اهتمامِ
تولّى الأمس والغدُ لست أدري
أأدركه ففي ماذا اغتمامي

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين، آمين آمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

كملت الرسالة المعروفة بطوق الحمامة لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم رضي الله عنه بعد (حذف) أكثر أشعارها وإبقاء العيون منها تحسيناً لها وإظهاراً لمحاسنها وتصغيراً لحجمها وتسهيلاً لوجدان المعاني الغريبة من لفظها بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه! وفرغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائةٍ والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

(١) تقمن المسرة: تحريها وتوخيها.

(٢) يريد: ولم يمنعني من إيراد هذه الأشياء إلا أنها أشياء لا حقيقة لها.

(٣) قد مرَّ التعريف به: ٢٧٢.

(٤) الحديث في البخاري (وصايا: ٨، أدب: ٥٧، ٥٨) وغيره من الصحاح وانظر مسند أحمد في مواضع كثيرة منها ٢: ٢٥٤، ٢٨٧، ٣١٢، ٣٤٢.

(٥) الحديث في البخاري (أدب ٢١، ٨٥؛ رقاق: ٢٣) وفي مسلم (ايمان: ٧٤، لقطة: ١٤) ومسند أحمد ٢: ١٧٤، ٢٦٤، ٤٣٣ ومواطن أخرى.

(٦) مثل هذا القول عن عمر رضي الله عنه، إذ يقول: "لا يحلّ لامرىء مسلم يسمع الكلمة من أخيه المسلم (أو عن أخيه المسلم) أن يظن بها ظن سوء، وهو يجد لها في شيء من الخير مصرفاً" (ترتيب المدارك ٤: ١٣٤؛ ط.المغرب).

(٧) يقال ان رجلاً كان يستنكر رواية الشعر فقال فيه سعيد بن المسيب "ذاك رجل نسك نسكاً أعجمياً". وقيل انه قال في ناس كرهوا إنشاد الشعر: "لقد نسكوا نسكاً أعجمياً" انظر البيان والتبيين ١: ٢٠٢ والسماع لابن القيسراني: ٩٣.

الملحق (١)
(ص ٢٢٧)

وممّن رثى قرطبة أيضاً[1]، من وجُوه أهلها وأربابِ النِّعَم المؤثَّلة بها، وأكثرَ التفجُّعَ على دياره منها، لما استولى الخرابُ عليها عند فرار البرابر عنها، الفقيه الأديب أبو محمَّد عليُّ بن أحمد بن سعيد بن حَزْم، ابنُ وزيرِ آلِ عامرِ الأكبر. فإني وَجَدْتُ بخطِّه في خبرٍ ذَكَرَهُ قال:

وقفتُ على أطلال منازلنا بحَوْمَة بلاط مُغيث من الأرباض الغربيَّة، ومَنازل البرابر المُستباحة عند مُعاوَدة قرطبة. فرأيْتُها قد مَحَّتْ رُسُومُها، وطُمسَتْ أعلامُها، وخفيَتْ معاهدُها، وغيَّرَها البلى؛ فصارَتْ صَحَاري مُجْدبةً بعد العمْران، وفَيافي مُوحشَةً بعد الأُنس، وآكاماً مُشَوَّهةً بعد الحُسْن، وخرائبَ مُفْزعةً بعد الأمن، ومآويَ للذئاب، وملاعب للجان، ومغانيَ للغيلانَ،ومَكَامنَ للوحوش، ومَخابيء للُّصوص، بعد غُنْيَانها برجالٍ كالسيوف، وفُرْسانٍ كاللُّيوث، تفيضُ لديهم النِّعَمُ الفاشيَة، وتَغصُّ منهم بكثرة القَطِين الحاشيَة، وتَكْنُسُ في مقاصيرهم ظباء الإنس الفاتنة، تحت زِبْرِجٍ من غضارة الدنيا تُذكر نَعيمَ الآخرة، حَالَ الدَّهرُ عليهم بعد طُول النضرة فبدَّد شَمْلَهم حتى صاروا في البلاد أيادي سَبَا، تنطق عنهم الموعظة، فكأنّ تلك المحاريبَ المُنَمَّقة، والمقاصيرَ المُرَشَّقة، التي كانت في تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجةً، يقيِّد حُسْنُها الأبصار، ويجلي مَنْظَرُها الهُموم، كأن لم تغْنَ بالأمس، ولا حلَّتها سادةُ الإنس، قد عبث بها الخرابُ، وعمَّها الهدمُ، فأصبَحَتْ أوحَشَ من أفواه السِّباع فاغرةً، تُؤْذنُ بفناء الدنيا، وتُريكَ عواقبَ أهْلها، وتُخْبرك عمَّا يصيرُ إليه كلُّ ما قد بقي ماثلاً فيها، وتُزَهِّدُك فيها.

وكرَّرْتُ النَّظر، ورَدَّدْتُ البصرَ، وكدْتُ أستطارُ حزناً عليها، وتذكَّرْتُ أيَّام نشأتي فيها، وصبابةَ لِداتي بها؛ مع كواعبَ غيد، إلى مثلهِنَّ يَصْبُو الحَليم؛ ومَثَّلْتُ

لنفسي انطواءَهُنَّ بالغناء، وكَوْنَهُنَّ تحت الثرى إثر تقطُّع جمعنا بالتفرُّق والجلاء في الآفاق النائية، والنواحي البعيدة، وصدَّقْتُ نفسي عن فناء تلك النصبة، وانصداع تلك البَيْضَة، بعد ما عهدتُه من حُسْنها ونضارتها وزِبْرجها وغضارتها، ونَضْوَتُه بفراقها من الحال الحسنة، والمرتبة الرفيعة، التي رَفَلْتُ في حُلَلها ناشئاً فيها، وأرْعَيْتُ سمَعي صوتَ الصَّدى والبوم زاقياً بها، بعد حركات تلك الجماعة المنصدعة بعرصاتها، التي كان ليلها تبعاً لنهارها، وفي انتشارها بسُكَّانها، والتقاء عُمَّارها، فعاد نهارُها تبعاً لليلها في الهدوِّ والاستيحاش، والخُفُوت والإخفاش. فأبْكى ذلك عيني على جُمودها، وقرع كبدي على صلابتها، وهاج بلابلي على تكاثُرها، وحرَّكني للقَوْل على نُبُوِّ طبعي؛ فقلْتُ: (من الطويل).

سـلامٌ علـى دارٍ رَحَلْنا وغُـودِرَتْ
خـلاءً من الأهلين مـوحشـةً قَـفْـرا

تراها كـأن لم تغن بالأمْسِ بَلْقَـعـاً
ولا عـمـرت من أهلهـا قـبلنا دَهْرا

فـيـا دارُ لم يقـفـرك منَّا اختـيـارُنا
ولو أنَّنا نستطيعُ كُنْتِ لنا قـبـرا

ولكـنَّ أقـداراً من الله أنْفـذَتْ
تُدَمِّـرُنا طوعـاً لِمَا حلَّ أو قَـهْـرا

ويا خـيـرَ دارٍ قـد تُركْت حـمـيـدةً
سَقَـتْكِ الغـوادي مـا أجلَّ ومـا أسـرى

ويا مُـجْتلى تلك البـسـاتين حـفَّـهـا
رياضُ قـوارير غَـدَتْ بَعْـدَنا غَـبـرا

ويا دهْرُ بَلِّغْ سـاكنيـهـا تَحـيَّـتي
ولَو سكنوا المروين(٢) أو جـاوزوا النَّهـرا(٣)

فـصـبـراً لسَطْو الدَّهْرِ فـيـهم وحُكْمِـه
وإن كـان طعْمُ الصـبـرِ مـسـتـثـقـلاً مُـرّاً

لئن كـان أظْمَـانا فـقـد طالَ مـا سَـقـى
وإن سـاءَنا فـيـهـا فـقـد طالَ مـا سَـرّا

وأيّتــهـــا الدارُ الحـــبـــيـــبـــةُ لا يَرِمْ
ربوعَك جَــوْنُ المزْنِ يهـــمي بهـــا القَطْرا
كـــأنّك لم يسكنْك غـــيـــدٌ أوانسٌ
وصـــيـــدُ رجـــالٍ أشـــبـــهـــوا الأنجُمَ الزَهْرا
تفـــانَواْ وبادُوا واســـتـــمـــرّت نواهُمُ
لمثلهم أسكبت مـــقْلَتيَ العـــبـــرى
سنصـــبـــرُ بعـــد اليُســـر للعُـــسْـــر طاعـــةً
لعلَّ جـــمـــيلَ الصَّـــبـــرِ يعـــقـــبنا يُسْـــرًا
وإني ولَوْ عَـــادَتْ وَعُـــدْنا لعَـــهْـــدها
فكَيْف بمن من أهلهـــا سكن القَـــبـــرا
ويا دَهْرَنا فـــيـــهـــا مـــتى أنت عـــائدٌ
فنحـــمـــدَ منك العـــودَ إنْ عُـــدْتَ والكَرّا
فـــيـــا ربَّ يومٍ في ذراها وليلةٍ
وصَلْنا هناك الشـــمسَ باللهـــو والبـــدرا
فـــوا جـــسْـــميَ المضنَى وواقَلْبيَ المُغْـــرى
ووانَفْـــسيَ الثكلى وواكـــبـــدي الحَـــرّى
ويا هَمٌّ مـــا أعـــدى، ويا شَـــجْـــوُ مـــا أبرا
ويا وَجْـــدُ مـــا أشـــجى، ويا بَينُ مـــا أقْـــرا
ويا دهرُ لا تبـــعَـــدْ، ويا عـــهـــدُ لا تحُلْ
ويا دمعُ لا تجـــمَـــدْ، ويا ســـقم لا تَبْـــرا
ســـأندب ذاك العَـــهْـــدَ مـــا قـــامت الخَـــضْـــرا(٤)
على الناس ســـقـــفـــاً واســـتـــقلّت بنا الغَـــبْـــرا

الهوامش

(١) انظر أعمال الأعلام (تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت ١٠٦-١٠٨.
(٢) المروين: مثنى مرو، وهما مدينتان بخراسان.
(٣) النهر: نهر جيحون.
(٤) الخضراء: السماء.

الملحق (٢)
(ص ٢٥٧)

أحمد بن كُليب النَّحوى[١] ، أديب شاعر مشهور الشّعر، ولا سيما شعره في أسْلَمَ وكان قد أفرط في حُبِّه حتى أدّاه ذلك إلى موته، وخبَرَهُ في ذلك طريفٌ.

حدثني أبو محمد عليّ بن أحمد، قال: حدثني أبو عبد الله محمد بن الحسن المَذْحجي[٢] ، قال: كنتُ أختلفُ في النَّحْو إلى أبي عبد الله محمد بن خَطَّاب النَّحوي[٣] في جماعة، وكان معنا عنده أبو الحسن أسْلَم بن أحمد بن سعيد بن قاضي الجماعة أسْلَم بن عبد العزيز[٤]، صاحب المُزني والرَّبيع[٥] ، قال محمد بن الحسن: وكان من أجمل من رأته العيون، وكان يجيء مَعَنَا إلى محمد بن خطاب، أحمدُ بن كُلَيْب، وكان من أهل الأدب البارع، والشعر الرائق، فاشتدَّ كَلَفُه بأسْلم، وفارق صبرَه، وصرف فيه القول متستراً بذلك إلى أن فشت أشعارُهُ فيه وجَرَتْ على الألْسنة، وتنوشدت في المحافل؛ فَلَعَهْدي بعرس في بعض الشوارع بقُرْطبة، والنّكُوريّ الزامرُ قاعدٌ في وسط الحَفل، وفي رأسه قَلَنْسُوَةٌ وشْي وعليه ثوب خز عُبَيْدي، وفرسُه بالحلية المحلاة يُمسكه غلامُه، وكان فيما مَضى يزمر لعبد الرحمن الناصر، وهو يزمر في البوق بقول أحمد بن كُلَيْب في أسلم: (من المتقارب).

أسْلَمَني في هوا ... ه أسْلُم هذا الرّشا

غزالٌ له مقلة ... يصيب بها من يشا

وَشَى بيننا حاسدٌ
سَيُسْأَلُ عمّا وشى
ولو شاء أن يرتَشي
على الوصل رُوحي ارْتَشَى

ومُغنٍّ محسن يسايره فيها؛ قال: فلما بلغ هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالس الطَّلب، ولزم بيته والجلوسَ على بابه، فكان أحمد بن كُلَيب لا شُغلَ له إلا المرور على باب دار أسلم سائراً، ومُقبلاً نهارَهُ كله، فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهاراً، فإذا صلّى المغرب واختلط الظلام خرج مستروحاً وجلس على باب داره. فعيل صبرُ أحمد بن كُلَيْب، فتحيَّلَ في بعض اللّيالي ولبسَ جبةً من جباب أهل البادية، واعتمّ بمثل عمائمهم، وأخذ بإحدى يديه دجاجاً، وبالأخرى قفصاً فيه بيض، وتحيّنَ جلوس أسلم عند اختلاط الظلام على بابه، فتقدّم إليه وقبلَّ يده، وقال يأمر مولاي بأخذ هذا، فقال له أسلم: ومَن أنت؟ فقال: صاحبكَ في الضيعة الفلانية، وقد كان تَعرّف أسماءَ ضياعه وأصحابه فيها، فأمر أسلمُ بأخذ ذلك منه، ثم جعل أسلمُ يسأله عن الضيعة، فلما جاوبه أنكَر الكلام وتأمله فعرفه، فقال له: يا أخي! وهُنا بَلغتَ بنفسك، وإلى هاهنا تَبعْتَني، أما كفاك انقطاعي عن مجالس الطَّلب، وعن الخروج جُملة، وعن القعود على بابي نهاراً، حتى قطعتَ عليَّ جميعَ ما لي فيه راحة، فقد صرْتُ من سجنك(٦). والله لا فارقتُ بعد هذه الليلة قَعْرَ منزلي، ولا قعدتُ ليلاً ولا نهاراً على بابي ثم قام وانصرف أحمدُ بن كليب كئيباً حزيناً. قال محمد بن الحسن: واتّصل ذلك بنا، فقلنا لأحمد بن كليب، وخسرت دجاجك وبيضك؟ فقال: هات كلَّ ليلة قُبلةَ يده وأخسَر أضعاف ذلك. قال: فلما يئس من رُؤيته ألبَتَّة نهكتْه العلةُ، وأضجعه المرض. قال محمد بن الحسن: فأخبرني أبو عبد الله محمد بن خَطّاب شيخنا، قال: فعدتُهُ فوجدتُهُ بأسْوَأ حال، فقلت له: ولِمَ لا تتداوى؟ فقال: دوائي معروف، وأما الأطباء فلا حيلة لهم في ألبَتَّة، فقلت له: وما دواؤُك؟ فقال: نظرةٌ من أسلَم، فلو سعيتَ في أن يَزُورَني لأعظَمَ الله أجرك بذلك، وكان هو والله أيضاً يؤجر، قال: فرحمتُه وتقطَّعت نفسي له، ونهضتُ إلى أسلم فاستأذنتُ عليه، فأذن لي وتلقّاني بما يجب، فقلتُ له: لي حاجةٌ، قال: وما هي؟ قلتُ: قد علمتَ ما جَمَعك مع أحمد بن كُلَيْب من ذمام الطَّلب عندي، فقال: نعم، ولكن تعلَم أنه برَّحَ بي، وشَهَرَ اسمي وآذاني، فقلت لَه: كلُّ ذلك يُغْتفَرُ في مثل الحال التي هو فيها، والرجُلُ يموتُ،

فتفضَّل بعيادته، فقال والله ما أقْدِرُ على ذلك، فلا تكلفني هذا، فقلت له: لابدَّ، فليس عليك في ذلك شيء، وإنما هي عيادة مريض. قال: ولم أزَلْ به حتى أجاب، فقلت: فقم الآن، فقال لي: لستُ والله أفعل، ولكن غداً، فقلتُ له: ولا خُلْفَ، قال: نعم. فانصرفتُ إلى أحمد بن كُليب، وأخبرته بموعده بعد تأبِّيه، فسُرَّ بذلك وارتاحت نفسُه. قال: فلما كان الغدُ بكَّرْتُ إلى أسْلَم وقلت له: الوعدَ، قال: فوجم وقال: والله لقد تَحْمِلُني على خُطَّة صعبة عليَّ، وما أدري كيف أطيق ذلك. قال: فلما أتينا منزلَ أحمدَ بن كُليب،وكان يسكن في آخر درب طويل، وتوسط الدَّرْب، وقف واحمرَّ وخجلَ، وقال لي: الساعةَ والله أموت، وما أستطيع أن أنقلَ قَدَمي، ولا أن أعرض هذا على نفسي، فقلت: لا تفعَلْ، بعدَ أن بلغت المنزلَ تنصَرف؟ قال: لا سبيل والله إلى ذلك ألْبَتَّة، قال: ورجع مُسرعاً فاتَّبَعْتُهُ، وأخذتُ بردائه، فتمادَى وتمزَّقَ الرِّداء، وبقيَتْ قطعةٌ منه في يدي لسُرعته وإمساكي له، ومضى ولم أُدركه، فرجعتُ ودخلتُ إلى أحمد بن كُلَيب، وقد كان غلامُهُ دخل عليه إذْ رآنا من أول الدَّرب مُبشّراً، فلما رآني تغيَّرَ وقال: وأين أبو الحسن؟ فأخبرته بالقصة، فاستحال من وقته واختلط، وجعل يتكلَّم بكلام لا يُعْقَل منه أكثرُ من الترجُّع، فَاستشنعْتُ الحالَ، وجعلتُ أترَجَّعُ وقمتُ، فثاب إليه ذهنهُ وقال لي: أبا عبد الله! قلتُ: نعم. قال: اسمع منِّي واحفَظ عنِّي، ثم أنشأ يقول: (مخلع البسيط).

أسلمُ يا راحةَ العليلِ
رفقاً على الهائم النحيلِ
وصلُك أشهى إلى فؤادي
من رحمة الخالق الجليلِ

قال: فقلت له: اتق الله! ما هذا العظيمة؟ فقال لي: قد كان! قال: فخرجتُ عنه، فوالله ما توسطتُ الدَّرب حتى سمعتُ الصُّراخ عليه، وقد فارق الدنيا.

قال لنا أبو محمد عليُّ بن أحمد، وهذه قصةٌ مشهورة عندنا، ومحمد بن الحسن ثقةٌ ومحمد بن خطاب ثقة. وأسلم هذا من بيت جليل، وهو صاحب الكتاب المشهور في أغاني زرْياب، وكان شاعراً أديباً؛ وقد رأيتُ ابنه أبا الجعد.

قال أبو محمد: لقد ذكرتُ هذه الحكاية لأبي عبد الله محمد بن سعيد الخَوْلاني الكاتب فعرفها، وقال لي: لقد أخبرني الثقةُ أنه رأى أسلم هذا في يوم شديد المطر، لا يكاد أحد يمشي في طريق، وهو قاعد على قبر أحمد بن كُلَيب زائراً له، وقد تحيَّن

غفلة الناس في مثل ذلك الوقت.

وقال لنا أبو محمد: وحدثني أبو محمد قاسم بن محمد القرشي، قال: كتب ابن كُلَيب إلى محمد بن خَطَّاب شعراً يتغزلُ فيه بأسْلَم فعرضه ابنُ خطَّاب على أسلم، فقال: هذا ملحون، وكان ابن كلَّيب قد أسقط التنوين في لفظة في بيت من الشعر، قال: فكتب ابن خطاب بذلك إلى ابن كُليب فكتب إليه ابن كليب مسرعاً: (من السريع)

أَلحِق لِيَ التَّنوينَ في مطمعٍ
فإنني أُنسيتُ إلحاقَه
لاسيما إذ كان في وصلِ مَنْ
كَدَّر لي في الحُبِ أخلاقَه

وأنشدني أبو محمد علي بن أحمد، قال: أنشدني محمد بن عبد الرحمن بن أحمد التُّجيبي، لأحمد بن كُلَيب، وقد أهدَى إلى أسلم في أوائل أمره كتابَ "الفصيح" لثعلب: (من المجتث)

هذا كتابُ الفصيحِ
بكُلِّ لفظٍ مَليحِ
وهبتُه لك طوعاً
كما وهبتك روحي

الهوامش

(١) انظر جذوة المقتبس: ١٣٤ (وبغية الملتمس رقم: ٤٦٢) ومعجم الأدباء ٤: ١٠٨

(٢) هو أستاذ ابن حزم في الفلسفة؛ راجع مقدمة كتاب التشبيهات من تحقيقي.

(٣) محمد بن خطاب النحوي (٩٣٨) كان من الأدباء المشهورين والنحاة المذكورين، يختلف اليه في علم العربية أولاد الأكابر (الجذوة: ٥٠ وبغية الوعاة ١: ٩٩).

(٤) ترجمة أسلم في الجذوة: ١٦٢ وبغية الملتمس رقم: ٥٧٠.

(٥) المزني هو اسماعيل بن يحيى (انظر طبقات الشيرازي: ٩٧) والربيع بن سليمان المرادي (المصدر نفسه: ٩٨).

(٦) ياقوت: في سجنك.

الفهرس

الكتاب للجميع

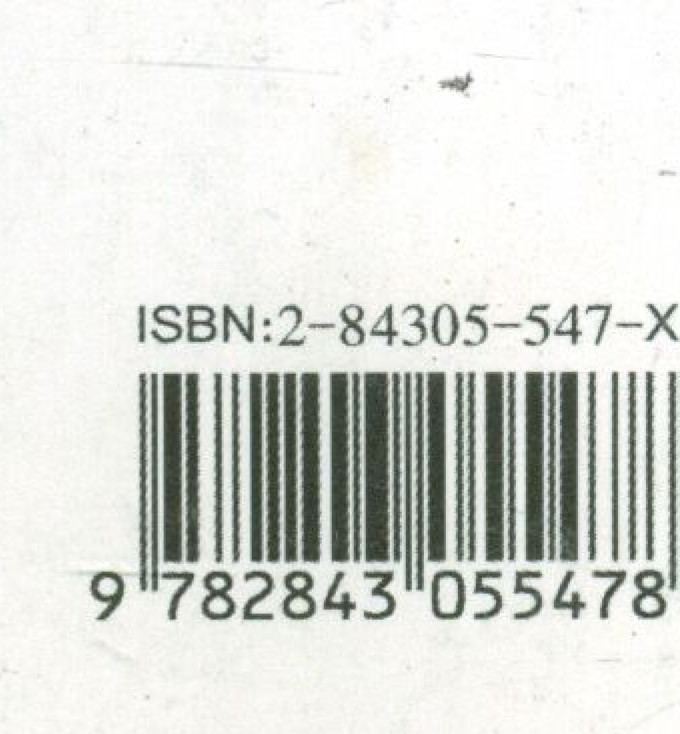
هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في
هذا المشروع العربي متنازلة
عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN:2-84305-547-X





سلسلة كتب شهرية
توزع مجاناً
مع الصحف التالية

الحياة السعودية
الأيام البحرين
البيان الإمارات
الثورة سورية
الس
القـ ـر
القـ